من مفاهيم عقيدة السلف الصالح

الولاء والبراء في الإسلام

تأليف

محمد بن سعيد القحطاني

تقديم فضيلة الشيخ

عبد الرزاق عفيفي

الفتح للإعلام العربي

القاهرة

الطبعة الأولىٰ ١٤٠٢ هـ
الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ
الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ
الطبعة الرابعة ١٤١١ هـ
الطبعة الخامسة ١٤١٢ هـ
الطبعة السادسة ١٤١٣ هـ
الطبعة السابعة ١٤١٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :-

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

المائدة

وقال تعالى :-

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ

آية ٤ الممتحنة

وقال صلى الله عليه وسلم

« أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله »

حديث حسن

هذا الكتاب

رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة التخصص الأولى " الماجستير" من جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، فرع العقيدة وقد تكونت لجنة المناقشة من :

١ - فضيلة الشيخ الأستاذ محمد قطب المشرف على الرسالة : رئيساً .

٢ - فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي : عضواً .

٣ فضيلة الدكتور عبد العزيز عبيد : عضواً .

ومنح صاحبها درجة الماجستير بتقدير ممتاز وذلك ليلة السبت ٤/٨/١٤٠١ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ
العلاّمة عبد الرزاق عفيفي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فموضوع هذا الكتاب له شأنه وله أهميته في نفسه، وبالنسبة لكتابته في هذا الوقت، فبين كتابته وبين الوقت الذي نعيش فيه الآن مناسبة قويّة.

أما أهميته في نفسه: فذلك لأنه في أصل من أصول الإسلام هو: ''الولاء والبراء''.

وهما مظهران من مظاهر إخلاص المحبة لله، ثم لأنبيائه وللمؤمنين.

والبراء: مظهر من مظاهر كراهية الباطل وأهله. وهذا أصل من أصول الإيمان، وأما أهميته بالنظر للوقت الحاضر: فلأنه قد اختلط الحابل بالنابل!، وغفل الناس عن مميزات المؤمنين التي يتميزون بها عن الكافرين، وضَعُفَ الإيمان في قلوبهم حتى ظهرت فيهم مظاهر يكرهها المؤمن.

والوا الكافرين أمماً ودولاً، وزهدوا في كثير من المؤمنين، وحطّوا من قدرهم، وساموهم سوء العذاب.

ومن هنا: تأتي أهمية نشر هذا الكتاب في هذا الوقت الحاضر بالذات.

ولقد جاء المؤلف على جوانب الولاء والبراء، ونقل في ذلك كثيراً من كلام العلماء، وقدّم له ومهّد، وعقّب عليه وعلّق، وآستدل على ما جاء به من مبادىء الولاء والبراء بآيات من القرآن، وبأحاديث صحيحة عن رسول آلله ﷺ، وبكثير من آثار الصحابة ومن تبعهم من السَّلف.

وبيَّن وجه الاستشهاد بهذا وبهذا، ورقم للآيات وبيَّن سورها، وأخرج الأحاديث والآثار وبيَّن درجتها في الغالب الكثير.

وبرزت شخصية الباحث في كتابه مما يدل على سعة آطلاعه وقوة بحثه.

وأسأل آلله جلَّ شأنه أن ينفع المسلمين بهذا الكتاب، وأن يهيىء لمؤلفه إخواناً ينهجون نهجه، فالأمل كبير، الأمل في آلله عظيم أن ينشأ كثير من شبابنا الحاضر على هذا المبدأ القيم، مبدأ نصرة دين الإسلام وإحياء ما آندرس منه فإن ربِّي مجيب الدعاء.

عبد الرزاق عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بآلله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده آلله فهو المهتدي، ومن يضلل آلله فلن تجد له وليًا مرشداً، وأشهد أن لاَ إله إلاَ آلله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلّى آلله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله وآهتدى بهداه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد :

فإنه من رحمة آلله سبحانه وتعالى وعظيم لطفه بخلقه: أن جعل الرسالة المحمدية هي خاتمة الرسالات السماوية، وجعلها سبحانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيغ عنها إلا هالك. وكتب تبارك آسمه وتعالى جدّه السعادة في الدّارين لأتباع هذه الرسالة الذين قدروها حق قدرها، وقاموا بها على وفق ما أراد آلله وعلى هدي نبي آلله ﷺ وسماهم أولياء آلله وحزبه. وكتب عزّ وجلّ الشقاء والذلة على من حاد عن هذه الشريعة وتنكب الصراط المستقيم وسماهم أولياء الشيطان وجنده.

وأصل هذه الرسالة الخالدة: كلمة التوحيد ''لا إله إلا آلله محمد رسول آلله'' هذه الكلمة العظيمة - كما يقول آبن القيّم -:

(التي لأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة

والنار، وبها آنقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، وأسست الملّة، ولأجلها جُردت السيوف للجهاد، وهي حق آلله على جميع العباد.

(وحقيقة هذه الكلمة: مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً، والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبة وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في آلله، والبغض في آلله، والعطاء لله، والمنع لله، وأن يكون آلله وحده إلٰهه ومعبوده.

(والطريق إليه: تجريد متابعة رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى آلله ورسوله)[1].

هذه الكلمة العظيمة بكل مفاهيمها ومقتضياتها قد غابت عن حس الناس اليوم إلاّ من رحم آلله، ومن هذه المفاهيم بل من أهمها موضوع: ''الولاء والبراء''.

ولئن كان هذا المفهوم العقدي آلهام قد غاب اليوم عن واقع حياة المسلمين ــ إلا من رحم ربّك ــ فإن ذلك لا يغيّر من حقيقته الناصعة شيئاً

ذلك أن الولاء والبراء: هما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة. وهو مفهوم ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة.

ولن تتحقق كلمة التوحيد في الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء، والبراء ممن يستحق البراء.

ويحسب بعض الناس أن هذا المفهوم العقدي الكبير يدرج ضمن القضايا الجزئية أو الثانوية ولكن حقيقة الأمر بعكس ذلك.

---

(١) «الفوائد» تحقيق جابر يوسف: (ص ١٤٣)

إنها قضية إيمان وكفر كما قال آلله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

[سورة التوبة: ٢٣ – ٢٤]

وقال جلَّ جلاله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

[سورة المائدة: ٥١]

وقد قال أحد العلماء – وهو الشيخ حمد بن عتيق رحمه آلله – : (إنه ليس في كتاب آلله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم – أي الولاء والبراء – بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده) [١].

ولقد قامت الأمة الإسلامية بقيادة البشرية دهراً طويلاً حيث نشرت هذه العقيدة الغرّاء في ربوع المعمورة، وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

---

(١) «النجاة والفكاك»: (ص ١٤).

ثم ما الذي حدث؟

* لقد تقهقرت هذه الأُمة إلى الوراء بعد أن تركت الجهاد وأخذت بأذناب البقر!
* تراجعت بعد أن زهدت في الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام.
* تبعت الأُمم الأُخرى بعد أن ركنت إلى حياة الدعة والرفاهية والبذخ والمجون.
* تبلبلت أفكارها بعد أن خلطت نبعها الصافي بالفلسفات الجاهلية والمرطقة البشرية.
* دخلت هذه الأُمة في طاعة الكافرين وآطمأنت إليهم، وطلبت صلاح دنياها بذهاب دينها فخسرت الدنيا والآخرة.

وبرزت صور موالاة الكفار في أمور شتى منها :

(١) محبّة الكفّار وتعظيمهم ونصرتهم على حرب أُولياء آلله، وتنحية شريعة آلله عن الحكم في الأرض، ورميها بالقصور والجمود، وعدم مسايرة العصر ومواكبة التقدم الحضاري.

(٢) ومنها : آستيراد القوانين الكافرة – شرقيّة كانت أم غربيّة –، وإحلالها محل شريعة آلله الغرّاء، وغمز كل مسلم يطالب بشرع آلله بـ ''التعصب والرجعية والتخلف''!

(٣) ومنها : التشكيك في سنّة رسول آلله ﷺ، والطعن في دواوينها الكريمة، والحطّ من قدر أُولئك الرجال والأعلام الذين خدموا هذه السنّة حتى وصلت إلينا.

(٤) قيام دعوات جاهلية جديدة تعتبر ردّة جديدة في حياة المسلمين، مثل: دعوة القومية الطورانية، والقومية العربية، والقومية الهندية، و... و... إلخ.

(٥) إفساد المجتمعات الإسلامية عن طريق وسائل التربية والتعليم، وبث سموم

الغزو الفكري في المناهج والوسائل الإعلامية بكل أصنافها.

وأمام هذه الصور وغيرها من الصور الكثيرة، تنشأ أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات صادقة وافية، يدعمها الدليل من الكتاب والسُّنَّة، والاسترشاد بآراء العلماء الأعلام، ومن هذه الأسئلة:

لمن ينتمي المسلم؟

ولمن يكون ولاؤه؟

وممَّن يكون براؤه؟

ما حكم تولي الكفَّار ونصرتهم؟

ما حكم الإسلام في المذاهب الفكرية التي يروّج لها المستغفلون أو الحاقدون من أبناء أُمَّتنا وممَّن ينطقون بألسنتنا؟

كيف ينبغي أن تكون صورة الولاء للمسلمين الذين يضطهدون اليوم وغير اليوم في مشارق الأرض ومغاربها، حيث تكالبت عليهم قوى الشر والكفر؟

ما هو طريق الخلاص بعدما تَقبَّل المسلمون لباسَ العبودية العقليةِ الذي خلعته عليهم المدنية الأجنبية؟

يستثير هذه الأسئلة وغيرها غيابُ المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد، وبُعد ذلك عن واقع المسلمين اليوم، حيث مسخت مفاهيمها حتى صار من يقرّ بتوحيد الربوبيّة فقط دون توحيد الألوهيّة يعتبر موحداً عند كثير من الناس!!!

أما كون لا إله إلا ٱلله ولاء وبراء، أما كونها توحيد ألوهية وعبادة: فهذه معان لا تخطر على أذهان الكثير – إلا من رحم ٱلله –.

ورحم ٱلله الإمام الدَّاعية شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حين قال:

(إن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحَّد ٱلله وترك الشرك إلاَّ بعداوة المشركين كما قال تعالى في سورة المجادلة :

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾

[سورة المجادلة: ٢٢]) [١].

وانطلاقاً من مجموع هذه الأمور، وحبًّا في خدمة هذه العقيدة، ورغبة في تفنيد الباطل وبيان الحق: عقدتُ العزم واستعنت بالله وكتبت هذا الموضوع وسميته: ''الولاء والبراء في الإسلام''.

وأنا أعلم ـــ يقيناً ـــ أن مثلي لا يعطي هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة نظراً لقلّة البضاعة وسعة الموضوع، ولكنني بذلتُ جهد المقل، واجتهدت أن أصل به إلى الصورة التي تليق به، فإن أصبت فذاك ما أردت والفضل لله أولاً وآخراً.

وإن كانت الأخرى فأستغفر الله لذنبي. وحسبي أني بذلت طاقتي ووضعت لبنةً في طريق من يريد إكمال البناء.

وأقول كما قال سلفنا الصالح: (رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي) .

كما أنني أطلب من كل قارىء كريم - عالم أو متعلم - قرأ هذا الكتاب ووجد فيه خللاً أن ينبهني إلى ذلك، وله من الله الأجر والمثوبة على قيامه بواجب النصح، ثم له مني الدعاء بظاهر الغيب.

وأخيراً أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذي الكبير العالم العامل الشيخ محمد قطب حفظه الله لما أسداه إليَّ من نصح وتوجيه، وإرشاد وتنبيه إبّان إشرافه على هذا البحث، سائلاً الله العلي القدير أن يجزيه عني خير ما جازى معلماً عن تلميذه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) «مجموعة التوحيد» (ص ١٩) ط. دار الفكر بالقاهرة.

اللّهم آجعل عملنا خالصاً صائباً، خالصاً لوجهك الكريم صائباً وفق كتابك وسُنّة نبيك ﷺ.

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به وآعف عنا وآغفر لنا وآرحمنا أنت مولانا فآنصرنا على القوم الكافرين.

محمد بن سعيد بن سالم القحطاني
مكـة المكرمة
١٤٠٢/٥/١٥هـ

التمهـــيد

التمهيد

لكي نتحدث عن الولاء والبراء من واقع التصور الإسلامي الصحيح، لا بد أن نتحدث في هذا التمهيد عن حقائق ثلاث هي:

(١) حقيقة الإسلام الممثلة في كلمة التوحيد ''لا إله إلا آلله محمد رسول آلله''، ومدلول هذه الكلمة وشروطها.

(٢) الولاء والبراء من لوازم كلمة التوحيد.

(٣) نواقض الإسلام: الشرك والكفر والنفاق والردة.

وهدفي من هذا هو: أن أحاول - بقدر الطاقة - إبراز حقيقة الإسلام، وحقيقة ما يناقضه. مع إبراز حقيقة قضية الولاء والبراء ودورهما في حياة المسلمين. لأن الولاء والبراء جزء من هذه العقيدة، فالحديث عنه يستلزم الحديث عن أساس هذه العقيدة وهي كلمة التوحيد. ومعرفة هذه العقيدة معرفة صحيحة أمر ضروري للمسلم ليكون ولاؤه وبراؤه بحسبها. إذ من المحال أن تكون هناك عقيدة سليمة بدون تحقيق الموالاة والمعاداة الشرعية.

ثم إن الوقوف على حقيقة دعوة رسول آلله ﷺ وما أحدثته هذه الدعوة من تحول في تاريخ البشرية، وما بنته من حضارة سَعِدَ بها الإنسان المسلم منذ أول لحظة عرف فيها ربّه ودينه ونبيّه: لأمر جدير بالتأمّل، تلك الدعوة التي جاءت وقد كان الناس يعيشون في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ثم أنقذتهم وأحيتهم بعد ممات :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا

[سورة الأنعام: ١٢٢]

ولقد أوضح حقيقة تلك الحال التي كانوا عليها الصحابي الجليل المقداد[1] بن الأسود رضي الله عنه فقال فيما رواه أبو نعيم في «الحلية»: (والله لقد بُعث النبيُّ ﷺ على أشد حال بعث عليه نبيٌّ من الأنبياء، في فترة وجاهلية. ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، حتى أن الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافراً - وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للإيمان - ليعلم أنه قد هلك من دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حميمه في النار، وأنها للتي قال الله عزَّ وجلَّ:

رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

[سورة الفرقان: ٧٤]).[2].

هذه الجاهلية التي تحدث القرآن عنها وهو يمتن على المسلمين بالهداية. قال تعالى:

وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

[سورة آل عمران: ١٠٣].

---

(١) هو المقداد بن الأسود. أسلم قديما وشهد بدرا والمشاهد، وكان فارسا يوم بدر. توفي سنة ٣٣هـ قال بعضهم وهو ابن سبعين سنة. وكان ذلك بالجرف على بعد ثلاثة أميال من المدينة وحمل إلى المدينة ودفن بها. انظر «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني: (ج١٠/٢٨٥).

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم: (ج١/١٧٥) وذكره صاحب كتاب «حياة الصحابة»: (ج١/٢٤١) وقال إن الطبراني أخرجه أيضاً بمعناه بأسانيد في احدهما يحيى بن صالح. وثقه الذهبي، وقد تكلموا فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (ج٦/١٧).

ولما عرف الصحابة رضوان آلله عليهم الجاهلية، ثم عرفوا الإسلام، خرجوا نتيجة للتربية القرآنيّة والعناية النبويّة – وهم أعظم جيل عرفه تاريخ هذه الدعوة.

ترى، ما سِرّ تلك العظمة التي نقرأ عنها ونسمع، وكأنها شبه أحلام، نظراً للهوة السحيقة التي وصلنا إليها؟ ذلك الجيل الذي كان الواحد منهم إذا دخل في الإسلام خلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية، وآنتقل نقلة بعيدة من عالم مظلم سحيق، وتصور قاصر، ومفاهيم كليلة، وعبوديّة للمال والعبيد، إلى حياة رحبة فسيحة، وعالم يملؤه نور آلله، وتصور كامل شامل، وآستعلاء على كل عبوديّة إلا العبوديّة لله عزّ وجلّ[٣].

إن سِرّ ذلك النجاح، وتلك العظمة هو نقطة البدء التي بدأ بها رسول آلله ﷺ وهي كلمة ''لا إله إلا آلله محمد رسول آلله'' هذه الكلمة التي مزقت كل رابطة، وأهدرت كل وشيجة إلا وشيجة العقيدة. رابطة الحب في آلله، رابطة المؤاخاة الإيمانية التي يتهاوى دونها كل عرق ودم وتراب وجنس ولون.

ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي آلله عنه قال: قال رسول آلله ﷺ: «إن آلله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي. اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[٤].

وعن عمر بن الخطاب رضي آلله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «إن من عباد

---

(٣) انظر «معالم في الطريق» للاستاذ سيد قطب: (ص ١٦) فصل جيل قرآني فريد. طبع دار الشروق، وانظر كتاب «أبو بصير قمة في العزة الإسلامية» للاستاذ محمد حسن بريغش: (ص ٤٧) ط.٢ سنة ١٣٩٧هـ الناشر مكتبة الحرمين بالرياض.

(٤) «صحيح مسلم» تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي: (ج٤/١٩٨٨ ح٢٥٦٦) كتاب البر. الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤هـ دار إحياء الكتب العربية، وانظر المسند للإمام أحمد تحقيق الشيخ أحمد شاكر: (ج١٦/١٩٢ ح٨٤٣٦) ط.٤ سنة ١٣٧٣هـ دار المعارف بمصر، و«الموطأ» تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي: (ج٢/٩٥٢).

آلله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من آلله تعالىٰ» قالوا: يا رسول آلله تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح آلله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوآلله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية :

أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ

[سورة يونس: ٦٢].

ولقد مكث رسول آلله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى هذه العقيدة ويمكنها في نفوس العصبة المسلمة، مما جعل آثار ذلك تنعكس في أفعالهم الحميدة، وجهادهم المستمر لنشر كلمة آلله في الأرض، حين قامت دولة المصطفى ﷺ في المدينة المنورة.

إن الذي يجعلنا نتحدث عن قضية الألوهية، ومفهومها الصحيح الذي جاء به الإسلام هو الحاجة الماسة لشرحها اليوم، وبيانها للناس. بعد أن آنحرف الناس - إلا من رحم آلله - عن العقيدة الصافية التي جاء بها الرسول ﷺ.

لقد أصبحت هذه القضية عند سواد الناس اليوم مجرد لفظة ترددها الألسنة دون وعي وتدبر لمعناها ولوازمها، و لم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل تعداه إلى إيراد بعض النصوص للاستشهاد بها على ما يرون من معتقد، دون نظر لكامل النصوص في هذه القضية، ودون رجوع إلى بيان ذلك في كتب أهل العلم من كتب الحديث وشروحها وكتب التفسير وشروح جهابذة رجال الدعوة والإصلاح على مدار تاريخ هذه الأمة.

ومسخ أيضاً مفهوم العبادة الشامل الكامل للحياة الدنيا والآخرة إلى جزء

---

(٥) «سنن أبي داود»: (ج٣/٧٩٩ ح٣٥٢٧) كتاب البيوع. واسناده صحيح. تعليق عزت الدعاس الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ الناشر محمد علي السيد بسوريا.

يسير منها وهو الشعائر التعبديّة من صلاة وصيام وزكاة وحج.

أما النظام الذي تقوم عليه الحياة. أما الولاء لمن يكون؟ والبراء ممن يكون؟ أما الحب لمن؟ والبغض لمن؟ فهذه معانٍ بعيدة عن تصورهم ومجال تفكيرهم!!

إن هذا الدِّين لم يكن توحيد ربوبية فحسب. وإنما هو أيضاً توحيد ألوهية وتوحيد أسماء وصفات تليق بجلال آلله وعظمته.

وتأمل — كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه آلله — :

(حال رسول آلله ﷺ لمَّا قام ينذر المشركين عن الشرك، ويأمرهم بضده وهو التوحيد، لم يكرهوا وآستحسنوا، وحدثوا أنفسهم بالدخول فيه، إلى أن صرح بسبِّ دينهم وتجهيل علمائهم، فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة، وقالوا: سفه أحلامنا، وعاب ديننا، وشتم آلهتنا، ومعلوم أنه ﷺ لم يشتم عيسى وأمّه، ولا الملائكة، ولا الصالحين، ولكن لما ذكر أنهم لا يُدْعون ولا ينفعون، ولا يضرون: جعلوا ذلك شتماً.

(فإذا عرفت هذا، عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام – ولو وحَّد آلله وترك الشرك – إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض، كما قال تعالى في سورة المجادلة :

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ

[سورة المجادلة: ٢٢].

(فإذا فهمت هذا جيداً عرفت أن كثيراً من الذين يدَّعون الدِّين لا يعرفونها – أي لا إله إلا آلله – وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر على ذلك والعذاب والأسر، والضرب، والهجرة للحبشة، مع أنه ﷺ أرحم

الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم) [٦].

وما دام أن هناك من يجهل حقيقة ''لا إله إلا الله'' فلا بد من الشرح لها، والبيان لمدلولها وحقيقتها، وشروطها ونواقضها ولوازمها وإليك ذلك مفصلاً.

ومن الله نستمد العون والسداد.

---

(٦) «مجموعة التوحيد» لابن تيمية وابن عبدالوهاب وغيرهم: (ص ١٩) الناشر دار الفكر بالقاهرة.

كلمة التوحيد
(لا إله إلا الله محمد رسول الله)

ومعناها: لا معبود بحق إلا ٱلله، وبذلك تنفي الإلهية عما سوى ٱلله تثبتها لله وحده[7].

يقول شيخ الإسلام ٱبن تيمية رحمه ٱلله:

(ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة ٱلله، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة ''لا إله إلا ٱلله'' وهي ملّة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة ٱلله وسلامه عليهم أجمعين) [8] أما شِقها الثاني ''محمد رسول ٱلله'' فمعناه تجريد متابعته ﷺ فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر.

ومن هنا كانت ''لا إله إلا ٱلله'' ولاء وبراء، نفياً وإثباتاً.

ولاء لله ولدينه وكتابه وسنّة نبيّه وعباده الصالحين.

وبراء من كل طاغوت عبد من دون ٱلله[9].

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾

[سورة البقرة: ٢٥٦]

---

(٧) انظر «فتح المجيد»: (ص ٣٦).

(٨) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: (ج٢٨/٣٢). جمع عبدالرحمن بن قاسم ط. أولى مطبعة الحكومة سنة ١٣٨١هـ.

(٩) عرف ابن القيم الطاغوت تعريفاً جامعا فقال: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحكامون إليه غير =

وفي هذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: وآعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً بآلله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية[10] يعني الآية السابقة ٢٥٦ سورة البقرة.

وكلمة التوحيد ولاء لشرع آلله:

ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

[سورة الأعراف: ٣]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ

[سورة الروم: ٣٠]

وبراء من حكم الجاهلية:

أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

[سورة المائدة: ٥٠]

وبراء من كل دين غير دين الإسلام:

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

[سورة آل عمران: ٨٥]

ثم هي نفي وإثبات تنفي أربعة أمور. وتثبت أربعة أمور.

= الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله. انظر «فتح المجيد» لعبد الرحمن بن حسن: (ص ١٦) ط. ٧ سنة ١٣٧٧هـ مطبعة أنصار السنة.

(١٠) «الدرر السنية»: (ج١/٩٥) جمع عبدالرحمن بن قاسم.

(تنفي: الآلهة، والطواغيت، والأنداد، والأرباب.

فالآلهة: ما قصدته بشيء من جلب خير أو دفع ضر، فأنت متخذه إلهاً.

والطواغيت: من عبد وهو راض، أو رُشح للعبادة.

والأنداد: ما جذبك عن دين الإسلام، من أهل، أو مسكن، أو عشيرة، أو مال فهو ندّ لقوله تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥]

والأرباب: من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته، مصداقاً لقوله تعالى :

ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

[سورة التوبة: ٣١]

وتثبت أربعة أمور :

القصد: وهو كونك ما تقصد إلا ٱلله.

والتعظيم والمحبة: لقوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥]

والخوف والرجاء: لقوله تعالى :

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ

[سورة يونس: ١٠٧]

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير ٱلله ولا تكبر عليه جهامة الباطل،

كما أخبر تعالى عن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بتكسير الأصنام وتبرّيه من قومه:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ

[سورة الممتحنة: ٤] ﴾ (١١).

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبيِّن معنى لا إله إلا الله، ينفي الشرك وتوابعه، ويقرر الإخلاص وشرائعه، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلول كلمة الإخلاص، لأن دلالتها على الدِّين كله إما مطابقةً وإما تضمناً وإما التزاماً(١٢)، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى.

والتقوى: أن يتقي سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي، وإخلاص العبادة لله، واتباع أمره على ما شرعه. كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله»(١٣).

أما كيف تم لأصحاب رسول الله ﷺ معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضياتها ولوازمها فيشرح ذلك الإمام الجليل سفيان بن

---

(١١) نصع رسائل في عقائد الإسلام للشيخ/ محمد بن عبدالوهاب: (ص ٣٥) تحقيق [illegible] الطبعة الأولى [illegible] ١٣٤٩هـ مطبعة المنار بمصر

(١٢) دلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على كل معناه.
دلالة التضمن: هي دلالة اللفظ على جزء معناه.
دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على معنى خارج عنه لكنه لازم له.

(١٣) انظر «المورد العذب الزلال» ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية: (ج٤/٩٩) تحقيق رشيد رضا الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦هـ مطبعة المنار بمصر.

عيينة[14]:

(حدث محمد بن عبد الملك المصيصي قال: كنا عند سفيان بن عيينة في سنة سبعين ومائة، فسأله رجل عن الإيمان؟ فقال: قول وعمل. قال: يزيد وينقص؟ قال: يزيد ما شاء آلله، وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه، وأشار سفيان بيده. قال الرجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون: أن الإيمان قول بلا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده.

إن آلله عزَّ وجلَّ بعث نبينا محمداً ﷺ إلى الناس كلّهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا آلله، وأنه رسول آلله. فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على آلله عزَّ وجلَّ، فلما علم آلله عزَّ وجلَّ صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالصلاة، فأمرهم ففعلوا، فوآلله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم[15].

(فلما علم آلله جلَّ وعلا صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة فأمرهم ففعلوا، فوآلله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم آلله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكّة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم، ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم، فأمرهم ففعلوا، فوآلله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم، ولا قتالهم، فلما علم آلله عزَّ وجلَّ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطّواف بالبيت تعبّداً، وأن يحلقوا

---

(14) هو الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي، الحافظ، أحد أعلام الإسلام ولد سنة ١٠٧هـ وتوفي سنة ١٩٨هـ وله احدى وتسعون سنة قال فيه الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز وقال فيه أحمد بن حنبل: ما رأيت أحداً أعلم بالسنن من ابن عيينة وكان كبير القدر. من العبّاد. حج سبعين سنة. انظر «شذرات الذهب»: (ج١/٣٥٤)، و«الأعلام»: (ج٣/١٠٥) ط. ٤.

(15) هكذا بالنص، والذي يبدو لي — والله أعلم — أن سياق الكلام يقتضي أن يكون هكذا ''ما نفعهم الإقرار الأول'' يدل على ذلك ما سيأتي في بقية النص.

رؤوسهم تذللاً ففعلوا، فوآلله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم، فلما علم آلله عزَّ وجلَّ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها، وآلله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم. فلما علم آلله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال عزَّ وجلَّ: قل لهم :

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا

[سورة المائدة: ٣]

(قال سفيان: فمن ترك خلّة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافراً، ومن تركها كسلاً أو تهاوناً بها، أدّبناه وكان بها عندنا ناقصاً. هكذا السنّة أبلغها عني من سألك من الناس) [١٦].

وقد ذكر العلماء رحمهم آلله شروطاً سبعة لـ ''لا إله إلا آلله'' لا تنفع صاحبها إلا بآجتماع هذه الشروط. وإليك شرحها :

---

(١٦) كتاب «الشريعة» لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري: (ص ١٠٤) الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩هـ تحقيق محمد حامد الفقي. الناشر: مطبعة أنصار السنّة المحمدية بمصر.

شروط (لا إله إلا الله)

ينبغي أن نعلم أنه :

(ليس المراد من هذا عدّ ألفاظها وحفظها، فكم من عاميٍّ اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له أعددها لم يُحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله) (١٧).

وقد قال وهب بن منبه(١٨): لمن سأله :

(أليس ''لا إله إلا الله'' مفتاح الجنّة؟ قال: بلى. ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك) (١٩)

وأسنان هذا المفتاح هي شروط ''لا إله إلا الله'' الآتية :

الشرط الأول: العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً، المنافي للجهل بذلك قال تعالى :

فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ

[سورة محمد: ١٩]

---

(١٧) «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي: (ج١/٣٧٧) الطبعة الأولى تصوير ادارات البحوث العلمية بالرياض.

(١٨) وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني روى عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وابن عمر وغيرهم. قال العجلي: تابعي ثقة وكان على قضاء صنعاء ووثقه أيضاً: أبو زرعة والنسائي وابن حبان. كان مولده سنة ٣٤هـ ووفاته سنة ١١٠هـ. انظر «تهذيب التهذيب»: (ج١١/١٦٧).

(١٩) رواه البخاري تعليقاً في كتاب الجنائز باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: (ج٣/١٠٩).

وقال تعالى :

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾

[سورة الزخرف: ٨٦]

أي: بـ "لا إله إلا الله": "وهم يعلمون" بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال تعالى :

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[سورة آل عمران: ١٨]

وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[٢٠].

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك. ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة، يقيناً جازماً، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن[٢١] قال تعالى :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

[سورة الحجرات: ١٥]

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

---

(٢٠) «معارج القبول»: (ج١/٣٧٨)، وانظر «الجامع الفريد» (ص ٣٥٦). والحديث مروي في «صحيح مسلم» تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي: (ج١/٥٥ ح٢٦) كتاب الإيمان.

(٢١) «معارج القبول»: (ج١/٣٧٨).

ٱلله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا ٱلله وأني رسول ٱلله، لا يلقى ٱلله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»[٢٢]. وفي رواية: «لا يلقى ٱلله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة». وعن أبي هريرة أيضاً من حديث طويل: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا ٱلله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»[٢٣].

وقال القرطبي: في «المفهم على صحيح مسلم»: (بابٌ لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لا بد من ٱستيقان القلب. وهذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده. بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً) [٢٤].

الشرط الثالث: القبول لما ٱقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد قصّ ٱلله عزَّ وجلَّ علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وٱنتقامه ممن ردّها وأباها كما قال تعالى:

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

[سورة الزخرف: ٢٣ – ٢٥]

---

(٢٢) «صحيح مسلم»: (ج١/٥٦ ح٢٧) كتاب الإيمان.
(٢٣) «صحيح مسلم»: (ج١/٦٠ ح٣١) كتاب الإيمان.
(٢٤) «فتح المجيد»: (ص ٣٦).

وقال تعالى:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة يونس: ١٠٣]

ويقول تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾

[سورة الصافات: ٣٥ - ٣٦])[٢٥].

الشرط الرابع: الانقياد لما دلت عليه، المنافي لترك ذلك.

قال تعالى:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾

[سورة الزمر: ٥٤]

وقال:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

[سورة النساء: ١٢٥]

وقال تعالى:

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾

[سورة لقمان: ٢٢]

أي بلا إله إلا الله.

وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[٢٦]

(٢٥) «معارج القبول»: (ج١/٣٨٠).
(٢٦) «معارج القبول»: (ج١/٣٨١)، وانظر الرسالة الخامسة حول لا إله إلا الله =

وهذا هو تمام الانقياد وغايته.

وقال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

[سورة النساء: ٦٥]

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة، ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[27].

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقاً من قلبه، يواطىء قلبه لسانه، قال تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾

= المطبوعة مع «الكلمات النافعة» للشيخ/ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (ص ٧٣) ط.٢ سنة ١٤٠٠هـ السلفية بمصر.
والحديث، مروي في: «الأربعين النووية» للإمام النووي: (ص ١٣٤) الحديث الحادي والأربعون الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣م الناشر مطابع قطر. قال النووي: وهو حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة باسناد صحيح.

(٢٧) «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير: (ج٢/٣٠٦) تحقيق عبدالعزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنّا. مطبعة الشعب.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾

[سورة العنكبوت: ١ - ٣][٢٨].

وقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

[سورة البقرة: ٨ - ١٠]

وفي «الصحيحين» عن معاذ بن جبل رضي ٱلله عنه عن النبيّ ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا ٱلله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه ٱلله على النار»[٢٩].

قال العلاّمة ٱبن القيم:

(والتصديق بلا إله إلا ٱلله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وٱمتثال أوامره وٱجتناب نواهيه.. فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقّها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقّها)[٣٠].

---

(٢٨) «معارج القبول»: (ج١/٣٨١).

(٢٩) «صحيح البخاري»: (ج١/٢٢٦ ح١٢٨) كتاب العلم. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي المطبوع مع فتح الباري بالمطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٨٠ الطبعة الأولى. وانظر «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» للشيخ محمد فؤاد عبدالباقي: (ج١/٨ ح٢٠) تصوير المكتبة الإسلامية ـــ بيروت. .

(٣٠) «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم: (ص ٤٣) تعليق طه يوسف شاهين.

وفي الحديث، قال ﷺ: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا ٱلله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه»[31].

وقال ٱبن رجب:

(أما من قال: لا إله إلا ٱلله بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية ٱلله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية ٱلله في طاعة الشيطان والهوى

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ

[سورة القصص: ٥٠]

وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

[سورة سورة صٓ: ٢٦] [32]

الشرط السادس: الإخلاص، وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك[33]. قال تعالى:

أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ

[سورة الزمر: ٣]

وقال تعالى:

وَمَا أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ

[سورة البينة: ٥]

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي

---

(٣١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (ج١/٧٠) كتاب الإيمان. وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣٢) «كلمة الإخلاص»: (ج ٢٨).

(٣٣) «معارج القبول»: (ج١/٣٨٢)، وانظر «الجامع الفريد»: (ص ٣٥٦).

من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» «أو نفسه»[٣٤].

وفي «الصحيح» عن عتبان بن مالك[٣٥] رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «إن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عزَّ وجلَّ»[٣٦].

وللنسائي في «اليوم والليلة» من حديث رجلين من الصحابة عن النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير مخلصاً بها قلبه، يصدق بها لسانه، إلا فتق الله لها السماء فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤله»[٣٧].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله:

(إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنَّة)[٣٨].

---

(٣٤) «صحيح البخاري»: (ج١/١٩٣ ح٩٩) كتاب العلم باب الحرص على الحديث.

(٣٥) هو عتبان بن مالك بن العجلان الخزرجي السالمي الأنصاري. بدري عند الجمهور. كان إمام قومه في بني سالم. وذكر ابن سعد أن النبي ﷺ آخى بينه وبين عمر. وقد مات في خلافة معاوية.
انظر «الإصابة» لابن حجر: (ج٢/٤٥٢).

(٣٦) «صحيح مسلم»: (ح١/٤٥٦ ح٢٦٣) كتاب المساجد.

(٣٧) أورد هذا الحديث ابن رجب في «كلمة الإخلاص»: (ص ٦١). وقال فيه الألباني: عزاه في الجامع الكبير (٢/٤٧٧/١) عن يعقوب بن عاصم قال: حدثني رجلان من الصحابة. ويعقوب هذا من رجال مسلم ووافقه ابن حبان فإن كان السند إليه صحيحاً فالحديث ثابت.

(٣٨) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (ص٤٥١) تحقيق محمد حامد الفقي. الطبعة الثانية سنة ١٣٦٩هـ، مطبعة أنصار السنّة.

ولقد ضرب آلله سبحانه في القرآن العظيم مثلاً واضحاً للمخلص في توحيده وللمشرك قال تعالى:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

[سورة الزمر: ٢٩]

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه آلله في تفسيرها:

(هذا مثل يضربه آلله للعبد الموحد والعبد المشرك، بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزّع، ولكلٍّ منهم فيه توجيه، ولكلٍّ منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة.. وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلّفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح، هل يستويان؟ لا. لأن الذي يخضع لسيدٍ واحدٍ ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين، وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق. والذي يخضع لسادة مشتركين معذّب مقلقل، لا يستقر على حال، ولا يرضي واحداً منهم فضلاً عن أن يرضي الجميع. وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد، وحقيقة الشرك في جميع الأحوال. فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يسير على هدى من آلله يستمد منه وحده ويتجه إليه وحده) [٣٩].

ويقول الشيخ القاسمي رحمه آلله:

(إن القصد هو توحيد المعبود في توحيد الوجهة، ودرء الفرقة كما قال تعالى:

---

(٣٩) «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب: (ج٥/٣٠٤٩)، الطبعة المشروعة، الناشر: دار الشروق. وانظر «التفسير القيم» لابن القيم: (ص٤٢٣) جمع محمد أويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي، الناشر: لجنة التراث — بيروت.

ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ

[سورة يوسف: ٣٩]) (٤٠).

(إن الإسلام لا بد فيه من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة ''لا إله إلا ٱلله'' فمن أسلم لله ولغير ٱلله فهو مشرك، وٱلله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ

[سورة غافر: ٦٠]) (٤١).

الشرط السابع: المحبة لهذه الكلمة، ولما ٱقتضته ودلّت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥] (٤٢).

وقال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى

---

(٤٠) «محاسن التأويل» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي: (ج١٤/٥١٣٨)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦هـ، دار إحياء الكتب.

(٤١) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٤٥٤)، و«التحفة العراقية» لابن تيمية: (ص٤١).

(٤٢) «أعلام السنّة المنشورة» لحافظ الحكمي: (ص١٤)، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ الناشر: إدارات البحوث العلمية بالرياض، وانظر «معارج القبول»: (ج١/٣٨٣)، و«الجامع الفريد»: (ص٣٥٦).

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ

[سورة المائدة: ٥٤]

وفي الحديث: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون آلله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه آلله منه كما يكره أن يقذف في النار»[٤٣].

قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه آلله[٤٤]:

(وعلامة حب العبد ربّه: تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربُّه وإن مال إليه هواه. وموالاة من والى آلله ورسوله، ومعاداة من عاداه. وآتباع رسوله ﷺ، وآقتفاء أثره، وقبول هداه) [٤٥].

ويقول آبن القيم في «النونية»:

شرط المحبة أن توافق من تحب	على محبته بلا عصيان
فإذا آدّعيت له المحبة مع خلا	فك ما يحب فأنت ذو بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدّعي	حبًا له ما ذاك في إمكان
وكذا تعادي جاهداً أحبابه	أين المحبة يا أخا الشيطان
ليس العبادة غير توحيد المحبة	مع خضوع القلب والأركان

---

(٤٣) «صحيح البخاري»: (ج١/٦٠، ح١٦) كتاب الإيمان، و«صحيح مسلم»: (ج١/٦٦، ح٤٣) كتاب الإيمان.

(٤٤) هو الشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي. عالم سلفي من منطقة تهامة ولد سنة ١٣٤٢هـ بقرية السلام بالقرب من جيزان. كان آية في الذكاء وسرعة الحفظ والفهم. تتلمذ على الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي. وكان ذا علم وتقوى وعفة. وتوفي رحمه الله سنة ١٣٧٧هـ وعمره ٣٥ سنة. انظر ترجمته بقلم ابنه أحمد بن حافظ في أول معارج القبول الجزء الأول.

(٤٥) «معارج القبول»: (٣٨٣/١).

إلى أن يقول:

ولقد رأينا من فريق يدّعي الإ سلام شركاً ظاهر التبيان
جعلوا له شركاء والوهم وسو وهم به في الحب لا السلطان[46]

(٤٦) «النونيّة»: (ص١٥٨).

الولاء والبراء
من لوازم لا إله إلا الله

(لما كان أصل الموالاة: الحب. وأصل المعاداة: البغض. وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة، وكالجهاد، والهجرة، ونحو ذلك) (٤٧). فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله. وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنّة.

أما الكتاب فمن ذلك قوله تعالى:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

[سورة آل عمران: ٢٨]

ويقول تعالى:

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ

[سورة آل عمران: ٣١ – ٣٢]

---

(٤٧) «الرسائل المفيدة» للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: (ص٢٩٦)، تصحيح عبد الرحمن الرويشد، طبع سنة ١٣٩٨هـ بدار العلوم بمصر.

ويقول تباركت أسماؤه عن أهداف أعداء آلله:

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ﴾

[سورة النساء: ٨٩]

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

[سورة المائدة: ٥١]

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ﴾

[سورة المائدة: ٥٤]

أما الأحاديث والآثار فكثيرة وأذكر منها:

(١) ما رواه الإمام أحمد عن جرير بن عبد آلله البجلي أن رسول آلله ﷺ بايعه على أن «تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر»[٤٨].

(٢) روى آبن أبي شيبة بسنده قال: قال رسول آلله ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب في آلله والبغض في آلله»[٤٩].

---

(٤٨) «المسند» للإمام أحمد: (ج٤/٣٥٧، ٣٥٨)، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ، الناشر المكتب الإسلامي وهو حديث حسن.

(٤٩) «الإيمان» لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، توفي سنة ٢٣٥هـ: (ص٤٥)، تحقيق الألباني وقال: أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعاً وهو حسن، المطبعة العمومية بدمشق وانظر «المسند»: (٤/٢٨٦).

(٣) روى الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»(٥٠).

(٤) أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»(٥١).

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في شرح قول ابن عباس هذا:

(قوله: «ووالى في الله» هذا بيان للازم المحبة في الله، وهو الموالاة فيه، إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لا بد مع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب. وهي النصرة والإكرام، والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً. وقوله: «وعادى في الله» هذا بيان للازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه. أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطناً وظاهراً، إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

---

(٥٠) ذكر السيوطي في «الجامع الصغير»: (٦٩/١) وقال الألباني: حديث حسن. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (٣٤٣/٢، ح٢٥٣٦).

(٥١) «حلية الأولياء»: (٣١٢/١) عن ابن عباس، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي: (ص٣٠)، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٢هـ، الناشر: مصطفى البابي الحلبي بمصر.

﴿وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾

[سورة الممتحنة: ٤]

قلت: ومما سبق يتضح أن الولاء في الله هو: محبة الله ونصرة دينه، ومحبة أوليائه ونصرتهم. والبراء هو: بغض أعداء الله ومجاهدتهم. وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول: بـ ''أولياء الله''، والفريق الثاني: بـ ''أولياء الشيطان'' قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

[سورة البقرة: ٢٥٧]

وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

[سورة النساء: ٧٦]

واعلم أن الله سبحانه لم يبعث نبيًّا بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء، كما قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾

[سورة الأنعام: ١١٢]

---

(٥٢) «تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد» للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: (ص٤٢٢)، الناشر: إدارات البحوث العلمية بالرياض بدون تاريخ.

(وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، وكُتب وحُجج كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

[سورة غافر: ٨٣]

(والواجب على المسلم أن يتعلم من دين الله ما يصير له سلاحاً يقاتل به هؤلاء الشياطين، ومن ثمَّ لا خوف ولا حزن لأن:

﴿كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

[سورة النساء: ٧٦]

(والعاميّ من الموحّدين يغلب الألف من علماء المشركين كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾

[سورة الصآفات: ١٧٣]

(فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان) [٥٣].

وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود ونصارى ومستعربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هي تمييع عقيدة المسلمين، وتذويب شخصيتهم المتفردة، لجعلهم حميراً للشعب المختار كما تنص على ذلك ''بروتوكولات حكماء صهيون''. فإنه يتضح لدى المسلم أهمية هذا

(٥٣) بتصرف: انظر «كشف الشبهات» للإمام محمد بن عبد الوهاب: (ص٢٠)، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، الناشر: مؤسسة النور بالرياض. وانظر «مجموعة الرسائل والمسائل النجديّة»: (ج٤/٤٦).

الموضوع حتى يحذر هو ومن معه، بل يحذر المسلمون عامة، من الانزلاق في مهاوي الردى خاصة وإن الدعوات المشبوهة الملحدة تدعو إلى ما يسمى بالأخوة والمساواة وإن الدين لله والوطن للجميع.! وسوف أتعرض لهذا بالتفصيل إن شاء الله في الباب الأخير.

فَبَانَ بهذه الأدلة الواضحة من الكتاب والسنّة أن الولاء والبراء من لوازم ''لا إله إلا الله'' وهو أيضاً تحقيق معناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله) (٥٤) ويوالي المؤمنين في أي مكان حلُّوا، ويعادي الكافرين ولو كانوا أقرب قريب.

ثم إن من الولاء والبراء ما هو شطر العقيدة. وركنها الثاني الذي لا تتم إلا به وهو الكفر بالطاغوت. قال تعالى:

فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ

[سورة البقرة: ٢٥٦]

فلا يكون مؤمناً من لا يكفر بالطاغوت، وهو كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب من دون الله.

فقبول الإيمان والاستمساك بالعروة الوثقى مستلزم للكفر بالطاغوت كما نصت على ذلك الآية الكريمة.

---

(٥٤) «الاحتجاج بالقدر»: (ص٦٢)، طبعة سنة ١٣٩٣هـ، المكتب الإسلامي.

الرد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط
مع بيان المذهب الصحيح في الأحاديث الواردة بخصوصها

يقول العلامة آبن القيم رحمه آلله:

(ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه: لا خالق إلا آلله، وأن آلله ربُّ كل شيء ومليكه، كما كان عبَّادُ الأَصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة آلله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النَّبي ﷺ: «إن آلله حرم على النَّار من قال لا إله إلا آلله يبتغي بذلك وجه آلله»[٥٥] وقوله: «لا يدخل النَّار من قال لا إله إلا آلله»[٥٦]. وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث، التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة! وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي وآستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأوَّل بعضهم الدخول بالخلود وقال: المعنى لا يدخلها خالداً، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة. فإن الشارع صلوات آلله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النَّار.

بل لا بد من قول القلب، وقول اللسان.

وقول القلب: يتضمن من معرفتها والتصديق بها، ومعرفة حقيقة

---

(٥٥) سبق تخريجه (ص٣٧).

(٥٦) سبق الكلام عليه في شروط لا إله إلا الله.

ما تضمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلٰهية المنفية عن غير آلله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفةً ويقيناً وحالاً: ما يوجب تحريم قائلها على النّار.

(وتأمل حديث البطاقة[٥٧] التي توضع في كِفَّةٍ، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، ولكن السرّ الذي ثقّل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات.

(وتأمل أيضاً ما قام بقلب قاتل المائة[٥٨] من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، لأن ذلك كان أمراً آخر، وإيماناً آخر ولذلك أُلحق بأهل القرية الصالحة. وقريب من هذا ما قام بقلب البغيّ[٥٩] التي رأت ذلك الكلب وقد آشتد به العطش، يأكل الثرى ـــ فقام بقلبها ذلك الوقت ـــ مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خُفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخُفَ بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها)[٦٠].

---

(٥٧) أخرجه الإمام أحمد في «مسند عبد الله بن عمرو»: (ج٢، ص٢١٣)، الطبعة الثانية، وسنده حسن. وأخرجه الترمذي في «الإيمان»: (ج٧/٢٩٥، ح٢٦٤١) ورجاله ثقات، فالحديث صحيح.

(٥٨) «صحيح البخاري»: (ج٦/٥١٢، ح٣٤٧٠) كتاب الأنبياء، و«صحيح مسلم»: (ج٤/٢١١٨، ح٢٧٦٦) كتاب التوبة.

(٥٩) «صحيح مسلم»: (ج٤/١٧٦١، ح٢٢٤٥) كتاب السلام.

(٦٠) «مدارج السالكين» لابن القيم: (ج١/٣٣٠ ـــ ٣٣٢) بتصرف بسيط.

وقد ورد في «صحيح مسلم» قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا آلله وكفر بما يعبد من دون آلله، حرم ماله ودمه وحسابه على آلله»[٦١].

يقول محمد بن عبد الوهاب رحمه آلله:

(وهذا من أعظم ما يبيّن معنى لا إله إلا آلله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا آلله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون آلله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه) [٦٢].

ومن هنا نعلم فساد عقيدة المرجئة[٦٣]: الذين يقولون: إن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل فقط، وأخروا العمل عن الإيمان.

ومن المعلوم أن كفار مكّة قد علموا مراد النّبي ﷺ من كلمة لا إله إلا آلله، فأبوا وآستكبروا ولم يك ينفعهم إيمانهم بأن آلله واحد رازق محيي مميت. ولمّا قال لهم النّبي ﷺ قولوا: لا إله إلا آلله قالوا:

أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ

[سورة صٓ: ٥]

(فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام، وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير آعتقاد القلب بشيء من المعاني،

---

(٦١) «صحيح مسلم»: (ج١/٥٣، ح٢٣) كتاب الإيمان.

(٦٢) «كتاب التوحيد»: (ص١١٥)، المطبوع مع «فتح المجيد» الطبعة السابعة سنة ١٣٧٧هـ بتحقيق محمد حامد الفقي. الناشر: مطبعة أنصار السنّة بمصر.

(٦٣) المرجئة: من الإرجاء، بمعنى التأخير، وهم يقولون ان الإيمان هو الإقرار فقط. انظر «مقالات الإسلاميين» للأشعري: (ج١/٢١٤)، «الفرق بين الفِرَق» للبغدادي: (ص٢٠٢).

والحاذق من يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمر كله إلا ٱلله، فلا خير في رجلٍ جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إلٰه إلا ٱلله) [٦٤].

ويتابع الإمام محمد بن عبد الوهاب رده عليهم فيقول:

(وهنا شبهة: وهي قول من يقول: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: «لا إلٰه إلا ٱلله»[٦٥]. وكذلك قوله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إلٰه إلا ٱلله»[٦٦]. وأحاديث أُخر، في الكفّ عمن قالها؟!.

(ومراد هؤلاء الجهلة: أن من قالها لا يكفر، ولا يقتل ولو فعل ما فعل[٦٧]. فيقال لهؤلاء المشركين الجهال: معلوم أن رسول ٱلله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون ''لا إلٰه إلا ٱلله''، وأن أصحاب رسول ٱلله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إلٰه إلا ٱلله وأن محمداً رسول ٱلله، ويصلون ويدّعون الإسلام، وكذلك الذين حرّقهم عليّ بن أبي طالب بالنار[٦٨]. وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إلٰه إلا ٱلله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها.

(فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟!.

(ولكن أعداء ٱلله ما فهموا معنى الأحاديث. فمعلوم أن الرجل إذا أظهر

---

(٦٤) «مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب»: (ج٥/١٥) الطبعة الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٦٥) في «صحيح مسلم»: (ج١/٩٧، ح٩٧).

(٦٦) انظر «صحيح مسلم»: (ج١، ص٥١، ح٢٠) كتاب الإيمان.

(٦٧) وهذه هي دعوى المرجئة. أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

(٦٨) هم الغلاة الذين ادعوا أُلوهية عليّ رضي الله عنه.

الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبيّن منه ما يخالف ذلك كما قال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ

[سورة النساء: ٩٤]

(أي فتثبتوا. فدلت الآية على وجوب الكفّ حتى يتثبت منه، فإذا تبيّن منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى.

(وأيضاً أمره ﷺ بقتل الخوارج «أينما لقيتموهم فآقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[69] مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحاً، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم. وقد تعلّموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم ''لا إله إلا آلله'' ولا كثرة العبادة ولا آدّعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة)[70] .ا.هـ.

ويعلم كل ذي لبٌ أنها لو كانت كلمة -- مجرد كلمة -- لكان أمرها على قريش سهلاً فتنطقها وتتخلص من هذا العناء وتسفيه الآلهة!

ولكنها تعلم أن هذه الكلمة لها مدلولها الذي يغير أوضاع قريش الجاهلية ولها مقتضياتها التي تحطم طغيان قريش وآستعبادها للناس.

ولها أهميتها في تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض إلى عبودية الواحد القهّار وجعل التقوى هي الميزان والفخار الذي ينشده الناس، وليس العادات والتقاليد الجاهلية التي توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد.

فحريٌّ بكل مسلم جاد في إسلامه أن يقدر لهذه الكلمة قدرها حتى يكون ممن عَبَدَ آلله على بصيرةٍ وعلمٍ ويقين.

---

(٦٩) «صحيح مسلم»: (ج٢/٧٤٢، ح١٠٦٤).

(٧٠) «كشف الشبهات»: (ص٤٠).

آثار الإقرار بـ «لا إله إلا الله» في حياة الإنسان

ذكر الأستاذ المودودي رحمه آلله في كتابه القيّم «مبادىء الإسلام»[71] تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلي:

(١) إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر، بخلاف من يقول بآلهة متعددة. أو من يجحدها.

(٢) إن الإيمان بهذه الكلمة ينشىء في النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء، لأنه لا نافع إلا آلله ولا ضار إلا آلله، وهو المحيي المميت. وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة. ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطىء الرأس أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يتكفف له، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته. لأن آلله هو العظيم القادر. وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

(٣) ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها: تواضع من غير ذل، وترفع من غير كبر، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن آلله الذي وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إيّاه إذا شاء. أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة.

(٤) المؤمن بهذه الكلمة: يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح

(٧١) «مبادىء الإسلام» لأبي الأعلى المودودي: (ص٨٠ ــ ٨٧)؛ الناشر: مؤسسة الرسالة سنة ١٣٩٧هـ.

إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أماني كاذبة. فمنهم من يقول: إن آبن آلله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناء آلله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا. ومنهم من يقول: إنا سنستشفع عند آلله بكبرائنا وأتقيائنا، ومنهم من يقدم النذور والقرابين إلى آلهته زاعماً أنه قد نال بذلك رخصة في العمل بما يشاء. أما الملحد الذي لا يؤمن بآلله فيعتقد أنه حر في هذه الدنيا غير مقيد بشرع آلله وإنما إلٰهه هواه وشهوته وهو عبدهما.

(٥) قائل هذه الكلمة لا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنه يؤمن أن آلله له خزائن السموات والأرض. ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل، حتى ولو طرد وأهين وضاقت عليه سبل العيش.

(٦) الإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والاقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالي الأمور آبتغاء مرضاة آلله. إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض. فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدها من هذا التصور، كالجبال الراسية، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات؟

(٧) هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة. لأن الذي يجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان: حبه للنفس والمال والأهل، أو آعتقاده أن هناك أحداً غير آلله يميت الإنسان، فإيمان المرء بلا إلٰه إلا آلله ينزع عن قلبه كلاً من هذين السببين، فيجعله موقناً أن آلله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعندئذ يضحي في سبيل مرضاة ربّه بكل غال ورخيص عنده. وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك آلله وحده.

من أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بآلله تعالى، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر الرصاصات والقنابل، فإنه عندما يتقدم في سبيل آلله للجهاد، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأنى بمثل هذا للمشركين والكفار والملحدين؟

(٨) الإيمان بـ "لا إله إلا آلله" يرفع قدر الإنسان وينشىء فيه الترفع والقناعة والاستغناء، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم. وغيرها من الصفات القبيحة.

(٩) وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد: أن الإيمان بـ "لا إله إلا آلله" يجعل الإنسان متقيداً بشرع آلله ومحافظاً عليه، فإن المؤمن يعتقد بيقين أن آلله خبير بكل شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أيٍّ كان، فإنه لا يستطيع أن يفلت من آلله عزَّ وجلَّ.

وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان يكون متّبعاً لأحكام آلله، قائماً عند حدوده لا يجرؤ على آقتراف ما حرّم آلله، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر آلله.

ومن أجل ذلك جُعِلَ الإيمان بـ "لا إله إلا آلله" أول ركن وأهمه ليكون الإنسان مسلماً. والمسلم هو: العبد المطيع المنقاد لله تعالى ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا آلله. وهذا هو أصل الإسلام، ومصدر قوته، وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنما هي مبنية عليه، ولا تستمد قوتها إلا منه، والإسلام لا يبقى منه شيء لو زال هذا الأساس[٧٢].

---

(٧٢) «مبادىء الإسلام»: (ص٨٧).

ومن فضائلها ما ذكره ابن رجب، حيث أورد قول سفيان بن عيينة: ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله، وأن لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا، ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد، فمن قالها عصم ماله ودمه، ومن أباها فماله ودمه هدر، وهي مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الرسل[٧٣].

ولو أردت أن أذكر ما أورده العلماء، رحمهم الله تعالى حول فضلها وما في ذلك من الأحاديث النبويّة وآثار السَّلف لطال المقام.

---

(٧٣) «كلمة الإخلاص»: (ص٥٣).

نواقض «لا إله إلا الله»

(حرص الإسلام على بيان حقيقته وحقيقة ما يناقضه)

سبق الكلام على مفهوم ''لا إله إلا آلله'' وشروطها، وحقيقتها، وآثارها. وهنا أذكر نواقضها، من أجل أن تتضح معالم الصورة الكاملة لحقيقة ''لا إله إلا آلله'' ذلك أن معرفة الضد يميز الشيء المراد إيضاحه. كما قيل ''وبضدها تتميز الأشياء''. ومعلوم أن الكفر والشرك والنفاق والرِّدة هي نواقض الإسلام، بشتى صورها، وقبل إيراد ذلك، لا بد من أن نورد – قاعدة جليلة لأهل السُّنَّة والجماعة – بها تنضبط المسائل أصولاً وفروعاً. وسيتضح من خلال هذه القاعدة الرد على فرقة المرجئة، الذين ميّعوا وضيّعوا مفهوم هذه العقيدة. والرد أيضاً على الخوارج الذين غلوا وحادوا عن الصراط. ودين الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط.

وقد كثر كلام الناس حول هذا في القديم والحديث، ولكلٍّ وجهة هو موليها. بيد أني وجدت للعلاّمة آبن القيّم كلاماً قيّماً في هذا الموضوع – وهو القاعدة التي أشرت إليها آنفاً – سأورده كاملاً على الرغم من طوله: قال رحمه آلله في كتاب «الصلاة»:

(الكفر والإيمان متقابلان، إذا زال أحدهما خلفه الآخر. ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيماناً: فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء، والتوكل، والخشية من آلله، والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان.

(وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة. ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق. وبينهما شعب متفاوتة

تفاوتاً عظيماً. منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب. وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان فشعب الكفر كفر. والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر. والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان، وتركها من شعب الكفر، والحكم بما أنزل آلله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل آلله من شعب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

(وشعب الإيمان قسمان: قوليّة وفعليّة، وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية وفعلية. ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية. فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر آختياراً – وهي شعبة من شعب الكفر – فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، فهذا أصل.

(وها هنا أصل آخر: وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب: وهو الاعتقاد. وقول اللسان: وهو التكلّم بكلمة الإسلام.

(والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح. فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله. وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في آعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع آعتقاد الصدق: فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السُّنَّة. فأهل السُّنَّة: مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع آنتفاء عمل القلب وهو محبته وآنقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين والذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرًا وجهراً ويقولون: ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به.

(وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولا سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وآنقياده، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وآنقاد أطاعت الجوارح وآنقادت، ويلزم من عدم طاعته وآنقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان. فإن الإيمان ليس مجرد التصديق - كما تقدم - وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد. وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبيينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء، كما أن آعتقاد التصديق وإن سمي تصديقاً، فليس هو التصديق المستلزم للإيمان. فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته.

(وها هنا أصل آخر: وهو أن الكفر نوعان: كفر عمل، وكفر جحود وعناد. فكفر الجحود: أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند آلله جحوداً وعناداً، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه. وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه وأما كفر العمل: فينقسم إلى ما يضاد الإيمان، وإلى ما لا يضاده. فالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان.

(وأما الحكم بغير ما أنزل[74] آلله، وترك الصلاة فهو من الكفر العملي قطعاً، ولا يمكن أن ينفى عنه آسم الكفر بعد أن أطلقه آلله ورسوله عليه. فالحاكم بغير ما أنزل آلله كافر، وتارك الصلاة كافر بنص رسول آلله ﷺ، ولكن هو كفر عمل لا كفر آعتقاد. ومن الممتنع أن يسمي آلله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل آلله كافراً، ويسمي رسول آلله ﷺ تارك الصلاة

---

(٧٤) سيأتي بعد تمام هذا النص إن شاء الله مزيد من التفصيل في هذه الفقرة وبيان متى يكون ذلك مخرجاً من الملة ومتى لا يكون.

كافراً[٧٥]، ولا يطلق عليهما آسم الكفر. وقد نفى رسول آلله ﷺ الإيمان عن الزّاني والسّارق وشارب الخمر، وعمن لا يأمن جاره بوائقه. وإذا نفى عنه آسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل، وآنتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد.

وكذلك قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[٧٦] فهذا كفر عمل. وكذلك قوله: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى آمرأته في دبرها فقد برىء مما أُنزل على محمد»[٧٧] وقوله: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما»[٧٨].

(وقد سمى آلله سبحانه وتعالى من عمل ببعض كتابه، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به فقال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [سورة البقرة: ٨٤ – ٨٥]

---

(٧٥) انظر «صحيح مسلم»: (ج١/٨٨، ح٨٢) كتاب الإيمان.

(٧٦) «صحيح مسلم»: (ج١/٨١، ح٦٥) كتاب الإيمان.

(٧٧) أبو داود في الطب: (ج٤/٢٢٥، ح٣٩٠٤). وانظر «مشكاة المصابيح»: (١٢٩٤/٢، ح٤٥٩٩)، وقال الألباني: إسناده صحيح.

(٧٨) «صحيح مسلم»: (ج١/٧٩، ح٦٠) كتاب الإيمان.

(فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذي أمرهم به وآلتزموه، وهذا يدلّ على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يُخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، ثم أخبر أنهم عصوا أمره وقتل فريق منهم فريقاً وأخرجوهم من ديارهم. فهذا كفرهم بما أخذ عليهم في الكتاب. ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق، وهذا إيمان منهم بما أُخذ عليهم في الكتاب، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق، كافرين بما تركوه منه.

(فالإيمان العملي يضاده الكفر العملي، والإيمان الاعتقادي يضاده الكفر الاعتقادي. وقد أعلن النبيُّ ﷺ بما قلناه في قوله في الحديث الصحيح: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[٧٩] ففرّق بين قتاله وسبابه. وجعل أحدهما فسوقاً لا يكفر به، والآخر كفراً. ومعلوم إنما أراد الكفر العملي لا الاعتقادي[٨٠]، وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة الإسلامية والملّة بالكلية، كما لا يخرج الزّاني والسارق والشارب من الملّة وإن زال عنه آسم الإيمان.

(وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب آلله وبالإسلام والكفر ولوازمهما فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فآنقسموا فريقين: فريقاً أخرجوا من الملّة بالكبائر، وقضوا على أصحابها بالخلود في النار[٨١]، وفريقاً جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان[٨٢] فهؤلاء غلوا، وهؤلاء جفوا. وهدى آلله أهل السنّة للطريقة المثلى

---

(٧٩) «صحيح مسلم»: (ج١/٨١، ح٦٤) كتاب الإيمان.

(٨٠) لعل ابن القيم يقصد قتال المسلمين مع بعضهم البعض كما حصل بين الصحابة رضي الله عنهم، أما من يريد قتال المؤمنين ويشن الحرب على الإسلام والمسلمين فهذا لاشك في كفره المخرج من الملة. كما هو حال أعداء الإسلام الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة بل هدفهم ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ [النساء: ٨٩].

(٨١) يريد فرقة الخوارج.

(٨٢) يقصد المرجئة.

والقول الوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل. فها هنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسق، وظلم دون ظلم. قال سفيان بن عيينة: عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس في قوله تعالى:

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ

[سورة المائدة: ٤٤]

(قال: هو بهم كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال في رواية أخرى عنه: كفر لا ينقل عن الملّة. وقال طاووس: ليس بكفر ينقل عن الملّة[٨٣]. وقال وكيع بن سفيان عن ابن جريج عن عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق[٨٤]، وهذا الذي قاله عطاء بيّن في القرآن لمن فهمه، فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزله كافراً، وسمى جاحد ما أنزله على رسوله كافراً. وليس الكافران على حدٍّ سواء.

(وسمى الكافر ظالماً كما في قوله تعالى:

وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٤]

(وسمى متعدي حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالماً فقال:

وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ

[سورة الطلاق: ١]

وقال نبيّه يونس:

لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ [سورة الأنبياء: ٨٧]

---

(٨٣) تفسير ابن كثير: (ج٣/١١١).

(٨٤) المصدر السابق: (ج٣/١١١).

وقال صفيّه آدم:

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا [سورة الأعراف: ٢٣]

وقال كليمه موسى:

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي

[سورة القصص: ١٦]

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم.

(ويسمى الكافر فاسقاً: كما في قوله:

وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ

[سورة البقرة: ٢٦ – ٢٧]

وقال:

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ

[سورة البقرة: ٩٩]

(وهذا كثير في القرآن. ويسمى المؤمن فاسقاً كما في قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ

[سورة الحجرات: ٦]

(نزلت في الحكم بن أبي العاص. وليس الفاسق كالفاسق. وقال تعالى:

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ

[سورة النور: ٤] .

وقال عن إبليس:

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ

[سورة الكهف: ٥٠]

وقال:

فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ

[سورة البقرة: ١٩٧]

وليس الفسوق كالفسوق.

(والكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، وكذا الجهل جهلان: جهل كفر كما في قوله تعالى:

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ

[سورة الأعراف: ١٩٩]

وجهل غير كفر كقوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ

[سورة النساء: ١٧]

(وكذلك الشرك شركان: شرك ينقل عن الملّة وهو الشرك الأكبر، وشرك لا ينقل عن الملّة وهو الشرك الأصغر، وهو شرك العمل كالرياء.

قال تعالى في الشرك الأكبر:

إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ

[سورة المائدة: ٧٢]

وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

[سورة الحج: ٣١]

وفي شرك الرياء:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

[سورة الكهف: ١١٠]

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه أبو داود وغيره[٨٥] ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملّة، ولا يوجب له حكم الكفار. ومن هذا قوله ﷺ: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل»[٨٦].

(فأنظر كيف أنقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملّة، وإلى ما لا ينقل عنها. وكذا النفاق نفاقان: نفاق أعتقاد، ونفاق عمل، فنفاق الاعتقاد: هو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار.

(ونفاق عمل كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا آئتمن خان»[٨٧]. وفي «الصحيح»

---

(٨٥) أبو داود: (ج٣/٥٧٠، ح٣٢٥١) كتاب الأيمان والنذور. وأخرجه الترمذي: (ج٥/٢٥٣، ح١٥٣٥) في النذور والأيمان، واللفظ عنده: فقد كفر أو أشرك وقال: حديث حسن. وقال الشوكاني: صححه الحاكم. انظر «نيل الأوطار»: (ج٨/١٠٧).

(٨٦) «المسند»: (ج٤/٤٠٣). قال الألباني: صحيح، انظر «صحيح الجامع الصغير»: (٣/٢٣٣، ح٣٦٢٤).

(٨٧) «صحيح البخاري»: (ج١/٨٩، ح٣٣، ٣٤) كتاب الإيمان. و«صحيح مسلم»: (ج١/٧٨، ح٥٨، ٥٩) كتاب الإيمان.

أيضاً «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا آئتمن خان» فهذا نفاق عمل، قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا آستحكم وكمل فقد يسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال، فإذا كملت في العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شيء منها فهذا لا يكون إلا منافقاً خالصاً.

(وكلام الإمام أحمد يدل على هذا، فإن إسماعيل بن سعيد الشالنجي(٨٨) قال: سألت أحمد بن حنبل عن المُصِرِّ على الكبائر يطلبها بجهده، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم، هل يكون مُصرًّا من كانت هذه حاله؟ قال: هو مُصر مثل قوله: «لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن»(٨٩)، يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام، ونحو قوله: «لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن»(٩٠). ونحو قول آبن عباس في قوله تعالى:

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ

[سورة المائدة: ٤٤]

(قال إسماعيل: فقلت له ما هذا الكفر؟ قال: لا ينقل عن الملة، مثل الإيمان بعضه دون بعض، فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه.

---

(٨٨) هو إسماعيل بن سعيد الشالنجي أبو إسحاق ذكره أبو بكر الخلال فقال: عنده مسائل كثيرة، ما أحسب أحداً من أصحاب أبي عبد الله ــ أحمد بن حنبل ــ روى عنه أحسن مما روى هذا، ولا أشبع ولا أكثر مسائل منه. وكان عالماً بالرأي، كبير القدر عندهم معروفاً، له كتاب ترجمه بـ «البيان على ترتيب الفقهاء». انظر «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى: (ج١/١٠٤).

(٨٩)(٩٠) «صحيح مسلم»: (ج١/٨٦، ح٥٧) كتاب الإيمان.

(وها هنا أصل آخر: وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان. وهذا من أعظم أصول أهل السنّة، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة(٩١)، والقدرية(٩٢).

(ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وقد دل عليه القرآن والسنّة والفطرة وإجماع الصحابة. قال تعالى:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

[سورة يوسف: ١٠٦]

فأثبت لهم إيماناً به سبحانه مع الشرك، وقال تعالى:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[سورة الحجرات: ١٤]

فأثبت لهم إسلاماً وطاعةً لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

[سورة الحجرات: ١٥]

---

(٩١) المعتزلة: هم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا الرؤية. ويكذبون بعذاب القبر والشفاعة، والحوض، ولا يرون الصلاة خلف أحد من أهل القبلة، ولا الجمعة إلا وراء من كان على أهوائهم. انظر في ذلك «السنّة» للإمام أحمد: (ص٨١)، و«تلبيس إبليس» لابن الجوزي: (ص٣٠).

(٩٢) القدريّة: هم الذين يزعمون أن إليهم الاستطاعة والمشيئة والقدرة، وأنهم يملكون لأنفسهم الخير والشر، والضر والنفع، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال، وأن العباد يعملون بدءاً من غير أن يكون سبق لهم ذلك من الله عزّ وجلّ أو في علمه وقولهم يضارع قول المجوسيّة. انظر «السنّة» للإمام أحمد: (ص٨١).

وهؤلاء ليسوا منافقين في أصح القولين، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله، وليسوا مؤمنين. وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار.

(قال الإمام أحمد: من أتى هذه الأربعة أو مثلهنّ أو فوقهنّ - يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاب - فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً، ومن أتى دون ذلك - يريد دون الكبائر - سميته مؤمناً ناقص الإيمان، فقد دل على هذا قوله ﷺ «فمن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق». فدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام.

كذلك الرياء شرك، فإذا رآى الرجل في شيء من عمله آجتمع فيه الشرك والإسلام.

وإذا حكم بغير ما أنزل الله، أو فعل ما سماه رسول الله ﷺ كفراً، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام.

وقد بيّنّا أن المعاصي كلها شعب من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمناً، وقد لا يسمى. كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافراً، وقد لا يطلق عليه هذا الاسْم. فها هنا أمران: أمر آسمي لفظي، وأمر معنوي حكمي.

فالمعنوي: هل هذه الخصلة كفر أم لا؟

واللفظي: هل يسمى من قامت به كافراً أم لا؟.

فالأمر الأول: شرعي محض، والثاني لغوي وشرعي.

(وها هنا أصل آخر: وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمناً وإن كان ما قام به إيماناً، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر أن يسمى كافراً، وإن كان ما قام به كفراً. كما أنه لا يلزم من قيام

جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالماً: ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهاً ولا طبيباً، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيماناً، وشعبة النفاق نفاقاً، وشعبة الكفر كفراً.

(وقد يطلق عليه الفعل كقوله: «فمن تركها فقد كفر» و «من حلف بغير آلله فقد كفر» وقوله: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر ومن حلف بغير آلله فقد كفر» رواه الحاكم في «صحيحه» بهذا اللفظ. فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق آسم كافر على الإطلاق، وكذا يقال لمن آرتكب محرماً أنه فعل فسوقاً وأنه فاسق بذلك المحرم، ولا يلزمه آسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه) [٩٣].ا.هـ.

ولي على هذا النص تعليق:

(٩٣) «كتاب الصلاة» للعلامة محمد بن ابي بكر بن قيم الجوزيّة: (ص٢٥ — ٣١)، الطبعة الثانية سنة ١٣٩١هـ، المكتبة السلفيّة بمصر.

تعليق لا بد منه

في النص المتقدم بعض العبارات التي قد توهم بعض الناس في قضية ''الحاكمية'' حيث ذكر آبن القيّم أن الحكم بغير ما أنزل آلله كفر دون كفر. وهنا لا بد من إيضاح هذه القضية حتى يزول ما قد يحصل من إشكال.

إن المجتمع الإسلامي منذ قيامه على يد رسول آلله ﷺ قد قام على الحكم بشريعة آلله، ومضى على ذلك خلفاؤه الراشدون، ثم الخلفاء الأمويون مضوا على ذلك وإن كان بَدَرَ منهم بعض الانحرافات، إلا أن الحكم الذي يتحاكم إليه الناس هو شرع آلله، يظلهم برايته ويرعاهم بحكمته وعدالته. ثم جاءت الدولة العباسية وكان الشرع أيضاً هو نظام الحكم مع وجود ثغرات قوية بعض الشيء. ثم جاء التتار، وأتى ''هولاكو'' بـ ''الياسق'' - وسيرد كلام العلماء بخصوصه في مكانه المناسب إن شاء آلله -.

ولما كان الأمر كذلك فإن كلام السّلف ومنهم آبن القيّم كلام لا غبار عليه، فإذا حكم الحاكم برشوة أو لقرابة، أو شفاعة أو ما أشبه ذلك فلا شك أن ذلك كفر دون كفر.

وأما ما جدَّ في حياة المسلمين - ولأول مرة في تاريخهم - وهو تنحية شريعة آلله عن الحكم ورميها بالرجعية والتخلف، وأنها لم تعد تواكب التقدم الحضاري، والعصر المتطور فهذه رِدَّة جديدة في حياة المسلمين. إذ الأمر لم يقتصر على تلك الدعاوى التافهة، بل تعداه إلى إقصائها فعلاً عن واقع الحياة وآستبدال الذي هو أدنى بها، فحل محلها القانون الفرنسي أو الانجليزي أو الأمريكي أو الاشتراكية الإلحادية وما أشبه ذلك من تلك النظم الجاهلية الكافرة.

ولي على هذا الكلام أدلة كثيرة منها:

(١) ما أورده ابن القيّم نفسه رحمه الله من قول الإمام أحمد الذي تقدم ص٦٥ وهو قوله: (حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه) .
نعم إنه أمر لا يختلف فيه أبداً وهو أن تنحية الشريعة ورميها بالقصور والنقصان وأن القانون أكمل منها، وألين منها في مسايرة تطورات العصر كفر صريح.

(٢) ما أورده ابن القيم أيضاً ص٦٧ من أن الكفر الذي هو كفر دون كفر ينطبق على الحاكم ''الملتزم للإسلام وشرائعه'' فهذا إذا خالف النص أو حاد عنه – كما تقدم شرحه – هو الذي ينطبق عليه هذا الحكم. وليس الأمر سارياً على من يحل القانون محل شرع الله.

(٣) قضية التحليل والتحريم، والتشريع للناس، اتفقت أقوال العلماء قديماً وحديثاً على أن ذلك من خصائص ربِّ العالمين جلَّ جلاله فمن ادعاها لنفسه فقد ألّه نفسه ونصبّها ندًّا يُعبد من دون الله وسيرد إيضاح هذا قريباً.

(٤) إن إقصاء الشريعة الربّانيّة وإحلال أهواء البشر محلها هذا من الأشياء التي كفَّر العلماء قديماً وحديثاً فاعلها لأنها من المعلوم من الدِّين بالضرورة. وهل يجادل أحد في ذلك والله يقول:

أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ

[سورة الأعراف: ٥٤]

فكما أنه سبحانه – وباعتراف الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم – هو خالق السماء والأرض، فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان، والحكم والسيادة(٩٤).

---

(٩٤) انظر تفسير هذه الآية للشيخ سيد قطب رحمه الله في كتابه «في ظلال القرآن»: (ج٣/١٢٩٧)، طبع دار الشروق، و«تفسير ابن كثير».

(٥) يوضح كلمة الإمام أحمد رحمه آلله وهي قوله: ''حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه'' علم من أعلام المسلمين هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه آلله حيث يقول:

(إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين) (٩٥).

(٦) ما ذكره أيضاً آبن القيم رحمه آلله في كتاب «مدارج السالكين» حيث قال بعد أن أورد الأقوال في قضية الحكم قال:

(والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل آلله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن آعتقد وجوب الحكم بما أنزل آلله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً مع آعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر. وإن آعتقد أنه غير واجب وأنه مخيّر فيه مع تيقنه أنه حكم آلله، فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه: فهذا مخطىء له حكم المخطئين) (٩٦).

(٧) ما قاله شيخ الإسلام آبن تيمية رحمه الله في كتاب «منهاج السُّنَّة» حيث قال:

(ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أُنزل آلله على رسوله فهو كافر. فمن آستحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير آتباع لما أنزل آلله فهو كافر. فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها آلله، كسواليف البادية (٩٧) وكانوا الأمراء المطاعين، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي

---

(٩٥) «تحكيم القوانين»: (ص١)، طبع سنة ١٣٨٠هـ، مطابع الثقافة بمكة.
(٩٦) «مدارج السالكين»: (ج١/٣٣٧).
(٩٧) أي عادات وتقاليد أهل البادية.

الحكم به دون الكتاب والسُّنَّة، وهذا هو الكفر، فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل آلله، فلم يلتزموا ذلك، بل آستحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل آلله فهم كفار) (٩٨).

(٨) يقول: العلاّمة آبن القيم في تفسير قوله تعالى:

تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

[سورة الشعراء: ٩٧ – ٩٨]

(هذه التسوية إنما كانت في الحب والتأليه وآتباع ما شرعوا، لا في الخلق والقدرة والربوبية، وهي العدل الذي أخبر به عن الكفار كقوله:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ

[سورة الأنعام: ١]

وأصح القولين: أن المعنى: ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه، كما يعبدون آلله ويعبدونه، .ويعظمون أمره وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث آعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين آلله وبينها في المحبة والعبودية والتعظيم مع إقرارهم بالفرق بين آلله وبينها، فتصحيح هذه: هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا آلله) (٩٩).

وإن مما يزيد إيضاح الحقيقة في أمر إحلال القانون والهوى محل الشرع، ما ذكره العلماء من أن كفر الاعتقاد ينقسم إلى خمسة أنواع

---

(٩٨) «مجموعة التوحيد» الرسالة الثانية عشرة: (ص٢٧٨)، طبعة دار الفكر.

(٩٩) «التفسير القيّم»: (ص٣٩٦).

هي[100]:

(١) **كفر تكذيب**: وهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار، فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة. قال تعالى عن فرعون وقومه:

وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا

[سورة النمل: ١٤]

وقال لرسوله ﷺ:

فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ

[سورة الأنعام: ٣٣]

(٢) **كفر إباء واستكبار**: مثل كفر إبليس: ومن هذا كفر من عرف الرسول ولم ينقد له إباءً واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه:

فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ

[سورة المؤمنون: ٤٧]

ومنه كفر أبي طالب فإنه صدقه ولم يشك في صدقه ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم.

(٣) **كفر إعراض**: مثل من يعرض عن الرسول ﷺ لا يسمعه، ولا يصدقه، ولا يكذبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به البتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ (والله أقول لك كلمة: إن كنت صادقاً فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كنت كاذباً فأنت

---

(١٠٠) أوردها العلامة ابن القيم في «مدارج السالكين»: (ج١/٣٣٧ — ٣٣٨).

أحقر من أن أكلمك)[101].

(٤) **كفر الشك**: حيث لا يجزم بصدقه، ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، وأما مع ٱلتفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق.

(٥) **كفر نفاق**: وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر.

وبعد أن وضحنا الكفر بنوعيه - نعوذ بٱلله منه - ننتقل إلى تبيان الشرك - نعوذ بٱلله منه - وهو كما ورد سابقاً في كلام ٱبن القيم ينقسم إلى أكبر مخرج من الملة، وإلى أصغر وهو الرياء.

فأما الشرك الأكبر: فدليله قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ

[سورة النساء: ١١٦]

وهو أربعة أنواع كما ذكر ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي:

(١) **شرك الدعاء**: قال تعالى:

فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ

[سورة العنكبوت: ٦٥]

---

(١٠١) علق الشيخ محمد حامد الفقي على هذا بقوله: (وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء إسلامية، المقلدين للإفرنج من اليهود والنصارى، المنحلين عن كل خلق وفضيلة، زاعمين بجاهليتهم وسفههم أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية) «مدارج السالكين»: (ج١/٢٢٨) الحاشية.

(٢) **شرك النية والإرادة والقصد:** قال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

[سورة هود: ١٥ - ١٦]

(٣) **شرك الطاعة:** قال تعالى:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

[سورة التوبة: ٣١]

وفي الحديث: عن عدي بن حاتم حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم؟ فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»(١٠٢). قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسيرها: إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

(٤) **شرك المحبة:** قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾

[سورة البقرة: ١٦٥] (١٠٣).

---

(١٠٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير: (ج٨/٢٤٨، ح٣٠٩٤) تحقيق الدعاس، قال الترمذي: هذا حديث غريب. وأورده ابن كثير في تفسير هذه الآية: (ج٤/٧٧)، وعزاه للإمام أحمد وابن جرير. وقال الشيخ الألباني: حديث حسن. انظر «غاية المرام في تخريج الحلال والحرام»: (ص٢٠).

(١٠٣) «مجموعة التوحيد»: (ص٣).

وأما النفاق: فمنه ما هو مخرج من الملة، وهذا هو النفاق الأكبر وفيه يقول شيخ الإسلام بن تيمية:

(والنفاق منه ما هو أكبر، يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد ٱلله بن أُبَيّ وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم ٱعتقاد وجوب ٱتباعه، أو المسرة بٱنخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدوًا لله ورسوله) [١٠٤]. ومنه ما هو نفاق أصغر وهو الرياء وقد سبق عليه الكلام.

وأما الرِّدة: فهي الكفر بعد الإيمان فمن قال الكفر أو فَعَلَهُ أو رضي به مختاراً كَفَرَ، وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه، وبهذا قال علماء السُّنَّة والحديث، وذكروا ذلك في كتبهم فقالوا: إن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه إما نطقاً، وإما فعلاً وإما ٱعتقاداً. وقرروا أن من قال الكفر كَفَّرَ وإن لم يعتقده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً.

وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقده ولا نطق به، وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أي فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به. وهذا معلوم قطعاً من كتبهم ومن له ممارسة في العلم فلا بد أن يكون قد بلغ طائفة من ذلك[١٠٥].

ومن باب التفصيل والتوضيح وذكر التفصيل بعد الإجمال: إليك نواقض الإسلام العشرة كما قررها أهل العلم.

---

(١٠٤) «الفتاوى»: (ج٢٨/٤٣٤).

(١٠٥) «الدفاع» للشيخ حمد بن عتيق: (ص٢٨)، وانظر «التشريع الجنائي»: (ج٢/٧٠٨)، وكتاب «الردة بين الأمس واليوم»: (ص٣٣).

نواقض الإسلام

ذكر أهل العلم أن هناك عشرة نواقض هامة هي:

(١) الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ

[سورة النساء: ١١٦]

(٢) من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة. كفر إجماعاً.

(٣) من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم. كفر إجماعاً.

(٤) من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر.

(٥) من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر إجماعاً. والدليل قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ

[سورة محمد: ٩]

(٦) من استهزأ بشيء من دين الله، أو ثوابه، أو عقابه كَفَرَ، والدليل قوله تعالى:

قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ

[سورة التوبة: ٦٥ – ٦٦]

(٧) السحر، ومنه الصرف، والعطف فمن فعله أو رضي به كَفَرَ، الدليل قوله تعالى:

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

[سورة البقرة: ١٠٢]

(٨) مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى:

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

(٩) من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبي ﷺ وإنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى عليهما السلام، فهو كافر.

(١٠) الإعراض عن دين الله لا يتعلمه، ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ

[سورة السجدة: ٢٢]

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المُكْرَه، وكلها من أعظم ما يكون خطراً، ومن أكثر ما يكون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه[١٠٦].

ويجدر بنا ونحن نستعرض هذه النواقض أن نقف عند اثنين منها، نظراً لأهميتهما وخطورتهما على حياة المسلمين، وليتضح سبب الإسهاب في قضية الحاكمية وعلاقة الولاء والبراء بذلك.

الأول: (من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن

---

(١٠٦) «الدرر السنية»: (ج٨/٨٩ ــ ٩٠)، وانظر «مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب»: (ج٥/٢١٢ ــ ٢١٤).

حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر) .

إن تنحية شريعة آلله عن مجرى الحياة، وآستيراد قوانين البشر القاصرة: رِدَّةٌ جديدة برزت في القرون الأخيرة من حياة المسلمين، ذلك أن المجتمع الإسلامي عاش قروناً طوالاً يستظل بشرع آلله وتهيمن الشريعة على حياة أفراده حكاماً ومحكومين - مع وجود بعض المعاصي سواء كانت كبائر أم صغائر - ولكن نظام حياة الناس، والتشريع المنفذ في أمورهم هو شرع آلله وحكمه، وكذلك جهاد الكفار ونشر كلمة الإسلام في الأرض كانت كل هذه الأمور في آزدياد وتوسع. أما رمي الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة تطورات العصر فهذا شيء لم يحدث إلا بعد أن مكن المسلمون الاستعمار العالمي من ذلك وبعد أن نسوا آلله فأنساهم أنفسهم.

ولقد جاء القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة بنصوص كثيرة صريحة واضحة حول قضية الحكم وأنها من عقيدة المسلم، ومن أهم أمور الدِّين قال تعالى:

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ

[سورة المائدة: ٤٤]

وقال تعالى:

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ

[سورة المائدة: ٤٥]

وقال تعالى:

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ

[سورة المائدة: ٤٧]

وقال تعالى:

أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

[سورة المائدة: ٥٠]

وقال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟
فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

[سورة النساء: ٦٥]

وقال تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾

[سورة الشورى: ٢١]

وقال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

[سورة النور: ٤٧ - ٥١]

ويقول سبحانه:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ١١٥]

ثم يبيّن سبحانه وتعالى ريف زعم من يدعي الإيمان ويريد التحاكم إلى الطاغوت فيقول:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا

[سورة النساء: ٦٠ – ٦١]

ولقد أحسن أحد العلماء في وصف من طمست بصيرته فٱستبدل بالشريعة القانون حيث قال: إن مثل هذا مثل (الجعل يتأذى من رائحة المسك والورد الفواح، ويحيا بالعذرة والغائط في المستراح)[١٠٧].

ولقد قال تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ

[سورة المجادلة: ٢٠]

ومن أعظم المحادة لله ورسوله التولي عن حكم ٱلله وشرعه وسنّة نبيه ﷺ وما هذه الذلة التي يعيشها المسلمون اليوم في الأرض إلا نتيجة طبيعية لترك شرع ٱلله فها هم أولاء اليوم كثير ولكنهم غثاء كغثاء السيل، طمعت فيهم أحقر الأمم وسيطرت عليهم أراذل الناس، ولقد صدقت فيهم نبوة محمد ﷺ حين قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن ٱلله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ ٱلله في قلوبكم

(١٠٧) «الرسائل المنبرية»: (ج١/١٣٩).

الوهن» فقال قائل: يا رسول آلله: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[١٠٨].

وإن جزءاً كبيراً من هذا الانحراف الذي سيطر اليوم على حياة المسلمين يتحمله الذين يتزيون بزي العلماء ويحسنون للناس أن يستبدلوا بشرع آلله أهواء البشر، إن هؤلاء ليحملون أوزارهم كاملة ومن أوزار الذين يضلونهم إلى يوم القيامة والإسلام بريء من هؤلاء. ويرحم آلله علماء السّلف الذين كانوا حماة على ثغور الإسلام حتى لا يؤتى الإسلام من قبل أحدهم.

فهذا الإمام الجليل الحافظ آبن كثير رحمه آلله يذكر في كتابه «تفسير القرآن العظيم» ما حلّ بالأمة الإسلامية أيام التتار، وذلك عند قوله تعالى:

أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ

[سورة المائدة: ٥٠]

قال: (ينكر آلله تعالى على من خرج عن حكم آلله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة آلله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد آقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بَنِيهِ شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب آلله وسنّة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك

(١٠٨) «سنن أبي داود»: (ج٤/٤٨٤، ح٤٢٩٧) كتاب الملاحم. وقال في «مشكاة المصابيح»: رواه البيهقي في «دلائل النبوة». ثم قال الشيخ الألباني: وهو حديث صحيح. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج٣/١٤٧٥).

منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم آلله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير)[١٠٩].

ويوضح الشيخ محمد بن إبراهيم[١١٠] رحمه آلله الحالات التي إن فعلها الحاكم دخلت في الكفر المخرج من الملة وهي:

(١) إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل آلله أحقيَّة حكم آلله ورسوله. وهو معنى ما روي عن آبن عباس، وآختاره آبن جرير، وجحود ما أنزل آلله من الحكم الشرعي لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم، أن من جحد أصلاً من أصول الدّين أو فرعاً مجمعاً عليه، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول ﷺ قطعيًا فإنه كافر كفراً ينقل عن الملة[١١١].

(٢) إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل آلله أن حكم آلله ورسوله حق، ولكنه آعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس وما آستجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان، وتغير الأحوال فهذا أيضاً لا ريب في كفره لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير. فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب آلله تعالى وسُنّة رسوله ﷺ نصًا أو ظاهراً أو آستنباطاً أو غير ذلك، علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

---

(١٠٩) «تفسير ابن كثير»: (ج٣/١٢٣).

(١١٠) هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية، ولد سنة ١٣١١هـ، ونشأ في بيت علم وفضل. وحفظ القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره، وكف بصره وهو في الرابعة عشرة من عمره فصبر واحتسب. وتتلمذ على الشيخ سعد بن عتيق. وتوفي في رمضان سنة ١٣٨٩هـ عن عمر يناهز الثمانين عاماً. انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد» للبسام: (٨٨/١).

(١١١) «تحكيم القوانين»: (ص٥).

(٣) أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم ٱلله ورسوله، لكن ٱعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين السابقين كفراً ينقل عن الملة لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

(٤) من ٱعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم ٱلله ورسوله فهو كالذي قبله.

(٥) من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله: إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني أو غيرها من مذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر؟! وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول ٱلله بعد هذه المناقضة؟![١١٢].

(٦) ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها ''سلومهم'' يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضاً عن حكم ٱلله.

(أما الكفر الذي لا ينقل عن الملة: والذي ورد عن ٱبن عباس رضي ٱلله عنهما بأنه كُفر دون كُفر، وقوله أيضاً: «ليس بالكفر الذي تذهبون إليه» فذلك مثل، أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل ٱلله مع ٱعتقاده أن حكم ٱلله ورسوله هو الحق، وٱعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى. وهذا وإن لم يخرجه كُفْرُهُ عن الملّة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها، فإنَّ معصية سماها ٱلله في كتابه كفراً أعظم من معصية لم يسمها ٱلله كفراً) [١١٣].

وإن الذي جعلنا نسهب في ذكر شؤون الحاكمية وتفصيل أحوالها هو خطورتها وعظمها. فإن موالاة الحاكم بغير ما أنزل ٱلله وإقرار تشريعه للناس

---

(١١٢) المصدر السابق: (ص٧).

(١١٣) المصدر السابق: (ص٨).

من عند نفسه وتحليله وتحريمه ما لم يأذن به آلله، مناقضة للشهادة بأن آلله هو الإله الذي تألهه القلوب بالحب والتعظيم والطاعة والانقياد، ومناقضة للشهادة بأن محمداً رسول آلله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم الناس هذا لما بقي لطاغية في الأرض حق الوجود والتشريع. وإقرار الكفر وتنحية شرع آلله المحكم.

الثاني: من الأمور التي يجب أن نتدبرها بروية – من نواقض الإسلام – مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى:

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ

[سورة المائدة: ٥١]

وهذا من أعظم النواقض التي وقع فيها، سواد الناس اليوم في الأرض، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمون بأسماء إسلامية، فلقد صرنا في عصر يستحي فيه أن يقال للكافر: يا كافر!! بل زاد الأمر عتوًّا بنظرة الإعجاب والإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء آلله، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان، ينظرون إلى أعداء آلله نظرة آنبهار ملؤها التمني أن يكونوا مثلهم حتى لو دخلوا جحرَ ضبٍّ لدخلوه.

مظاهرة أخذت صوراً شتى فمن الميل القلبي إلى آنتحال مذاهبهم الإلحادية إلى مجاراتهم في تشريعاتهم، إلى كشف عورات المسلمين لهم، إلى كل صغير وكبير في حياتهم. وسيأتي تفصيل الحديث في هذا الأمر – إن شاء آلله – في فصل صور الموالاة.

من هنا فإن إدراك حقيقة هذه العقيدة ونواقضها، أمر كفيل بأن يحمل المسلم على بصيرة من أمره في عقيدة الولاء والبراء. حسب المقياس الشرعي الصحيح، وليس حسب مقياس أهواء البشر. إنه لا ولاء إلا لله ولرسوله ودينه والمؤمنين. والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب يحاد آلله ورسوله.

الباب الأول

مفهوم الولاء والبراء

الفصل الأول
تعريفه وأهميته في الكتاب والسنة

الولاء في اللغة: جاء في «لسان العرب»: الموالاة - كما قال آبن الأعرابي - : أن يتشاجر آثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه. ووالى فلان فلاناً: إذا أحبه.

والمولى: آسم يقع على جماعة كثيرة، فهو: الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وآبن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق، والمنعم عليه. ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمحبة[1].

والوَلاية: - بالفتح - في النسب والنصرة والعتق.

والمُوالاة: - بالضم - من والى القوم. قال الشافعي في قوله ﷺ «من كنت مولاه فعلي مولاه»[2] يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ

[سورة محمد: ١١]

---

(١) «لسان العرب» لابن منظور: (ج٣/٩٨٥ ـ ٩٨٦)، وانظر «القاموس المحيط»: (٤/٢٩٤) الطبعة الثالثة.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: (ج٤/٢٨١) عن البراء، وأيضاً عن زيد بن أرقم ٤/٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢، والترمذي في «المناقب»: (ج٩/٣٣٠، ح٣٧١٤)، وقال حديث حسن صحيح غريب. وقال الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج٦/٣٥٣، ح٦٣٩٩).

والموالاة ضد المعاداة، والولي ضد العدو، قال تعالى:

يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا

[سورة مريم: ٤٥]

قال ثعلب: كل من عبد شيئاً من دون الله فقد اتخذه وليًّا. وقوله تعالى:

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

[سورة البقرة: ٢٥٧]

وليهم في نصرهم على عدوهم، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم.

وقيل: وليهم أي: يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم.

والوَلْيُ: القرب والدنو[٣]. والموالاة: المتابعة.

والتولي: يكون بمعنى الإعراض، ويكون بمعنى الاتباع. قال تعالى:

وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

[سورة محمد: ٣٨]

أي: إن تعرضوا عن الإسلام.

وقوله تعالى:

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

معناه – من يتبعهم وينصرهم[٤].

---

(٣) «لسان العرب»: (ج٣/٩٨٦).

(٤) «لسان العرب»: (ج٣/٩٨٨).

وقال صاحب «المصباح المنير» الولي: فعيل بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به، ومنه قوله تعالى:

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

[سورة البقرة: ٢٥٨]

ويكون الولي: بمعنى مفعول، في حق المطيع، فيقال: المؤمن ولي ٱلله. ووالاه موالاة وولاء: من باب ''قاتل'' أي تابعه[٥].

تعريف البراء في اللغة: قال ٱبن الأعرابي: برىء إذا تخلص، وبرىء، إذا تنزه وتباعد، وبرىء: إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى:

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ

[سورة التوبة: ١]

أي إعذار وإنذار.

وفي حديث أبي هريرة رضي ٱلله عنه لما دعاه عمر إلى العمل فأبى قال عمر: إن يوسف قد سأل العمل، فقال أبو هريرة: إن يوسف مني برىء وأنا منه براء[٦]. أي برىء عن مساواته في الحكم وإن أقاس به، ولم يرد براءة الولاية والمحبة لأنه مأمور بالإيمان به، ٱنتهى من «النهاية».

والبراء والبرىء سواء.

وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر[٧].

تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي: الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام

---

(٥) «المصباح المنير» للفيومي: (ج٢/٨٤١).

(٦) هذا الأثر ذكره ابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (ج١/١١٢)، تحقيق الزاوي والطناحي.

(٧) «لسان العرب»: (ج١/١٨٣)، و«القاموس المحيط»: (ج١/٨).

والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً. قال تعالى:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ﴾

[سورة البقرة: ٢٥٧] (٨).

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا(٩).

تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار.

شرح تعريف الولاء والبراء: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الولاية: ضد العداوة. وأصل الولاية: المحبة والتقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد.. والولي: القريب يقال: هذا يلي هذا: أي يقرب منه، ومنه قوله ﷺ «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»(١٠) أي لأقرب رجل إلى الميت.

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معادياً له. كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾

[سورة الممتحنة: ١]

---

(٨) «شرح الطحاوية»: (ص٤٠٣)، و«تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد»: (ص٤٢٢).

(٩) كتاب «الإيمان» لنعيم ياسين: (ص١٤٥).

(١٠) هذا الحديث أخرجه البخاري: (ج١١/١٢، ح٦٧٣٢) كتاب الفرائض، ومسلم: (ج١٢٣٣/٣، ح١٦١٥) كتاب الفرائض.

فمن عادى أولياء آلله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه ولهذا جاء في الحديث «ومن عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة»[11].

ومسمى الموالاة ''لأعداء آلله'': يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الرّدة وذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات[12]. ولما عقد آلله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم من يهود ونصاري وملحدين ومشركين وغيرهم؛ كان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين: أن كل مؤمن موحِّد تارك لجميع المكفرات الشرعية تجب محبته وموالاته ونصرته، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى آلله ببغضه ومعاداته، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان.

وحيث أن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض، فإن أصل الإيمان أن تحب في آلله أنبياءه وأتباعهم، وتبغض في آلله أعداءه وأعداء رسله[13].

وقد ورد عن آبن عباس رضي آلله عنهما قوله «من أحب في آلله، وأبغض في آلله ووالى في آلله، وعادى في آلله، فإنما تنال ولاية آلله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»[14].

وإذا كان حبر هذه الأمّة يذكر أن مؤاخاة الناس في زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا وأن ذلك لا يجدي على أهله شيئاً، وهذا في القرن الذي هو

---

(١١) «الفرقان» لابن تيمية: (ص٧)، أما الحديث فقد رواه البخاري: (ج١١/٣٤١، ح٦٥٠٢) كتاب الرقائق، باب التواضع.

(١٢) انظر «الرسائل المفيدة» للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: (ص٤٣).

(١٣) انظر «الفتاوى السعديّة» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي: (ج١/٩٨).

(١٤) سبق تخريجه (ص٤٤).

خير القرون: فجدير بالمؤمن أن يعيي ويعرف من يحب ومن يبغض، ومن يوالي ومن يعادي ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسُّنَّة ليرى أواقف هو في صف الشيطان وحزبه أم في صف عباد الرحمن وحزب ٱلله الذين هم المفلحون، وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة!

وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا - كما قال الصحابي الجليل عبد ٱلله بن عباس - فإن تلك المحبة والمؤاخاة لا تلبث أن تزول بزوال العرض الزائل وحينئذ لا يكون للأمة شوكة ومنعة أمام أعدائها.

وفي عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس في الأغلب على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً.

ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى ٱلله والاجتماع على الحب فيه والبغض فيه والولاء له والبراء ممن أمرنا ٱلله بالبراء منه، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر ٱلله.

أهمية هذا الموضوع في الكتاب والسنة
ونصيبه من الدراسة والتأليف

إنه من الجدير بالذكر أن هذا الموضوع – الولاء والبراء – رغم أهميته ووضوحه في الكتاب والسنّة إلا أن نصيبه من الدراسة والتأليف في الكتب العقدية القديمة قليل جدًّا. وذلك راجع في نظري إلى ثلاثة أمور:

(١) إن هذا المفهوم العقدي كان من الوضوح والنصاعة عند المسلمين الأولين بمكان، حيث إنهم – من خلال سيرتهم وتاريخهم الوضيء – كانوا على درجة عالية جدًّا من الصفاء العقدي، والتميز الواضح، وقيامهم أيضاً بالجهاد في سبيل الله. كل ذلك جعل هذا الأمر واضحاً وجليًّا في حسهم وأيضاً رجوعهم للكتاب والسنّة في كل شيء.

(٢) إن طبيعة المجتمع الإسلامي الأول خاصة بعد الخلافة الراشدة لم تبرز فيه مشاكل عقدية حول هذا الموضوع وإنما نشأت حول صفات الله جلّ جلاله، وقامت الفرق المختلفة بالخوض فيها. فكان لا بد أن يتصدى أهل السنّة والجماعة لمعالجة ذلك الانحراف بأن يبينوا للناس أن لله صفات تليق بجلاله وعظمته. نثبتها له كما جاءت في الكتاب والسنّة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل.
من هنا زخرت مؤلفاتهم رحمهم الله بالحديث في هذا الشأن، ولا تجد لهم ذكراً لقضية الولاء والبراء إلا في كلمات موجزة صغيرة كقولهم (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحدٍ منهم، ولا نتبرأ من أحدٍ منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم)[١٥].

---

(١٥) «الطحاوية مع شرحها»: (ص٢٥٨)، الطبعة الرابعة.

(٣) وبعد دخول علم الكلام في مؤلفات المسلمين العقدية، وتعكير صفوها بما ليس منها: لم يعد لهذا الموضوع ذكر ألبتة: وليس هو المنفرد بهذا الإقصاء، بل إنه تابع لإقصاء موضوع ''لا إله إلا الله'' وما تقتضيه من توحيد الألوهية وما يضاد ذلك من نواقض الإسلام، التي لو شغل المسلمون أنفسهم ببيانها وعرضها للناس عرضاً صحيحاً سليماً بدلاً من تحويلها إلى قضايا ذهنية تجريدية لا علاقة لها بالسلوك الواقعي ولا بمعاني الإسلام الحقيقية لكان ذلك أجدى وأنفع للناس، وأقوم للقيام بما أراده الله منهم. ولو أن الأمة الإسلامية تقيدت بقول رسولها ﷺ «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[١٦]. وعضّت على ذلك بالنواجذ ما طمع فيها شرق ولا غرب، ولا تخبطت في متاهات التبعية العمياء للإلحاد والفكر الجاهلي سواء كان شرقيًّا أم غربيًّا على حدٍّ سواء.

وحين اقتصر المسلمون الأوائل على الوحيين العزيزين خرج منهم جيل فريد ليس له مثال لا سابق ولا لاحق، جيل اعتز بانتمائه لدينه الخالص، ففتح الدنيا ومزق ظلام الكفر والشرك وصدع باسم الله في الأرض من مشارف فرنسا غرباً إلى حدود الصين شرقاً.

ولعل من المناسب هنا أن نتحدث - ولو قليلاً - عن طريقة القرآن والسنّة في عرض العقيدة بصفة عامة وجناية علم الكلام على المسلمين لنقف من خلال هذه النبذة على مدى الهوة بين صفاء النبع العقدي الربَّاني وبين جهالات علم الكلام.

---

(١٦) «مسند أحمد»: (ج٤/١٢٦)، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر: (ج٢/٢٢٢)، و«سنن ابن ماجة»: المقدمة (ج١/١٦، ح٤٣)، وفي سنده عبد الرحمن بن عمرو السلمي لم يوثقه غير ابن حبان. وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب»: (ج١/٤٦) عن أبي عاصم في كتاب «السنّة» وقال: إسناده حسن. انظر «جامع الأصول»: (ج١/٢٩٣) حاشية.

لقد أدرك سلف هذه الأمة رحمهم ٱلله أن كتاب ٱلله العزيز: هو: كتاب هداية وليس كتاب فلسفة ونظريات فارغة لا تمس الواقع. وأيقن ذلك الجيل أن ٱلله هو خالق النفس البشرية وأنه هو العليم وحده بما يصلحها، فلما أنزل كتابه على رسوله ﷺ كان هو النور الهادي للنفوس، ومصدر كل خير لها، وهو أيضاً النذير لها من كل ما يوردها مَوارد الهلاك والخسران. وميزة الخطاب القرآني: أنه يخاطب ''الإنسان'' كوحدة متصلة فيها الروح والجسد وفيها العقل والعاطفة، وفيها حب الخير وكره الشر:

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا

[سورة الشمس: ٧ – ١٠].

هكذا هي الطريقة القرآنية في عرضها للعقيدة:

إنها (طريقة لا تخاطب الذهن المجرد ولكنها تخاطب ''الإنسان'' كله، وتخاطبه – أول ما تخاطبه – عن طريق الوجدان ولا يمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة في الأمر، ولكنها لا تخاطبه منفرداً إنما تخاطبه دائماً والوجدان مستحاش، فيأخذ دوره في التلقي منفعلاً بالقضية، متحركاً للإيمان بها، لا مجرد مُسَاجِلٍ فيها بالمنطق والبرهان: والقرآن حين يصنع ذلك فهو يستجيب للفطرة البشرية كما خلقها ٱلله، فٱلله الذي خلق هذه الفطرة هو الذي أنزل هذا القرآن مفصلاً على قدها، مستجيباً لها، ومحيياً لها، وباعثاً ومقوماً في آن. والعقل جزء من هذه الفطرة ولا شك، وله دوره في قضية الإيمان.. ولكن ٱلله يعلم الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا ''الحياة'' أنه يمكن أن يعمل وحده حين يكون دوره هو التعرف على سنّة من سنن الكون لا مجال فيها للوجدان، أما في قضية الإيمان فإنه لا يستقل بهذا الأمر وحده، بل تشاركه العاطفة والوجدان)[17].

(١٧) «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب: (ص١٤٩) بقليل من التصرف.

وإذا تصفحنا التاريخ الإسلامي لنبحث عن تاريخ الانحراف في الدراسات العقدية لوجدنا أن ذلك قد وقع في العهد الأموي بشكل بسيط، ولكنه بلغ قمته في العهد العباسي إبّان ترجمة العلوم اليونانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية. فبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت رقعة الدولة الإسلامية ودخل في الإسلام أناس أظهروا الإسلام وأبطنوا النفاق والزندقة حصل خلط في المترجمات، فلم يفرق بين الغث والسمين من تلك العلوم الأجنبية.

ولما أصبح شغل أكثر الناس هو الترف العقلي: رأوا أن يستوردوا غثاء الجاهلية الإغريقية وسمي ذلك عند المخدوعين به ''فلسفة''!! وانبهروا بهذا المستورد الدخيل وما فيه من عجمة وتعقيد ولعب بالألفاظ ودلالتها. وقادهم هذا الانبهار إلى إلباس التصور الإسلامي قناعاً غريباً عليه. غريباً عليه في ذاته، وغريباً عليه في عرضه، وغريباً أيضاً على أهله. وسرّ ذلك:

أن (هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية) (١٨).

وحريٌّ بنا أن نسأل: ما هو سرّ محاولة التوفيق بين الفلسفة البشرية الجاهلية التي نمت وترعرعت في جوٍّ وثني كافر، وبين المورد العذب دين الله ''الإسلام''؟.

هل كان ذلك نتيجة للتقليد الأعمى والسعي وراء كل ناعق؟

أم أنه كان نتيجة للقعود عن الجهاد ونشر العقيدة في ربوع الأرض؟

---

(١٨) «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» للأستاذ سيد قطب: (ص١٠ ـ ١١)، دار الشروق.

أم هو الترف العقلي ومجابهة أصحاب الجدل بنفس أسلوبهم؟

أم أن وراء ذلك كيداً من أعداء الإسلام في محاولة تشويه صفاء هذه العقيدة وخلطها بالشوائب الغريبة عنها؟!

والذي يظهر لي – وٱلله أعلم – أن هذه الأسباب مجتمعة لها دورها كلٌّ بحسب أهميته، إلا أنه من خلال تتبع قصة الترجمة في عهدها الأول يظهر لي: أن كيد أعداء الدين وافق هوًى عند بعض المسلمين خاصة بعض الحكام في العهد العباسي – كالمأمون مثلاً – فحدث ما حدث من ترجمة لكتب المباحث السوفسطائية اليونانية وغيرها.

ويصدق ذلك: أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحي يطلب منه أن يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة!!

وتردد الحاكم في إرسالها، وجمع رجالات دولته وٱستشارهم حول هذا الطلب فأشار عليه المطران الأكبر بقوله: (إرسلها إليه، فوٱلله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها) فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها. ثم أحضر المأمون حنين بن إسحاق[19] – وكان فتى لسناً – وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب حكماء اليونان إلى العربية، فٱمتثل لأمره. وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل. مما جعل حنيناً يكتب على ورق غليظ ويباعد بين الأسطر ويكتب بالحروف الكبيرة[20]!!؟

(١٩) هو حنين بن إسحاق، طبيب، مؤرخ، مترجم، كان أبوه صيدلانياً من أهل الحيرة، أخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه وغيره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية فانتهت إليه رئاسة المترجمين في عهد المأمون الذي عينه رئيساً لديوان الترجمة وبذل له الأموال والعطايا.
لخص كثيراً من كتب أبقراط وجالينوس، وكان يحفظ الياذة هوميروس ومترجماته تزيد على المائة. انظر «الأعلام» للزركلي: (ج٢/٢٨٧)، الطبعة الرابعة.

(٢٠) انظر كتاب «عصر المأمون»: (ص٣٧٥ ــ ٣٧٧) للدكتور أحمد مزيد رفاعي، الطبعة الثانية سنة ١٣٤٦هـ، الناشر: دار الكتب المصرية.

وصدق – وآلله – المطران الصقلي: إن هذه الكتب ما دخلت أُمَّة إلا أفسدتها. ترى من أين جاءت محنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه آلله في مسألة خلق القرآن؟ ومن أين جاء آضطهاد علماء السنّة ومحاربتهم وظهور المبتدعة أيام المأمون وغيره؟ ومن أين جاءت المصطلحات المبتدعة كالجوهر والعرض والواجب والممكن وغيرها؟ إنه لم يأت كل ذلك إلا من ترجمة الفلسفة الجاهلية وخلطها بالعقيدة الإسلامية ليصنع من ذلك كله ما سمي بـ ''الفلسفة الإسلامية''!!

وإذا علمنا: أن المترجمين كان جلّهم نصارى[٢١]. وقد كتبوا في الترجمة العربية ما يعتقدونه ويدينون به. فكيف يوثق بنصراني يعتقد التثليث وهو يترجم للمسلمين كتباً يتعلمونها ويعلمونها أبناءهم ويستفيدون منها في مؤلفاتهم؟ لقد صدق الشاعر حين قال:

ومن جعل الغرب له دليلاً
يمر به على جيف الكلاب

ولمزيد من إيضاح وبيان البون الشاسع بين طريقة القرآن والسنّة في عرض العقيدة وبين علم الكلام، نذكر الأمور التالية في المباينة بينهما، لا من باب المقارنة، فلا وجه للمقارنة في الحقيقة، إذ الأمور كما يقول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره
إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وإنما من باب التنبيه والتذكير[٢٢].

(١) **في المصدر**: فمصدر العقيدة القرآنية: آلله رب العالمين. أما مصدر ''علم

(٢١) انظر في هذا كتاب «الجانب الإلهي» للأستاذ محمد البهي: (ص١٧٧).

(٢٢) ينظر في هذا الموضوع كتاب «العقيدة في الله» للأستاذ عمر سليمان الأشقر: (ص٢٧ — ٣٨)، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ، الناشر: مكتبة الفلاح بالكويت.

الكلام'' فعقول البشر القاصرة المزيلة.

(٢) في المنهج والسبيل: فغاية علم الكلام: إثبات وحدانية الخالق، وإنه لا شريك له ويظن المتكلمون أن هذا هو المراد بـ ''لا إله إلا ٱلله'' بينما المراد منها ما سبق أن شرحناه في التمهيد ثم إن علم الكلام يسعى لتحقيق ''المعرفة'' في الوقت الذي نجد فيه الطريقة القرآنية تهدف إلى ''الحركة'' من وراء المعرفة، فتحول تلك المعرفة إلى قوة دافعة لتحقق مدلولها في عالم الواقع وتستجيش الضمير الإنساني ليحقق وجوده في الأرض حسب الخطة التي رسمها له التصور الرباني، وحينئذ ترجع البشرية إلى ربها، وتحيا حياة كريمة رفيعة تتفق مع الكرامة التي كتبها ٱلله للإنسان[٢٣].

ثم إن المنهج القرآني يدعو إلى ''عبادة ٱلله وحده'' قال تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ

[سورة الأنبياء: ٢٥]

وأوصى المصطفى ﷺ معاذاً حين بعثه إلى اليمن: أن يدعوهم إلى عبادة ٱلله وحده، فإذا عرفوا ذلك دعاهم للفرائض[٢٤] ولم يأمره أن يدعوهم أولاً إلى ''الشك'' أو ''النظر'' كما هي طريقة المتكلمين!!

(وٱلله سبحانه عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسيّة والبدهية، والمنطق، والطبيعي، والجوهر والعرض - بل يسألهم عن ٱستجابتهم للرسل أو عدمها

(٢٣) انظر «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»: (ص١٠ ــ ١١).

(٢٤) الحديث موجود في «صحيح البخاري»: (ج٣/٣٢٢، ح١٤٥٨)، و«صحيح مسلم»: (ج١/٥٠، ح١٩) كتاب الإيمان.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾

[سورة الملك: ٨ – ١١]) [٢٥].

ووحدانية الخالق التي هي غاية علم الكلام: لم تنفع المشركين الذين حاربهم رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا يقرون بها كما أخبر الله عنهم:

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

[سورة لقمان: ٢٥]

(٣) **قوة التأثير**: الذي هو طابع العقيدة الربانية: مما يجعل لها سلطاناً قوياً على نفوس معتنقيها. بعكس الفلسفة والكلام اللذين يدلان على جهل أصحابهما كما قال أحدهم – وهو سقراط – ''الشيء الذي لا أزال أعلمه جيدًا هو أنني لست أعلم شيئاً'' [٢٦].

(٤) **الأسلوب**: فالعقيدة الربانية تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع. واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق الكبيرة، مع بساطة في العرض ووضوح في البيان وإعجاز في اللفظ والمعنى. مما يجعل إدراك هذه العقيدة سهلاً لكافة المستويات البشرية. وهذا كله بخلاف الفلسفة والكلام، وبخلاف تلك المصطلحات المعقدة التي لا تزيد الشك إلا شكًا وحيرة وضلالاً[٢٧].

---

(٢٥) «العقيدة في الله» للأشقر: (ص٣١).

(٢٦) المصدر السابق: (ص٣٢).

(٢٧) انظر «خصائص التصور الإسلامي والعقيدة» للأشقر: (ص٣٥).

وأسلوب المتكلمين يسير على نمط واحد في كل قضية يتحدث عنها فهو لا يخرج عن قوله: ''فإن قيل لنا كذا: قلنا لهم كذا''.

أما الأسلوب القرآني فإنه يعرض العقيدة على نمطين:

الأول: توحيد في الإثبات والمعرفة: أي إثبات حقيقة الرب وصفاته وأفعاله وأسمائه كما أخبر به عن نفسه وكما أخبر رسوله الكريم، وهذا موجود في أول سورة الحديد وطه، وآخر الحشر، وأول السجدة، وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها(٢٨).

الثاني: توحيد الطلب والقصد: وهذا ما تضمنته سورة الكافرون

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾

و ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]

وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف، وآخرها، وجملة سورة الأنعام.

ويعرّف الأول: بأنه توحيد علمي خبري، والثاني بأنه: توحيد إرادي طلبي(٢٩).

ونظرة واحدة إلى سيرة المصطفى ﷺ في عرضه لهذه العقيدة وتربيته الفذة لصحابته كافية في الدلالة على أن من سلك طريقاً غير طريق القرآن والسنّة في عرض العقيدة فقد سلك ''سبلاً'' لا تلتقي مع صراط الله المستقيم.

---

(٢٨) «شرح العقيدة الطحاوية»: (ص٨٨) طبع المكتب الإسلامي.

(٢٩) المصدر السابق: (ص٨٨).

روى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ»[٣٠].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي[٣١]: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[٣٢].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

(لقد كان تلقي صحابة رسول الله ﷺ لهذه العقيدة أشبه ما يكون بتلقي الجندي في الميدان ''الأمر اليومي'' ليعمل به فور تلقيه، ولذلك لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود) [٣٣].

هكذا كان صدر هذه الأمة مقتصراً على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ في عقيدته. ولكن الانحراف الذي طرأ على المسائل العقدية في العصور المتأخرة سببه حركة الترجمة والانبهار بفلسفة اليونان وعلومهم. ولو كان هناك وعي وتفكير في الأشياء المترجمة لاقتصر على ترجمة العلوم البحتة كالهندسة والكيمياء والطب وغيرها من العلوم النافعة وبشرط أن تكون صياغة ترجمتها متفقة مع عقيدة المسلمين. ولكن الخطأ الذي حصل كان ترجمة جميع العلوم ومنها ''الإلهيات'' عند أرسطو وأفلاطون وغيرهم!

---

(٣٠) مقدمة الحافظ ابن كثير لتفسيره: (ج١/١٣).

(٣١) هو عبد الله بن حبيب السلمي القارىء. لأبيه صحبة. روى عن مجموعة من كبار الصحابة. وهو تابعي ثقة توفي سنة ٧٢هـ وقيل ٨٥هـ. انظر «تهذيب التهذيب»: (ج٥/١٨٣).

(٣٢) المصدر السابق: (ج١/١٣).

(٣٣) «معالم في الطريق»: (ص١٥).

إنه خطأ فاحش وقع فيه من وقع وإلا فما هو الدافع لاستيراد ما عند الوثنيين وآستخدام أهل الكتاب في ذلك؟

وصدق حبر هذه الأمة عبد آلله بن عباس رضي آلله عنهما حين قال محذراً «.. أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا وآلله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم»[34].

والذي حصل كما يقول الشيخ محمد الغزالي:

(إن صفو هذه العقيدة قد تعكر بالفكر الأجنبي الذي أقتحم على الحياة الإسلامية وبضروب الجدل التي زجى بها المتبطلون أوقات فراغهم)[35].

ولكن رحمة آلله بعباده وتكفله جلّ جلاله بحفظ الدين تجلت في إيجاد علماء أعلام، في كل عصر ومصر، قاموا بواجب الدعوة إلى آلله والجهاد في سبيله وتبصير الأمة بما شردت عنه، وزهدت فيه.

لذلك حين رأى كثير من الأئمة رحمهم آلله هذا الداء الدخيل يدخل على المسلمين في تصورهم وعقيدتهم قاموا بواجبهم الجهادي نحوه.

فهذا الإمام الجليل الشافعي رحمه آلله يقول:

(حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة، وأقبل على الكلام)[36].

ويقول أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رحمهما آلله:

(العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم)[37].

---

(٣٤) «صحيح البخاري»: (ج١٣/٤٩٦، ح٧٥٢٣) كتاب التوحيد.

(٣٥) «الإسلام والطاقات المعطلة»: (ص١١٢)، الطبعة الثانية.

(٣٦) «شرح الطحاوية»: (ص٧٢).

(٣٧) المصدر السابق: (ص٧٢).

ثم عقب شارح الطحاوية على ذلك بقوله:

(كيف يرام الوصول إلى علم الأُصول بغير آتباع ما جاء به الرسول)[٣٨].

وذكر آبن الجوزي رحمه آلله:

(أن أصل الدخل في العلم والاعتقاد: من الفلسفة، وذلك أن خلقاً من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول آلله ﷺ من الانعكاف على الكتاب والسنّة، بل أوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد)[٣٩].

أما شيخ الإسلام آبن تيمية رحمه آلله فيقول:

(هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنّة الذين ذمهم السّلف والأئمة، إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد، بل أخذوا يناظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنّة منهم، بطريق لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول، وهذا لا يقطع أولئك الكفار بالعقول فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد. وأخذوا يقولون: إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار، والرد على أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات!!، وإن ما عارض هذه المعقولات من السمعيات يجب رده تكذيباً، أو تأويلاً، أو تفويضاً. لأنها أصل السمعيات، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس)[٤٠].

وكلمة أخيرة نذكرها للعبرة والعظة، وهي كلمة لأحد أولئك الذين خاضوا في بحر الكلام اللجي ثم خرجوا منه يطلبون النجاة. إنها كلمة أبي

---

(٣٨) المصدر السابق: (ص٧٢).

(٣٩) «صيد الخاطر»: (ص٢٠٥) تحقيق الطنطاوي، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ.

(٤٠) «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»: (٢٣٨/١) تحقيق محيي الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقي.

عبد ٱلله محمد بن عمر الرازي حيث قال:

(لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً. ورأيت أقرب الطرق. طريقة القرآن.. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي) [٤١]. هذا وإنه لحريٌّ بالأمة، بعد أن عاشت قروناً من الضياع والتخبط أن تعود إلى المشكاة الربانية كتاب ٱلله وسنّة رسوله، فتتدبر معانيها، وتعمل بما فيها، ففي ذلك النجاح والفلاح وطمأنينة القلب

أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ

[سورة الرعد: ٢٨]

وعلى الرغم من أنه سيتضح للقارىء – إن شاء ٱلله – من خلال قراءة هذا البحث: طريقة القرآن والسنّة في غرس عقيدة ''الولاء والبراء'' في النفوس، وذلك من خلال سيرة رسول ٱلله ﷺ في العهدين المكي والمدني، ومن خلال الأمثلة والصور الكثيرة في هذا الشأن، إلا أنني أرى أنه لا بأس بأن أورد هنا طرفاً من هذا الموضوع خاصة وأنني قد تكلمت حول عقم علم الكلام وجنايته على الأمة الإسلامية.

إن من أولى البدهيات في هذا الشأن أن الإسلام قد حرص على أن يكون انتماء المسلم لدينه فقط منذ أول لحظة يعلن فيها ''لا إله إلا ٱلله محمد رسول ٱلله''. والبراء من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى ٱلله تعالى.

والأدلة على ذلك كثيرة جدًا في كتاب ٱلله وسنّة رسوله ﷺ.

قال تعالى:

فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ

---

(٤١) «شرح الطحاوية»: (ص٢٢٧).

ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ

[سورة البقرة: ٢٥٦]

وقال:

وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

[سورة آل عمران: ١٠٣]

ويقول سبحانه:

قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ
وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

[سورة الأنعام: ٧١]

وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ

[سورة لقمان: ٢٢]

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ
دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

[سورة آل عمران: ٨٥]

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

[سورة فصلت: ٣٣]

فهذه النصوص الكريمة تثبت مدى منّة الله سبحانه وتعالى بإنعامه على المسلمين بهذا الدين، فالولاء له مصدر القوة والعزة.

فمن ٱستمسك بهذا الولاء، وحققه فقد ٱستمسك بالعروة الوثقى. أما الحديث – فعن أبي هريرة رضي ٱلله عنه قال: قال رسول ٱلله ﷺ: «إن ٱلله قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية[٤٢]، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على ٱلله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»[٤٣]. وحرص المصطفى ﷺ على تربية أمته والبعد بها عن مفاخر الأنساب والأحساب التي لا تستمد قوتها وحيويتها من هذا الدِّين القيِّم، فنجده عليه الصلاة والسلام يحثهم على أن يكون ٱنتمائهم للصف الإسلامي وحسب. ففي الحديث عن أبي عقبة – وكان مولى من أهل فارس – قال: شهدت مع رسول ٱلله ﷺ أحداً، فضربت رجلاً من المشركين، فقلت: خذها مني وأنا الغلام الفارسي! فٱلتفت إليّ رسول ٱلله ﷺ وقال: «فهلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري»[٤٤].

ولقد كان ديدن العقيدة الإسلامية هو: إفراد ٱلله تعالى بالتعلق والحب والتعظيم والطاعة والإنابة والخشوع والخوف والرجاء، وتجريد النفس من كل محبوب أو مرهوب أو مرغوب سوى ٱلله تعالى، قال جلَّ شأنه:

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ
وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ

[سورة يونس: ١٠٧]

---

(٤٢) العبية – كما قال الخطّابي –: الكبر والنخوة. انظر «سنن أبي داود»: (ج٥/٣٤٠).

(٤٣) «سنن أبي داود»: (ج٥/٣٤٠، ح٥١١٦) كتاب الأدب. وأخرجه الترمذي في المناقب: (ج٩/٤٣٠، ح٣٩٥٠) وقال: حديث حسن.

(٤٤) «سنن أبي داود»: (ج٥/٣٤٣، ح٥١٢٣)، وقال الشيخ الألباني في «المشكاة»: (ج٣/١٣٧٤): في إسناده عنعنة محمد بن إسحاق. وأخرجه ابن ماجة في الجهاد: (ج٢/٩٣١، ح٢٧٨٤).

وقال رسول آلله ﷺ لعبد آلله بن عباس رضي آلله عنهما: «وآعلم أن الأمّة لو آجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه آلله لك، ولو آجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه آلله عليك»[٤٥].

(فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع آلله، بل يفرد آلله بالمخافة.. ويتجرد لله محبةً وخشيةً وإنابةً وتوكلاً، وآشتغالاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه، وآشتغاله به من نقص توحيده[٤٦] وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، وآلله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن آلله يدافع عن الذين آمنوا.. ومعلوم أن التوحيد حصن آلله الأعظم من دخله كان من الآمنين. قال بعض السلف: من خاف آلله خافه كل شيء ومن لم يخف آلله أخافه من كل شي)[٤٧].

هذا طريق من طرق منهج العقيدة في غرسها للولاء والبراء في النفوس. وطريق آخر: وهو آستخدام مشاهد يوم القيامة، لتصوير الخصومة والعداء بين الأتباع والمتبوعين – الذين سلكوا غير منهج آلله في الدنيا ووالوا وعادوا حسب العادات ودين الآباء – وتبرؤ كل فريق من صاحبه.

إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ

---

(٤٥) «سنن الترمذي»: (ج٧/٢٠٤، ح٢٥١٨) في أبواب صفة القيامة، وقال: حديث حسن صحيح.

(٤٦) يشترط في هذا عدم ترك الأسباب لأن فعل السبب من باب التوكل «إعقلها وتوكل».

(٤٧) «بدائع الفوائد» لابن القيم: (ج٢/٢٤٥) بتصرف.

﴿أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

[سورة البقرة: ١٦٦ - ١٦٧]

ولا شك أن هذه حال من آتخذ من دون آلله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها، وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يخلص موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وآنتصاره وإيثاره لله ورسوله.

ويوم القيامة ينقطع كل سبب ووسيلة وموالاة كانت لغير آلله، ولا يبقى إلا من كان له سبب يصل بينه وبين ربّه، وهو حظه من الهجرة إلى آلله ورسوله وعبادة آلله وحده وما يلزم ذلك من الحب والبغض والعطاء والمنع والولاء والعداء والقرب والبعد وتجريد متابعة رسول آلله ﷺ والإعراض والترك لما خالف سنته وهديه) [٤٨].

ومن منهج القرآن أيضاً في موضوع الولاء والبراء ضرب المثل، وهذا كثير في القرآن الكريم، وأبرز مثال في هذه القضية هو إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن وأبو الأنبياء. فإنه هو القدوة الأولى في الولاء والبراء. ونظراً لأهمية ذلك أترك الحديث عنه إلى فصل مستقل في هذا الباب إن شاء آلله.

وإذا وُجدت محبة آلله في القلب، تحمل المؤمن حينئذ وتقبل تكاليف هذه المحبة ولوازم عبادته لله تعالى، ومن ذلك جهاد أعداء آلله وبغضهم وهجرهم والصبر على الأذى في سبيل آلله.

ثم يمضي القرآن الكريم في أسلوب عرض هذه العقيدة مستخدماً التهديد والوعيد بعد البيان والإيضاح وإقامة الحجة على الناس فيقول عزَّ وجلَّ:

---

(٤٨) انظر «الرسالة التبوكية»: (ص٥١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

[سورة المائدة: ٥٤]

أما المستجيبون لأمر ٱلله فإن ٱلله يحبهم وهو ناصرهم ومولاهم

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾

[سورة الصف: ٤]

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾

[سورة آل عمران: ١٥٠]

﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾

[سورة الحج: ٧٨]

ومن لوازم محبة ٱلله ٱتباع رسول ٱلله ﷺ

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

[سورة آل عمران: ٣١]

يقول شيخ الإسلام ٱبن تيمية:

(فٱتباع سنّة رسوله ﷺ وٱتباع شريعته باطناً وظاهراً هو موجب محبة ٱلله، كما أن الجهاد في سبيل ٱلله، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها) (٤٩).

---

(٤٩) «التحفة العراقية»: (ص٧٦).

ويقول الحسن البصري رحمه ٱلله:

(زعم قوم أنهم يحبون ٱلله فٱبتلاهم ٱلله بهذه الآية: ﴿قل إن كنتم تحبون ٱلله فٱتبعوني يحببكم ٱلله﴾) [٥٠]. لقد ربى الكتاب والسنّة الأمة على الحب في ٱلله والبغض في ٱلله، والولاء في ٱلله والبراء في ٱلله، حتى وصلت إلى حد أن لو قذفت في النار لكان أحب إليها من أن تعود في الكفر بعد إذ أنقذها ٱلله منه.

ولئن كان الولاء والبراء قد غاب اليوم في واقع حياة المسلمين – إلا من رحم ربك – فإن هذا الغياب لا يغير من الحقيقة الناصعة الجلية شيئاً لأن هذا الأمر العظيم كما يقول الشيخ حمد بن عتيق[٥١]:

(ليس في كتاب ٱلله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضدة) [٥٢]. وما سر ٱستيراد مذاهب البشر الإلحادية وأفكارهم القاصرة إلا نتيجة حتمية لغياب ولائهم لله ورسوله وعدم براءتهم من الطواغيت المقنعة ببهرج الباطل وزيف الحقيقة.

---

(٥٠) «تفسير ابن كثير»: (ج٢/٢٥).
(٥١) ستأتي ترجمته قريباً.
(٥٢) «النجاة والفكاك»: (ص١٤).

الفصل الثاني

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما

إن وجود أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر قديم نشأ منذ خلق آدم عليه السلام وأمر ٱلله للملائكة بالسجود له فسجدت إلا إبليس أبى وٱستكبر.

وقد تحدث القرآن الكريم عن قصة هذه العداوة بين آدم وإبليس في سور شتى من أبرزها سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه وغيرها.

قال تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

[سورة البقرة: ٣٤ - ٣٨]

وفي سورة الأعراف يأتي بيان عدم سجود إبليس:

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ

[سورة الأعراف: ١٢]

لقد كان أمر ٱلله لإبليس أن يسجد فكان ردُّه لعنه ٱلله الامتناع والاستكبار مستخدماً في ذلك قياسه الفاسد: إن النار اشرف من الطين! وهو بهذا ينصب نفسه ندًّا لله سبحانه وتعالى: ٱلله يقول كذا. فيقول إبليس أنا أرى كذا. ولذلك آستحق اللعنة والطرد من رحمة ٱلله.

وآنقسم الناس إلى فريق الهدى وفريق الضلال بدءا بهذه البداية كما ذكر ذلك المولى سبحانه:

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ
وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

[سورة التغابن: ٢].

فأما الفريق الذي أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله المنزّلة ورسله المبعوثين رحمة للناس فهؤلاء أولياء الرحمن.

وأما الفريق الذي أعرض وآستكبر فهم أولياء الشيطان.

وقبل الحديث عن الفريقين لا بد أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أقام الحجّة على عباده مبيّن لهم عداوة الشيطان – حتى بعد قصته مع آدم –.

فهو سبحانه لم يذكر قصة آدم وعداوة إبليس له عدة مرات في القرآن فحسب، بل زاد الأمر بياناً فحذر بني آدم في مواضع كثيرة من القرآن أن يستمعوا لغواية الشيطان، يعرضهم عن طريق الله المستقيم قال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟
فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

[سورة البقرة: ٢٠٨].

ثم يأتي التذكير مع التحذير في قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[سورة الأعراف: ٢٧].

ولم يقتصر البيان القرآني الكريم على هذا بل قد كشف للناس المخطط الشيطاني، حتى يبصر كل ذي عينين ويتفكر أولوا الألباب فقال تعالى عن إبليس:

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾

[سورة النساء: ١١٨ – ١٢٠].

ثم يذكر الله للناس مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين يندم أولياء الشيطان ولات ساعة مندم فيقول سبحانه:

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾

هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ

[سورة يس: ٥٩ - ٦١].

ومشهداً آخر لإبليس حين يتبرأ من أتباعه:

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ
لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ
فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

[سورة إبراهيم: ٢٢].

إنه ليس بعد بيان الله بيان. والأشياء لأصلها تعود كما يقولون فما دام أن إبليس عدو لآدم فلا شك أن أتباع إبليس وحزبه أعداء لأولياء الرحمن وأتباع المرسلين. ومن ثم فلا التقاء بين الفريقين ولا هوادة بينهما.

إنها الحرب والعداوة والحسد والاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة وكل ما يوحي به إبليس لأتباعه ذلك سلاح حزب الشيطان.

وحزب الشيطان أناس يتربصون بالمؤمنين يحاولون ما استطاعوا أن يصدوهم عن ذكر الله، ولقد أخبرنا الله جلَّ جلاله بذلك في مواضع عدة من كتابه الكريم فقال سبحانه عن سخرية أعداء الله بحزب الله:

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

[سورة البقرة: ٢١٢].

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ [سورة الأعراف: ٦٦].

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ

[سورة المطففين: ٢٩ – ٣٢].

وآنظر إلى تصوير القرآن لعداوة حزب الشيطان، وما تنطوي عليه نفوسهم ضد المؤمنين في قوله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

[سورة الحج: ٧٢].

وها هنا **حقيقة هامة هي**: أن العداوة التي وقعت بين آدم عليه السلام وبين إبليس هي عداوة قائمة بين إبليس وبني آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وتاريخ البشرية كله ما هو إلا مصداق لحقيقة آنقسام الناس إلى فريق الهدى والرشاد وفريق الهوى والشهوة والشيطان.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

[سورة التغابن: ٢].

وعلى ذلك فإنه لا آلتقاء بين الفريقين في الدنيا ولا في الآخرة ولذلك يقول شيخ الإسلام آبن تيمية رحمه الله:

(ومن سنّة الله: إنه إذا أراد إظهار دينه، أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) [٥٣].

(٥٣) «مجموعة الفتاوى»: (ج٢٨/٥٧).

وآنظر إلى عداوة قوم نوح عليه السلام له وقوم عاد وقوم صالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد ﷺ، ثم العداوة التي تقابل بها الجاهلية أهل الإيمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان أولياء الرحمن مُصرِّين على آتباع هدى ربهم فإن أولياء الشيطان يصرون أيضاً على التردي في حمأة الجهل والضلال، عابدين للطاغوت سواء كان هذا الطاغوت ندًّا يُعبد أو شهوة يراد إشباعها أو جنساً أو لغةً أو سلطةً أو أرضاً أو دين الآباء الأولين. وصدق الله العظيم إذ يقول:

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٧].

أما حزب الرحمن فهم (الذين ينتمون إليه سبحانه، ويستظلون برايته، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره، وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان، ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأورمات والبيوت) (٥٤).

وقد جاء الدين الإسلامي بفيصل التفرقة بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية فلم يجعل آلتقاء الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس أو التراب - كما تفعل ذلك الجاهليات القديمة والحديثة على السواء - بل جعل آلتقاء الناس على العقيدة في الله، وجعل المفاضلة بينهم بالعمل الصالح قال تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ

---

(٥٤) «في ظلال القرآن»: (ج١/٤١٣).

﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

[سورة الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب»(٥٥).

وقال أيضاً: «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي أو فاجر شقي»(٥٦). ولقد تبرأ المصطفى ﷺ من أقرباء له ليسوا على دينه، ليضع من نفسه قدوة للمؤمنين فقال فيما رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً من غير سرٍّ: «إن آل فلان - أناس من أقاربه - ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين» متفق عليه(٥٧).

وقال ﷺ: «إن أولى النّاس بي المتّقون من كانوا وحيث كانوا»(٥٨) وهذا موافق لقوله تعالى:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة التحريم: ٤].

من هنا: كان المؤمنون هم أولياء الله لأنهم آستجابوا لما أراد الله فتلقوا منه وحده، وعبدوه وحده، وخافوه وحده. بعكس الفريق الثاني فإنهم كلما

---

(٥٥) «مسند الإمام أحمد»: (ج٥/٤١١) عن أبي نضرة، وإسناده صحيح إلا أنه مرسل لأن أبا نضرة ليس صحابيًا.

(٥٦) سبق تخريجه: (ص١٠٨).

(٥٧) «صحيح البخاري»: (ج١٠/٤١٩) كتاب الأدب، ومسلم: (ج١/١٩٧، ح٢١٥) في الإيمان.

(٥٨) «مسند أحمد»: (ج٥/٢٣٥)، وهو حديث صحيح. انظر تخريج كتاب «فقه السيرة» للغزالي: (ص٤٨٥)، و«صحيح الجامع الصغير»: (ج٢/١٨١، ح٢٠٠٨).

دعاهم رسولٌ من رسل الله قالوا:

﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

[سورة البقرة: ١٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

[سورة المائدة: ١٠٤].

ومن صفات أولياء الرحمن: الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه واتباع أمره، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

[سورة النور: ٥١].

أما أولياء الشيطان: فمن سماتهم الإعراض عن حكم الله وشرعه، واتباع الهوى والشيطان قال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِۚ﴾

[سورة النساء: ٤٦].

وقال:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾

[سورة السجدة: ٢٢].

يقول العلامة آبن القيم:

(كل من كذَّب رسولَ الله ﷺ، وأعرض عن متابعته، وحاد عن شريعته، ورغب عن ملَّته، وآتبع غير سنّته، ولم يتمسك بعهده، ومكن الجهل من نفسه، والهوى والفساد من قلبه، والجحود والكفر من صدره، والعصيان والمخالفة من جوارحه فهو ولي الشيطان) [٥٩].

ومن سمات أُولياء الشيطان أُنهم:

(إذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه، وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أُخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدًّا أُعطوه السكة والخطبة، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء ناصراً لهم، وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين لا لأنه حق بل لموافقته غرضهم وأهوائهم،

وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ

[سورة النور: ٤٨ — ٥٠]) [٦٠].

---

(٥٩) «هداية الحيارى»: (ص٧).

(٦٠) «مدارج السالكين»: (ج١/٥٣).

طبيعة العداوة بين الفريقين

بعد أن بيّنا سمات الفريقين، نتحدث الآن عن العداوة بينهما، ومعرفة هذه العداوة أمر لا بد منه لتمييز الخبيث من الطيب

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾

[سورة آل عمران: ١٧٩].

ومعرفة العداوة بين الفريقين أمر هام يكشف ألعوبة بعض المتسمّين بأسماء إسلامية وهم يسعون لتذويب المسلم في خضم الجو الجاهلي المعاصر وتمييع ولائه لربّه وإخوانه المسلمين، وأمانة براءته وعداوته لكل عدو لهذا الدِّين.

هذه الحقيقة الهامة الناصعة يحاول أعداؤنا تزييفها: بأن الكفار أصدقاء أوفياء شرفاء يجب أن يكون لهم الحب والتقدير، والإجلال والإكبار والتعظيم، يقولون إننا متأخرون وهؤلاء القوم متقدمون يجب أن نسلك مسلكهم، وننهج نهجهم نقتفي آثارهم في كل وضع وحال، نأخذ حضارتهم بكاملها حلوها ومرها، حقها وباظلها، بل إنه لا باطل فيها[٦١].

ولكن هيهات خسئوا وخابوا، إن حزب ٱلله هم الأعلون عند ٱلله قدراً، وهم الأعلون ولو كانوا أقل عدداً، وحزب الشيطان هم الخاسرون ولو كانوا عدد الحصى.

ولا بد أن يسبق حديث العداوة بين الفريقين، نبذة بسيطة عن عداوة

---

(٦١) ممن تزعّم هذا الاتجاه طه حسين وأضرابه. وانظر إذا شئت كتابه «مستقبل الثقافة في مصر».

إبليس للإنسان حتى نعلم مداخل الشيطان لهذه النفس البشرية، ومدى تلبيسه الحق بالباطل على أوليائه فيبيّن الحق للمؤمن فيأخذ الحذر على نفسه ومن معه، ويعبد ٱلله على بصيرة منه ونور من شرعه.

وقد ذكر ٱبن القيم رحمه ٱلله أن عداوة الشيطان للإنسان تتمثل في سبع مراتب أذكرها هنا بالاختصار:

(١) الكفر والشرك، ومعاداة ٱلله ورسوله، فإذا ظفر الشيطان بذلك من ٱبن آدم برد أنينه، وٱستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فإن ظفر به صيره من عسكره ونوابه، فصار من دعاة إبليس، فإن يئس من ذلك نقله للمرتبة الثانية من الشر وهي:

(٢) البدعة: لأنها أحب إليه من الفسوق والعصيان، وذلك أن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد، وهي مخالفة لدعوة الرسل، فإن كان الشخص ممن يعادي أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة وهي:

(٣) الكبائر: على ٱختلاف أنواعها، فيحرص أن يوقعه فيها، خاصة إذا كان عالماً متبوعاً لينفر الناس عنه. ومن المعلوم أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها، فكيف إذا تولوا هم إذاعتها؟ فإن عجز عن هذه نقله للتي بعدها وهي:

(٤) الصغائر: التي إذا ٱجتمعت ربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: «إيّاكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك قوم نزلوا بفلاة من الأرض»[٦٢]. وذكر حديثاً معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا وٱشتووا. ولا يزال يسهل عليه أمر

---

(٦٢) الحديث في «مسند أحمد»: (ج٥/٣٣١) وهو حديث صحيح، انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (ح٣٨٩)، و«صحيح الجامع»: (ج٢/٣٨٦، ح٢٦٨٣ و ٢٦٨٤).

الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد عن هذه نقله للخامسة.

(٥) إشغاله بالمباحات: التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه بآشتغاله بها، فإن أعجزه العبد عن هذه بأن كان حافظاً لوقته شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وآنقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله للتي بعدها.

(٦) إشغاله بالعمل المفضول عن الفاضل: ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، ويفتح له أبواب خير كثيرة، كما ورد أنه يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين وأجل وأفضل. وهذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من آلله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند آلله، وأحبها إليه، وأرضاها له، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة، وخلفائه في الأرض وآلله يمن بفضله على من يشاء من عباده[٦٣].

(٧) فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست: سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفاءه ليشوش عليه قلبه، ويمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يني فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى آلله.

وما دام أن هذا هو كيد الشيطان للإنسان فما هو سبب العداوة ومثيرها

---

(٦٣) «بدائع الفوائد»: (ج٢/٢٦٠ ــ ٢٦٢) بتصرف.

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؟

والجواب على ذلك أحد أمور أربعة أو الأربعة مجتمعة:

(١) الكبر: فأولياء الشيطان ٱستكبروا على الحق وعلى الرسول وعلى الرسالة. قال ٱلله تعالى فيهم:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ

[سورة غافر: ٥٦].

وقال تعالى:

أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ

[سورة البقرة: ٨٧].

وقال تعالى:

وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ

[سورة لقمان: ٧].

(٢) ٱستحباب الحياة الدنيا على الآخرة، واللصوق بالشهوات واللذائذ قال تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ

[سورة النحل: ١٠٧].

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾

[سورة إبراهيم: ٣]

وإذا وجد الكبر وحب الدنيا على الآخرة أو أحدهما: فإن أرباب ذلك ينزعجون من وجود عباد آلله المخلصين، حتى ولو لم يظهر لهم منهم أي آحتكاك فإن وجودهم بهذا النقاء وبهذه الطهارة وبذلك الاستعلاء أمر يغيظ أعداء آلله قال تعالى:

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾

[سورة النساء: ٨٩].

ذلك أن وجود الفريق الطاهر يشعر الفريق الدنس بخبث طويته وقبيح فعله، فمن هنا يبدأ كيد أعداء آلله لأولياء آلله بكل ما تعني كلمة ''كيد'' سواء كان ذلك بالسخرية أو الاستهزاء، أو العذاب والاضطهاد، أو التربص للمؤمنين بكل ما يسوء.

(٣) الحسد: فثائرة أولياء الشيطان لا تهدأ، ولذلك يكنُّون للمؤمنين الحسد والحقد، وقد بيّن آلله ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟
وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

[سورة البقرة: ١٠٩].

أجل هذه هي أمنيتهم أن يكفر عباد آلله ليتساووا معهم في الكفر والضلال، وقد بيّن آلله عظيم حقدهم وحسدهم لو ظهروا على المؤمنين

قال تعالى:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾

[سورة التوبة: ٨].

(٤) سلب الهيمنة والولاء: وهذا أمر يختص بـ''الملأ'' أي السادة والطواغيت الذين يستعبدون الناس، حيث يتقدم الناس لهم بالإجلال والتعظيم والرغبة والرهبة، والخوف والرجاء. فإذا جاء دين آلله وشرعه الذي يحرر الناس من عبودية العبيد إلى عبادة الواحد القهّار فإن ''الملأ'' يثورون ويعادون دعاة الخير، لأنهم يشعرون حينئذ أن سلطانهم قد سلب وأن شرفهم قد زال، وأن الناس لم يعودوا يخشونهم أو يرهبونهم، لأن دين آلله قد حررهم وأعزهم وعبّدهم لله فخوفهم من آلله، وحبهم لله، وولاؤهم لله، وبغضهم في آلله.

ودليل هذا فعل كسرى حين جاءه كتاب رسول آلله ﷺ يدعوه إلى الدخول في الإسلام فآستكبر في نفسه وكأنه يقول: أمر عجيب الأعراب الذين كانوا رعاة لنا يأتون إليّ لأدخل في دينهم الجديد! وظن أن ملكه سيزول إذا دخل في الدين الجديد، فما كان منه إلا أن مزق الكتاب. وقد آستجاب آلله دعوة نبيّه ﷺ فمزق آلله ملك كسرى شر ممزق، فهكذا الطواغيت التي لا تدين لله بالولاء والسلطة والحاكمية تعادي أولياء الرحمن وتصب عليهم أشد أنواع العذاب كما قال تعالى:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

[سورة البروج: ٨].

(والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها – في دخيلة نفسها – لا تعرف ما فيه من الحق والخير، أو لأنها – بينها وبين نفسها – تعتقد حقًّا أن باطلها الذي تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام! كلاًّ! فهي تكرهه وهي عالمة بما فيه من الحق والخير وبأنه هو الذي يقوّم ما آعوج من شؤون الحياة،

وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه، وتود أن تبقى الأمور على آعوجاجها ولا تستقيم!، تكرهه لأنها هي الجاهلية.. وهو الإسلام!

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ

[سورة فصلت: ١٧]) (٦٤).

أما طبيعة عداوة أولياء الرحمن لأعدائهم: فهي جزء من عقيدتهم، وأحسب أني فصلت القول في هذا في التمهيد حين تكلمت عن لوازم لا إله إلا آلله أنهم يبغضون في آلله من حاد آلله ورسوله قال تعالى:

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

[سورة المجادلة: ٢٢].

إنهم لا يلتقون مع أعدائهم في منتصف الطريق بل يقولون كما قال إمامهم إبراهيم على السلام:

إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ

[سورة الممتحنة: ٤].

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه آلله:

---

(٦٤) «جاهلية القرن العشرين» للأستاذ محمد قطب: (ص٣٢٢).

(إنه لا يستقيم للإنسان إسلام – ولو وحّد وترك الشرك – إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى:

لَّا تَجِدُ قَوْمًا

[سورة المجادلة: ٢٢])[٦٥].

وما دمنا قد عرفنا منطلق العداوة وحقيقتها فيجب أن نعلم أن هذا هو "القاسم المشترك" بين أعداء الإسلام بشتى أصنافهم كفار ومشركين ومنافقين وكل من كره الإسلام وعاداه.

إن طبيعة المنهج الإسلامي التي يعرفها جيدًا أُصحاب المناهج الأُخرى طبيعة الإصرار على إقامة مملكة ٱلله في الأرض، وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة ٱلله وحده، وتحطيم الحواجز المادية التي تحول بين الناس كافة وبين حرية الاختيار الحقيقية.. ثم إنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة، لا ٱلتقاء بينهما في صغيرة ولا كبيرة وحرص أُصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الربّاني الذي يهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم، فهي حتمية لا ٱختيار فيها في الحقيقة لهؤلاء ولا لهؤلاء.. وهذه الظاهرة يقررها القرآن بقوله ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن ٱستطاعوا﴾[٦٦].

ونذكر بعض عداوات هذه الأصناف حسبما نصَّ عليها القرآن الكريم. فأما "الكفار" فقد قال ٱلله تعالى عنهم:

يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ

[سورة الصف: ٨].

وقال في شأن "المشركين":

---

(٦٥) «مجموعة التوحيد»: (ص١٩) (ستة مواضع من السيرة)، طبعة دار الفكر.

(٦٦) انظر «طريق الدعوة في ظلال القرآن»: (ج١/٨٠).

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

[سورة البقرة: ١٠٥].

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾

[سورة الصف: ٩].

وأما عداوة ''أهل الكتاب'' فالله يقول عنهم:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

[سورة البقرة: ١٢٠].

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾

[سورة المائدة: ٨٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾

[سورة النساء: ٤٤].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾

[سورة آل عمران: ١١٩].

أما عداوة ''المنافقين'': فقد نبّه القرآن الكريم على ذلك في مواضع كثيرة، ومن ذلك ما ورد في أول سورة البقرة، حيث ذكرهم في ثلاث عشرة آية من آية ٨ – ٢٠ وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بليّة الإسلام بهم شديدة جدًّا، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب،

يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد.

(فلله كم معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه، وكم من لواء مرفوع قد وضعوه.. آتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون:

فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

[سورة المؤمنون: ٥٣].

(رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم العقل المعيشي: إن الفريقين عنهم راضون وهم بينهم آمنون.

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ

[سورة البقرة: ٩].

(من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات فركبوا مراكب الشبه والشكوك، تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين.

أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ

[سورة البقرة: ١٦]) (٦٧).

وقد نزل بخصوصهم سورة كاملة في القرآن هي سورة ''المنافقون'' وقد ورد فيها صريح عداوتهم للمؤمنين في قوله تعالى عنهم:

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ

---

(٦٧) «مدارج السالكين»: (ج١/٣٤٧ ــ ٣٤٩) بتصرف.

﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[سورة المنافقون: ٧ – ٨].

وما دمنا قد عرفنا عداوات هذه الأصناف للإسلام، فإنه لجدير بنا أن نؤكد خطورة عداوة اليهود والنصارى؛ لأنهم هم المسيطرون اليوم على معظم بقاع الأرض، وهم الذين يبثون غزوهم بشتى الأساليب، وهم رمز ''البهرج والانبهار'' أمام المخدوعين من أبناء المسلمين.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

(إن حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة هي من أجل العقيدة. وهم قد يختصمون فيما بينهم ولكنهم يلتقون دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين.

(وقد يرفعون لهذه المعركة أعلاماً شتى – في خبث ومكر وتورية – لأنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة، فخوفاً من حماس العقيدة الإسلامية وجيشانها: أعلنوا الحرب باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية، وألقوا في روع المخدوعين منا: إن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع رايتها، وخوض المعركة باسمها، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! وذلك ليأمنوا جيشان العقيدة من جديد، بينما هم في قرارة نفوسهم جميعاً: يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً فأدمتهم جميعاً!

(فإذا نحن خدعنا بخديعتهم فلا نلومنّ إلا أنفسنا، ونحن نبتعد عن

توجيه ٱلله لنبيه ﷺ ولأمّته وهو سبحانه أصدق القائلين:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

[سورة البقرة: ١٢٠].

(هذا هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود. ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق ﴿قل إن هدى ٱلله هو ٱلهدى﴾ على سبيل القصر والحصر هدى ٱلله هو الهدى وما عداه فليس بهدى) (٦٨).

وخلاصة القول :

إن حقيقة العداوة وطبيعتها هو ٱختلاف الدينين، وٱفتراق المنهجين. فإما دين ٱلله وٱتباع شرعه وموالاة عباده المؤمنين. وإما دين الباطل وٱتباع الهوى والشهوات والشيطان والانضمام إلى حزب الشيطان. فعلى أولياء ٱلله أن يعتزوا بدينهم، وأن يستعلوا فوق وطأة الباطل فإنهم هم المنصورون، وإذا كان أعداء ٱلله يتباهون بقوتهم وكثرة عددهم وعدتهم فإن المؤمنين يفخرون بنصر ٱلله وكريم معيته وعونه لهم.

فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي ٱلله عنه عن النبي ﷺ: قال: «يقول ٱلله تعالى: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما ٱفترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن ٱستعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه»(٦٩).

---

(٦٨) «في ظلال القرآن»: (ج١/١٠٨) بتصرف.

(٦٩) سبق تخريجه: (ص٩١).

ويقول ٱلله تبارك وتعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ

[سورة النحل: ١٢٨].

ويقول تعالى:

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ

[سورة الأنفال: ١٢].

ويقول تعالى:

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ
وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ

[سورة محمد: ٣٥].

وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا مصداق ذلك، ففي غزوة بدر نصر ٱلله القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وأعزَّ دينه ونصر حزبه، وفتوحات المسلمين شرقاً وغرباً وتحطيم عروش كسرى وقيصر ليست بغائبة عن الأذهان.

ونصر ٱلله وتأييده للمؤمنين في معركتهم مع التتار ومع الصليبيين الحاقدين. وغيرها من مئات الحوادث سواء كانت على مستوى الفرد أم الجماعة خير شاهد على ما نقول.

وسيبقى النصر والعون والمدد لأولياء ٱلله إن شاء ٱلله إلى أن يرث ٱلله الأرض ومن عليها وما على المؤمنين إلا الصدق مع ٱلله والإخلاص في العمل ٱبتغاء مرضاته هو وحده، والعمل وفق كتابه وسنّة نبيّه ولن يضيع ٱلله أجر من أحسن عملاً.

الفصل الثالث

عقيدة أهل السنّة والجماعة في الولاء والبراء

لابد أن نذكر معتقد أهل السنّة والجماعة في الولاء والبراء حتى يخرج بذلك أرباب البدع والأهواء التي لا تستند إلى دليل قوي من كتاب ٱلله وسنّة رسوله ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ٱبن تيمية رحمه ٱلله:

(على المؤمن أن يعادي في ٱلله، ويوالي في ٱلله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه - وإن ظلمه - فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية،

قال تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾

[سورة الحجرات: ٩].

(فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي، وأمر بالإصلاح بينهم، فليتدبر المؤمن: أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك وٱعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك. فإن ٱلله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام الثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه.

(وإذا ٱجتمع في الرجل الواحد: خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنّة وبدعة ٱستحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، وٱستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي ٱتفق عليه أهل السنّة والجماعة،

وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم) [٧٠].

ولمّا كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما اسلفنا فيما سبق فإن الناس في نظر أهل السنّة والجماعة - بحسب الحب والبغض والولاء والبراء - ثلاثة أصناف:

الأول: من يحب جملة. وهو من آمن بآلله ورسوله، وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً وآعتقاداً. وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وآنقاد لأوامره وآنتهى عمّا نهى آلله عنه ورسوله، وأحب في آلله ووالى في آلله، وأبغض في آلله وعادى في آلله، وقدم قول رسول آلله ﷺ على قول أحد كائناً من كان[٧١].

الثاني: من يحب من وجه ويبغض من وجه، فهو المسلم الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فيُحب ويُوالى على قدر ما معه من الخير، ويُبغض ويُعادى على قدر ما معه من الشر، ومن لم يتسع قلبه لهذا كان ما يفسد أكثر مما يصلح.. وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد آلله بن حمار[٧٢]. وهو رجل من أصحاب رسول آلله ﷺ - كان يشرب الخمر، فأُتي به إلى رسول آلله ﷺ فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب آلله ورسوله»[٧٣]، مع أنه ﷺ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه[٧٤].

---

(٧٠) انظر «مجموع الفتاوى»: (ج٢٨/٢٠٨ ــ ٢٠٩).

(٧١) «إرشاد الطالب»: لابن سحمان: (ص١٣).

(٧٢) عبد الله بن حمار. هكذا أورده ابن سحمان والموجودة في «صحيح البخاري»: (٧٥/١٢) أنه عبد الله، كان يلقب حماراً. وقال ابن حجر: كان يهدي إلى النبيّ ﷺ ويضحكه في كلامه. انظر «الإصابة»: (ج٤/٢٧٥) تحقيق البجاوي.

(٧٣) «صحيح البخاري»: (ج١٢/٧٥، ح٦٧٨٠) كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة.

(٧٤) «سنن أبي داود»: (ج٤/٨٢، ح٣٧٦٤) كتاب الأشربة، وابن ماجة: =

الثالث: من يبغض جملة، وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله بقضاء الله وقدره، وأنكر البعث بعد الموت، أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك بالله في عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين، وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة كالحب، والدعاء، والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والإنابة، والذل، والخضوع، والخشية، والرغبة، والرهبة، والتعلق، أو ألحد في أسمائه وصفاته، واتبع غير سبيل المؤمنين، وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة، وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها(٧٥).

فأهل السنّة والجماعة - إذن - يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاءً كاملاً، ويحبونه وينصرونه نصرةً كاملةً، ويتبرأون من الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين، ويعادونهم عداوةً وبغضاً كاملين. أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان، ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر.

وأهل السنّة والجماعة يتبرأون ممن حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، قال تعالى:

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

= (ج٢/١٢٢، ح٣٣٨٠) في الأشربة. وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج٥/١٩، ح٤٩٦٧).

(٧٥) «إرشاد الطالب»: (ص١٩).

ويمثلون لنهيه تعالى في قوله:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٣ - ٢٤].

ويلخص الإمام آبن تيمية مذهب أهل السنّة والجماعة فيقول:

(الحمد والذم والحب والبغض والموالاة والمعاداة إنما تكون بالأشياء التي أُنزل آلله بها سلطانه، وسلطانه كتابه، فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أيِّ صنفٍ كان، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أيِّ صنفٍ كان.

قال تعالى:

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ

[سورة المائدة: ٥٥ - ٥٦].

وقال:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ

[سورة المائدة: ٥١].

وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

[سورة التوبة: ٧١].

(ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أُعطي من الموالاة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره، ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي كما يقول الخوارج والمعتزلة.

(ولا يُجعل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة.

قال تعالى:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾

إلى قوله:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

[سورة الحجرات: ٩ – ١٠].

فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغي.

(... ولهذا كان السّلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفّار، فيقبل بعضهم بشاهدة بعض، ويأْخذ بعضهم العلم من بعض، ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك) (٧٦).

الولاء والبراء القلبي :

ومن عقيدة أهل السنّة والجماعة في هذا الموضوع أن الولاء القلبي وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة.

---

(٧٦) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية: (ص١٠٨ ـــ ٢٠١)، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ، مطبعة المنار بمصر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(فأما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفعل الكامل.

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة ٱلله ورسوله، وبغض ٱلله ورسوله وهذا نوع من الهوى، فإن ٱتبعه الإنسان فقد ٱتبع هواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة القصص: ٥٠]) [٧٧].

موقف أهل السنّة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء:

يدخل في معتقد أهل السنّة والجماعة البراءة من أرباب البدع والأهواء.

والبدعة: مأخوذة من الابتداع وهو الاختراع، وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق، ولا مثال ٱحتذي، ولا ألف مثله، ومنه قولهم: ٱبتدع ٱلله الخلق، أي خلقهم ٱبتداء ومنه قوله تعالى:

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

[سورة البقرة: ١١٧].

وقوله:

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ

[سورة الأحقاف: ٩].

أي لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض.

---

(٧٧) «شذرات البلاتين»: (ج١/٣٥٤)، و«الأمر بالمعروف» لابن تيمية.

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب، وفيما تنطق به الألسنة، وفيما تفعله الجوارح[٧٨].

قال ابن الجوزي:

(البدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع. والأغلب في المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة، وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان)[٧٩].

ولقائل أن يقول: ما شأننا الآن وأصحاب البدع لا سيما وأنت تتكلم عن ولاء الكفّار والبراء منهم وموالاة المؤمنين ونصرتهم؟؟

والجواب على ذلك:

أولاً: إن البدعة خطرها عظيم وكبير، والدليل على ذلك أنها تنقسم إلى رتب متفاوتة ما بين الكفر الصريح إلى الكبيرة والصغيرة، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي:

(البدعة تنقسم إلى رتب متفاوتة منها ما هو كفر صراح، كبدعة الجاهلية التي نبه عليها القرآن بقوله:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا

[سورة الأنعام: ١٣٦].

وقوله تعالى:

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ

[سورة الأنعام: ١٣٩].

---

(٧٨) كتاب «الحوادث والبدع»: للطرطوشي: (ص٣٨ ــ ٣٩) تحقيق محمد الطالبي.
(٧٩) «تلبيس إبليس»: (ص٢٦).

وقوله:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾

[سورة المائدة: ١٠٣].

وكذلك بدعة المنافقين حين اتخذوا الدين ذريعة بحفظ النفس والمال وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر صراح) [٨٠].

وقضية التحليل والتحريم خصوصية لله عزَّ وجلَّ، فمن ادعى التحليل والتحريم فقد شرَّع، ومن شرَّع فقد ألَّه نفسه. وكما أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان، قال تعالى:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾

[سورة الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾

[سورة النحل: ١١٦].

فهذه البدعة الكفرية وأمثالها لأصحابها منا العداء والبغض والكره والجهاد بعد الإعذار والإنذار، والبراءة منهم لا تختلف عن البراءة من الكافر الأصلي، فقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٨١].

قال البغوي:

---

(٨٠) «الاعتصام»: (ج٢/٣٧).

(٨١) رواه البخاري: (ج٥/٣٠١، ح٢٦٩٧) في الصلح، ومسلم: (ج٣/١٣٤٣، ح١٧١٨) كتاب الأقضية.

(وقد اتفق علماء السنّة على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم)[82].

ونعود لرتب البدع كما ذكرها الشاطبي فقال:

(ومن البدع ما هو من المعاصي التي ليست بكفر أو يُختلف فيها هل هي كفر أم لا؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة.

ومنها ما هو معصية ويتفق على أنها ليست بكفر، كبدعة التبتل[83]، والصيام قائماً في الشمس، والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع.

ومنها ما هو مكروه كالاجتماع للدعاء عشيَّة عرفة، وذكر السلاطين في خطبة الجمعة، على ما قاله ابن عبد السَّلام الشافعي[84] وما أشبه ذلك[85] .

فأرباب هذه البدع يتبرأ منهم أهل السنّة والجماعة.

ثانياً: لخطورة البدع على الدين أورد هنا نماذج من أقوال سلف الأمة في التحذير من البدع وأصحابها. ومن ذلك ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث يقول:

---

(٨٢) «شرح السنّة»: (ج١/٢٢٧).

(٨٣) التبتل: هو الانقطاع عن الدنيا إلى الله. انظر «مختار الصحاح»: (ص٥٣).

(٨٤) هو سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد، ولد سنة ٥٧٧هـ، وتوفي سنة ٦٦٠هـ، من مؤلفاته «التفسير الكبير»، و«الإلمام في أدلة الأحكام»، و«قواعد الشريعة»، و«قواعد الأحكام» و«الفتاوى». انظر «الأعلام» للزركلي: (ج٤/٢١)، الطبعة الرابعة، وفيه أن له ترجمة في «فوات الوفيات»: (ج١/٢٨٧)، و«طبقات السبكي»: (ج٥/٨٠)، و«النجوم الزاهرة»: (ج٧/٢٠٨)، و«ذيل الروضتين»: (ص٢١٦)، و«مفتاح السعادة»: (ج٢/٢١٢).

(٨٥) «الاعتصام»: (ج٢/٣٧).

«من كان مستنًا فليستن بمن قد مات: أُولئك أُصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأُمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم ٱختارهم ٱلله لصحبة نبيّه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهدى المستقيم»(٨٦).

وقال سفيان الثوري رحمه ٱلله:

(البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها) (٨٧).

وقال الإمام مالك رحمه ٱلله:

(من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول ٱلله ﷺ خان الدين، لأن ٱلله تعالى يقول:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

[سورة المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً) (٨٨).

وذكر الشاطبي رحمه ٱلله أن مفاسد البدع تنحصر في أمرين:

(١) إنها مضادة للشارع، ومراغمة له، حيث نصب المبتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفي بما حد له.

(٢) إن كل بدعة – وإن قلّت – تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للأصل الصحيح، وكل ذلك قد يكون على الانفراد، وقد يكون ملحقاً بما هو مشروع فيكون قادحاً في المشروع، ولو فعل أحد مثل هذا في نفس

---

(٨٦) «شرح السنّة» للبغوي: (ج١/٢١٤).

(٨٧) «شرح السنّة» للبغوي: (ج١/٢١٦).

(٨٨) «الاعتصام»: (ج٢/٥٣).

الشريعة عامداً، لكفر، إذ الزيادة والنقصان فيها أو التغيير - قل أو كثر - كفر[٨٩]. ويعضد هذا النظر عموم الأدلة في ذم البدع ومنها: قوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»[٩٠]. وقوله ﷺ: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[٩١].

وقال أحد علماء السّلف:

(لا تجالسوا أصحاب الأهواء، أو قال أصحاب الخصومات فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون)[٩٢].

فالخلاصة: إنه من معتقد أهل السنّة والجماعة البراء من البدعيين، خاصة أصحاب البدع الكفرية، ولذلك سيرد مزيد من تفصيل هذا في الباب الثاني إن شاء الله.

---

(٨٩) «الاعتصام»: (ج٢/٦١) بتصرف بسيط.

(٩٠) «صحيح مسلم»: (ج٢/٥٩٢، ح٨٦٧) كتاب الجمعة.

(٩١) صحيح مسلم: (٤/٢٠٦٠) ح٢٦٧٤ كتاب العلم.

(٩٢) «شرح السنّة» للبغوي: (ج١/٢٢٧).

الفصل الرابع
أسوة حسنة في الولاء والبراء
من الأمم الماضية

(أ) إبراهيم الخليل عليه السلام:

لقد كان نبي ٱلله إبراهيم عليه السلام: أُسوة حسنة وقدوة طيبة في ولائه لربّه ودينه وعباد ٱلله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداء ٱلله ومنهم أبوه.

لقد كانت سيرة نبي ٱلله إبراهيم عليه السلام مع قومه كأي نبي رسول، حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة ٱلله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والكفر بكل طاغوت يعبد من دون ٱلله.

قال تعالى:

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ

أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

[سورة مريم: ٤١ – ٤٩].

تلك هي نقطة البدء في دعوة خليل الرحمن، دعوة بالحسنى، مبتدئاً بأقرب الناس إليه، فإن لم يكن هناك تجاوب مع هذه الدعوة فالاعتزال لهذا الباطل وأصحابه علّ في ذلك ردعاً وزجراً وتفكراً في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم إذا كان لا بد له من مخالطتهم ومعاشرتهم وعدم تمكنه من الهجرة من أرضهم.

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام، مبيناً أنه آستخدم مع قومه كل حجة ودليل:

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟
نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ

[سورة الشعراء: ٧٠ – ٧٨].

ولما لم يجدوا حجة، وإنما هو التقليد الأعمى لفعل الآباء والأجداد، قال لهم إبراهيم عليه السلام: أنا عدو آلهتكم هذه، وهذا كما قال نوح عليه السلام فيما أخبر آلله عنه

فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟
إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ

[سورة يونس: ٧١].

قال هود عليه السلام:

إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا
مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ

[سورة هود: ٥٤ — ٥٦].

وقال تعالى:

قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ
إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا
وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ

[سورة الممتحنة: ٤].

وعقيدة إبراهيم عليه السلام هذه هي التي عبر عنها علماؤنا الأجلاء علماء سلف هذه الأمة بقولهم: لا موالاة إلا بالمعاداة كما قال العلاّمة ابن القيم رحمه الله:

(لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين، أنه قال لقومه: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلّة إلا بتحقيق هذه المعاداة. فإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراء من كل معبودٍ سواه قال تعالى:

إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ

[سورة الزخرف: ٢٦ — ٢٨].

---

(٩٣) انظر تفسير الآيات السابقة في ابن كثير: (ج٦/١٥٦).

(أي جعل هذه الموالاة لله، والبراءة من كل معبود سواه، كلمة باقية في عَقِبِهِ يتوارثها الأنبياء بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا آلله، وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة) [٩٤].

ويقول الإمام الطبري:

(قد كانت لكم يا أمة محمد أسوة حسنة في فعل إبراهيم والذين معه في هذه الأمور من مباينة الكفار، ومعاداتهم، وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم:

لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ

[سورة الممتحنة: ٤].

(فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك لأن ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدها إيّاه، قبل أن يتبيّن له أنه عدو لله، فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرأ منه، فتبرؤا من أعداء آلله، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بآلله وحده ويتبرؤا من عبادة ما سواه، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء) [٩٥].

وقد كان من نتيجة هذه المعاداة وهذا البراء القوي أن أجمع الطغاة على قتل إبراهيم – كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى آلله، لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة آلله وحده –

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

[سورة البروج: ٨].

وجمعوا له ناراً عظيمة فكانت رعاية آلله وحفظه تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام فصارت النار برداً وسلاماً عليه

---

(٩٤) «الجواب الكافي»: (ص٢١٣)، وانظر «تفسير ابن كثير»: (ج٧/٢١٢)، و«مجموعة التوحيد»: (ص١٣٣).

(٩٥) «تفسير الطبري»: (٢٨/٦٢).

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾

[سورة الصافات: ٩٧ ــ ٩٨].

(لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما آنقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى آستعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب جلَّ جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

[سورة الأنبياء: ٦٨ - ٧٠])[٩٦].

وتأتي التوجيهات الربانية لخاتم الأنبياء محمد ﷺ بآتباع ملة أبيه إبراهيم عليه السلام

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[سورة النحل: ١٢٣].

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[سورة آل عمران: ٩٥].

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

---

(٩٦) «قصص الأنبياء» للحافظ ابن كثير: (ج١/١٨١)، وانظر تفاصيل القصة في نفس المصدر.

﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[سورة البقرة: ١٣٥].

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة آل عمران: ٦٨].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾

[سورة النساء: ١٢٥].

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾

[سورة الحج: ٧٨].

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾

[سورة البقرة: ١٣٠].

فهذه الأخبار من الله لأمة محمد ﷺ عن فعل إبراهيم عليه السلام من أجل الاقتداء به في الإخلاص، والتوكل على الله وحده، وعبادة الله وحده والبراء من الشرك وأهله ومعاداة الباطل وحزبه.

(ب) أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى :

كما سبق أن ذكرنا أن دعوة الأنبياء واحدة. دعوة لعبادة الله وحده وإفراده بالدينونة والتأله والحب والرضى بحكمه وشرعه، والبراءة من كل طاغوت معبود من دون الله سواء بالرغبة أو الرهبة

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾

وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ

[سورة النحل: ٣٦].

فإننا نجد أمثلة مشرقة ونماذج إيمانية رفيعة على طريق العقيدة الغرّاء.

إنهم المؤمنون، أينما وحيثما كانوا وحلوا وفي أي عصر ومصر عاشوا. يوردها ربنا تبارك وتعالى في محكم تنزيله، حتى تكون لنا أسوة حسنة. وتسلية لرسوله الكريم ﷺ عمّا كان يلاقيه هو وصحابته الأخيار.

وما أحوج الداعية المسلم – وهو الحريص على حب الخير لكل الناس – أن يتدبر هذه الأمثلة والنماذج الإيمانية فسيجد فيها العزاء والتسلية فيما يلاقيه من مشقة وعنت. وإذا كانت هذه سنَّة ٱلله في أنبيائه وعباده الصالحين أن يتعرضوا للأذى والعنت – وهم أكرم خلق ٱلله على ٱلله – فمن باب أولى أن يلاقي دعاة الهدى والخير صنوفاً شتى من الأذى والسخرية والاستهزاء والعذاب وسيجدون معيَّة ٱلله تصحبهم وترعاهم وحفظه وقدره يحوطهم. وكل ما يلقونه إنما هو ٱبتلاء وٱختيار كما قال تعالى:

مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ

[سورة آل عمران: ١٧٩].

وحين يثبت المؤمنون على الحق، ويتوكلون على ٱلله حق توكله، ويخافونه وحده، ولا يخافون إلا ٱلله، فسيكون هذا دافعاً عظيماً لدخول الناس في دين ٱلله، والاهتداء بهديه، والاقتداء بهؤلاء الصادقين الذين ضحوا بكل غال ونفيس، وزهدوا فيما عند الناس راغبين ومؤملين فيما عند ٱلله.

ومن هذه الأمثلة التي نريد الحديث عنها بٱختصار، نوح عليه الصلاة والسلام فقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يؤمن معه إلا القليل، والموقف الذي نريد أن نتحدث عنه من مواقفه عليه السلام هو موقفه مع

ٱبنه الذي عصاه وأبى أن يستجيب لدعوة أبيه. قال تعالى:

وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ
أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

[سورة هود: ٤٢ – ٤٧].

(إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة. وليست وشيجة اللون واللغة. ولا الجنس والعنصر، ولا الحرفة والطبقة إنها وشيجة العقيدة.

(أما الوشائج الأخرى فقد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد.

(ويبيّن ٱلله لنوح لماذا لا يكون ٱبنه من أهله؟ ﴿إنه عمل غير صالح﴾ فوشيجة الإيمان قد ٱنقطعت بينكما ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ إنه ليس من أهلك ولو كان هو ٱبنك من صلبك) (٩٧).

---

(٩٧) «في ظلال القرآن»: (ج٤/١٨٨٧).

وهنا يأتي الإذعان الكامل والخوف من ٱلله سبحانه وطلب مرضاته ورحمته فيقول عبده الصالح نوح ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾.

لقد ٱستعلى نبي ٱلله على العاطفة ورضي بحكم ٱلله، فلا لجاجة ولا ٱلتواء، ولا معذرة ولا تأويل، بل تسليم مطلق، وٱتباع لما يحب ٱلله ويرضى، وإعراض عما يكره ويبغض، وولاء لمن يحب ٱلله، وبراء وعداء لمن حادَّ ٱلله ولو كان أقرب قريب.

ولم يكن شأن نبي ٱلله نوح عليه السلام مقصوراً على هذا الابن الكافر، بل أيضاً مع زوجته، ويا له من ٱمتحان عظيم في الزوجة والابن!.

هذه الزوجة تحدث عنها القرآن وعن نظيرة لها وشبيهة بفعلها وهي زوجة لوط عليه السلام، فقد ٱبتُلي هذان النبيّان بزوجتين فاسدتين ذكرهما ٱلله لنا مثلاً في كتابه العزيز فقال:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ

[سورة التحريم: ١٠].

على أن مما يجب التنويه عنه هنا – ٱستطراداً – أن هذه الخيانة في الدين، وليست في الفاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء عليهم السلام.

أما ٱمرأة نوح فكانت تفشي سره، إذا آمن معه أحد أخبرت الجبابرة من قومها، وٱمرأة لوط تخبر قومها بضيوف زوجها من أجل فعل السوء القبيح(٩٨).

---

(٩٨) انظر «تفسير ابن كثير»: ج٨/١٩٨).

وعلى النقيض من هذا الفعل المشين من هاتين المرأتين يضرب لنا القرآن مثلاً عالياً في الإيمان والاستعلاء على الكفار من قبل آمرأة مؤمنة هي زوجة فرعون اللعين قال تعالى:

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[سورة التحريم: ١١].

(إن هذه المرأة لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربِّها بيتاً في الجنة، وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربَّها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به ﴿ونجني من فرعون وعمله﴾، وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾، إنه مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره، فقد كانت آمرأة فرعون، أعظم ملوك الأرض يومئذ!! في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه آمرأة ما تشتهي! لقد آستعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عنه فحسب، بل آعتبرته شرًّا ودنساً وبلاء تستعيذ بآلله منه.

(إنها آمرأة واحدة في مملكة عريضة قوية. وقفت وحدها في وسط ضغط المجتمع وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، ورفعت رأسها للسماء! إنه التجرد الكامل من كل هذه المؤثرات والأواصر) (٩٩).

إن وقوف هذه المرأة أمام ذلك الجبار من الأهمية بمكان، علَّ في ذلك ما يدفع تثبيط الشيطان وحزبه لبعض دعاة الإسلام وهم يخافون أن يمسهم الناس بشيء لم يكتبه آلله عليهم.

ألا فلنأخذ من قرآننا عبرة وعظة، وشحنة عمل، ومنهاج دنيا وآخرة حتى

---

(٩٩) «في ظلال القرآن»: (ج٦/٣٦٢٢) بتصرف.

نقوم بما كلفنا آلله به وشرفنا بالانتساب إليه وهي الدعوة إلى آلله.

يقول قتادة:

(كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده، فوآلله ما ضر آمرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن آلله حكم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه) (١٠٠).

وهناك أيضاً نموذج آخر، وعَلَم من أعلام دعاة صراط آلله المستقيم. إنه مثل رفيع في الولاء لله ودينه وعباده الصالحين في النصرة والجهاد بقدر الطاقة لإعلاء كلمة آلله، والبراءة من الكفار بعد إقامة الحجة والبرهان عليهم، إنه مؤمن آل فرعون.

لننظر في موقفه وفي ولائه حين عزم الطاغية فرعون على قتل رسول آلله موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. لقد قال مؤمن آل فرعون كما حكاه القرآن عنه:

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ

[سورة غافر: ٢٨].

وآسم هذا الرجل حبيب النجار والمشهور أنه كان قبطيًا من آل فرعون. وكان يكتم إيمانه عن قومه القبط، ولم يظهره إلا هذا اليوم حين قال فرعون:

ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ

[سورة غافر: ٢٦].

---

(١٠٠) «تفسير ابن كثير»: (ج١٩٩/٨).

فأخذت الرجل غضبة لله عزَّ وجلَّ و «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»(١٠١).

ولا أعظم من هذه الكلمة وهي قوله أتقتلون رجلاً أن يقول ربي آلله(١٠٢). فآنظر إلى ولاء هذا الرجل المؤمن لنبي آلله موسى ونصرته له، وتدبر براءه من الطاغية حتى وهو يصب عليه العذاب.

وأخيراً نقف مع الفتية الصلحاء ''أصحاب الكهف''، الذين تركوا الأهل والولد، والوطن والعشيرة؛ حين علموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة ومجابهة قومهم، فنجوا بأنفسهم إلى ذلك الكهف، الذي تجلت فيه معجزة عظيمة، يسوقها آلله لنا عبرة وعظة في حفظه لعباده الصالحين.

قال تعالى:

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا

[سورة الكهف: ١٣ – ١٦].

---

(١٠١) أخرجه أبو داود: (ج٤/٥١٤، ح٤٣٤٤) في كتاب الملاحم، والترمذي: (ج٦/٣٣٨، ح٢١٧٥) في كتاب الفتن، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجة: (ج٢/١٣٢٩، ح٤٠١١) في الفتن، و«مسند أحمد»: (ج٣/١٩)، والنسائي: (ج٧/١٦١) في البيعة، وقال الألباني: صحيح. انظر «المشكاة»: (ح٢/١٠٩٤).

(١٠٢) انظر «تفسير ابن كثير»: (ح٧/١٣٠).

لقد كان موقف هؤلاء الفتية صريحاً وواضحاً وحاسماً. وحين تتباين الطريقان ويختلف المنهجان لا يعود هناك سبيل إلى الالتقاء ولا للمشاركة في الحياة. بل لابد من الفرار بالعقيدة.

إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل، إنما هم فتية تبيّن لهم الهدى في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها. وهم أيضاً لا يطيقون مداراة قومهم، وعبادة آلهتهم على سبيل التّقية وإخفاء عبادتهم لله.

على أن الأرجح أن أمرهم قد كُشف، فلابد من الفرار بدينهم إلى الله. وقد فروا إلى كهف خشن ضيق، مؤثرين له على كل زينة من زينة الحياة الدنيا.

إنهم يستروحون رحمة الله ويحسونها ظليلة فسيحة ممتدة ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته﴾، ولفظه ﴿ينشر﴾ تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب، تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها.

إنه الإيمان! وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟

إن هنالك عالماً آخر في جنبات القلب المعمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن عالماً تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان(١٠٣).

وهكذا تتعد الأمثال في جميع الوشائج والروابط، وشيجة الأبوة في قصة نوح، ووشيجة البنوة والوطن في قصة إبراهيم، ووشيجة الأهل والعشيرة والوطن جميعاً في قصة أصحاب الكهف، ورابطة الزوجية في قصص آمرأتي نوح ولوط وآمرأة فرعون.

هكذا يمضي الموكب الكريم حتى تجيء الأمة الوسط، فتجد هذا الرصيد

---

(١٠٣) «الظلال»: (ج٤/٢٢٦٢) بتصرف بسيط.

من الأمثال والنماذج والتجارب، فتمضي على النهج الربّاني للأمة المؤمنة وتفترق العشيرة الواحدة والبيت الواحد حيث تفترق العقيدة.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

لقد جمعت هذه العقيدة صهيباً الرومي وبلالاً الحبشي، وسلمان الفارسي وأبا بكر العربي القرشي تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتوارت عصبية القبيلة والجنس والأرض وقال لهم ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»(١٠٤). وقال: «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»(١٠٥) فانتهى أمر هذا النتن، وماتت نعرة الجنس، واختفت لوثة القوم، واستروح البشر أرج الآفاق العليا، ومنذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض وإنما وطنه هو ''دار الإسلام''، تلك الدار التي تسيطر عليها عقيدة، وتحكم فيها شريعة الله وحدها(١٠٦).

وتبقى سيرة المصطفى ﷺ وسيرة صحابته الأخيار منار هدى وإصلاح لمن سلك ذلك السبيل، ورضي بذلك النهج القويم.

أما من حاد عن ذلك وابتعد فالله ليس بوليه، وإنما وليه ''الطاغوت''

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٧].

---

(١٠٤) «صحيح البخاري»: (ج٨/٦٤٨، ح٤٠٩٥) كتاب التفسير، و«صحيح مسلم»: (ج٤/١٩٩٩، ح٢٥٨٤) كتاب البر والصلة.

(١٠٥) «صحيح مسلم»: (ح٣/١٤٧٦، ح١٨٤٨، وح١٨٥٠) كتاب الإمارة، وأبو داود: (ج٥/٣٤٢، ح٥١٢١) كتاب الأدب.

(١٠٦) انظر «معالم في الطريق»: (ص٢٤٣).

الفصل الخامس

الولاء والبراء في العهد المكّي

كان الحديث في الفصل السابق عن أمثلة مشرقة، وصور مضيئة من ولاء وبراء الأنبياء والرسل، والصالحين عبر تاريخ البشرية الطويل.

ونتحدث هنا عن الولاء والبراء من خلال سيرة نبينا محمد ﷺ، مستمدين ذلك من الوحيين كتاب ٱلله وسنّة رسوله ﷺ وكتب السير والمغازي.

وقد آعتمدنا في تقسيم الآيات إلى مكّي ومدني، على ما ذكره العلماء في كتب التفسير وعلوم القرآن من أن المكّي – على الأشهر – هو ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها[١٠٧].

وسبق أن قلنا في ٱلتمهيد: أن المسلم منذ أن يعلن شهادة "لا إلٰه إلا ٱلله محمد رسول ٱلله" فإن ذلك يعني إفراد ٱلله سبحانه وتعالى بالوحدانية والألوهية والربوبية، وخلع كل ولاء وعبودية وطاعة وخضوع وخوف ورجاء لأي معبود أو متبوع أو مطاع من دون ٱلله. وقصر هذا الولاء والحب والتعظيم لله سبحانه وتعالى.

وقد نزل ٱلوحي الإلٰهي أول ما نزل على المصطفى ﷺ في غار حراء بقوله سبحانه:

---

(١٠٧) انظر «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي: (ج١/٣٧) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

[سورة العلق: ١ – ٥].

ثم بعد ذلك قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾

[سورة المدثر: ١ – ٢].

وبدأ المصطفى ﷺ يدعو الناس سرًّا إلى الإسلام، وأسلم معه نفر قليل، منهم أبو بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب، وخديجة بنت خويلد زوجته رضي ٱلله عنهم جميعاً. وبدأ رسول ٱلله ﷺ يغرس في نفوس أصحابه محبة ٱلله ومحبة رسوله، والاجتماع على ذلك، وإخلاص الحب والولاء والنصرة للمؤمنين، وبُغض الكفر والشرك وأهله، وهذا هو لازم كلمة التوحيد ''لا إله إلا ٱلله محمد رسول ٱلله''.

وهنا نشأت الوشيجة الجديدة، وشيجة العقيدة في نفوس المؤمنين، وبدأ يقر في نفوسهم أن هذه هي الرابطة الحقيقية، هي الرابطة التي تطمئن لها نفس المؤمن، ومع نمو هذه الغرسة الجديدة؛ بدأت تذبل شجرة العصبية الجاهلية، والروابط الجاهلية، وبدأت نظرة الريب والاحتقار لتلك الروابط تكبر يوماً فيوماً في نفس كل من آمن بٱلله ورسوله.

الملتقى الأول
وأولى خطوات الطريق

آختار المصطفى ﷺ دار الأرقم لتلقين من آمن معه أمور هذا الدين. ولقد كانت هذه الدار هي الملتقى الأول لأولئك القادة العظام، كانت هي الدار التي بدأ يشع منها ذكر ٱلله وتوحيده في الأرض.

ترى ما هو حال المسلمين آنذاك؟ وماذا بعد النطق بالشهادتين؟

يجيب على ذلك الأستاذ سيد قطب رحمه ٱلله فيقول:

(إنه لم يكن للإسلام والمسلمين في مكة شريعة ولا دولة، ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية، ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة. وكان الرجل حين يدخل الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية، ويبدأ عهداً جديداً، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. إنه يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف.

(لقد كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، ونشأت عن هذه العزلة، عزلة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية أيضاً.

(إنه قد آنفصل نهائياً من بيئة الجاهلية، وآتصل نهائياً ببيئته الإسلامية، حتى لو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي.

فالعزلة الشعورية شيء، والتعامل اليومي شيء آخر.

(وحين آنخلع المسلم من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور

الجاهلية إلى تصور الإسلام، فإنه أيضاً كان ينسلخ من القيادة الجاهلية، وينزع ولاءه من الأسرة والعشيرة والقبيلة، ويترجم ذلك إلى واقع وحقيقة يقوم عليها الإسلام. وهذا هو الذي أزعج ''الملأ'' من قريش!

(أزعجهم زحف الإسلام، وأزعجهم القرآن، ولم يزعجهم من قبل أن ''الحنفاء'' اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم، واعتقدوا بألوهية الله وحده، وقدموا له الشعائر وحده فهذا لا يهم الطاغوت، كما يفهم بعض الداعين الخيرين اليوم الذين لا يدركون ولا يعرفون حقيقة الإسلام.

(إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين، ثم الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه. والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع، ولذلك قاوم ''الملأ'' من قريش هذه الدعوة بشتى الأساليب) (١٠٨)، والتقى المؤمنون على حب الله ورسوله، فكان لقاءً عميقاً لأن كلاً منهم جاء إلى الله ورسوله يتلقى منه، ويهتدي بهديه، ويتوجه إليه، وأحس كل منهم نحو أخيه برباط من نوع جديد، يربطه بأخوته في الله، إنه يحبه كنفسه مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آصرة دم(١٠٩).

وأخذ القرآن الكريم ينزل حسب النوازل والحوادث على ما يشاء الله سبحانه وتعالى لتربية الأمة على أسس العقيدة، فكان الولاء والبراء يزيد كلما ازدادت التكاليف. وكان من الطرق التي سلكها القرآن في عرض هذه العقيدة ضرب المثل، لأنه كما يقال: بالمثال يتضح المقال. ومعلوم أن كلام الله واضح ولكن سياق المثل يستثير في الإنسان نوعاً من التفكر وتدبر العبرة والعظة لتغيير المسار الخاطىء والاتجاه في الطريق الصحيح.

---

(١٠٨) «في ظلال القرآن»: (ج٣/١٥٠٣)، و«معالم في الطريق»: (ص١٧، ٥٠).
(١٠٩) انظر «منهج التربية الإسلامية» للأستاذ محمد قطب: (ج٢/٣٨ ــ ٤٠).

ومن هذه الأمثلة في موضوعنا قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

[سورة العنكبوت: ٤١].

وبتقرير هذه الحقيقة الضخمة في النفوس؛ كان المؤمنون أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقهم، وداسوا بها على كبرياء الجبابرة في الأرض، ودكوا بها المعاقل والحصون.. إن قوة آلله وحدها هي القوة، وولاية آلله وحدها هي الولاية وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل، مهما علا وآستطال، ومهما تجبر وطغى ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل(١١٠).

ومكث المصطفى ﷺ في دعوته للناس بالسر ثلاث سنوات، كما قال ذلك علماء السير والمغازي(١١١).

وبعد أن فشا ذكر الإسلام في مكّة، وتحدث الناس به أمر آلله عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادىء الناس بأمره، وأن يدعو إليه ونزل قوله تعالى:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

[سورة الحجر: ٩٤].

وقال آلله له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة الشعراء: ٢١٤ - ٢١٥].

---

(١١٠) انظر «في ظلال القرآن»: (ج٥/٢٧٣٧).

(١١١) انظر «السيرة النبويّة» لابن هشام: (ج١/٢٨٠).

(١١٢) المصدر السابق: (ج١/٢٨٠).

وهنا بدأ الابتلاء للمسلمين، وهذا الابتلاء الذي ظاهره الشدة هو في حقيقته نعمة، لأنه يتضح من خلاله: الصادق من الكاذب، والخبيث من الطيب. قال تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

[سورة العنكبوت: ١ – ٣].

وحدث لأصحاب رسول ٱلله ﷺ من الابتلاء والشدة الشيء الكثير، حتى إنهم كانوا يذهبون للشعاب يستخفون بصلاتهم عن قومهم(١١٣).

صدق التحمل

ماذا فعل المؤمنون تجاه العذاب الذي صبه عليهم أعداء ٱلله؟ ما الذي حصل من ما فعل بهم عامة، وما فعل ببلال وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين خاصة؟

إنه الصبر على الأذى والهجر الجميل. قال تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾

[سورة المزمل: ١٠ – ١١].

وصبر المصطفى ﷺ وكانت تربيته الربَّانية كفيلة بتطهير نفوس المؤمنين معه، فكانوا كل يوم يزداودن من سمو الروح ونقاء القلب ونظافة الخلق والتحرر من سلطان الماديات والشهوات شيئاً كثيراً.

---

(١١٣) المصدر السابق: (ج١/٢٨٢).

(كان ﷺ يأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل، وقهر النفس مع أنهم قوم قد رضعوا حب الحرب، وكأنهم ولدوا مع السيف، وهم أمة من أيامها حرب البسوس وداحس والغبراء. وما يوم الفجار ببعيد!!

ولكن رسول الله ﷺ قهر طبيعتهم الحربية، وكبح نخوتهم العربية فانقهروا لأمره، وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس، في غير جبن وفي غير عجز)[114]. هذا بالنسبة لموقف المسلمين من أعدائهم.

أما ولاؤهم فيما بينهم، فنقول: إن المصطفى ﷺ قد حرص على غرس ركيزتين أساسيتين في نفوسهم هما:

(١) الإيمان بالله، ذلك الإيمان المنبثق من معرفته سبحانه، وتمثل صفاته في الضمائر، وتقواه، ومراقبته، مع اليقظة والحساسية التي بلغت في نفوسهم حدًّا غير معهود إلا في النادر من الأحوال.

(٢) الحب الفياض، والتكافل الجاد العميق، حيث بلغت فيه الجماعة المسلمة مبلغاً لولا أنه وقع بالفعل لعد من أحلام الحالمين[115].

إن نقطة الحب في الله التي التقى عليها هؤلاء المؤمنون، كانت أيضاً لقاء على ما يتبع هذه الدعوة من جهد أو غرم، وما يستتبع ذلك من ألم أو سرور وجعل العاطفة الإنسانية تحب وتبغض تبعاً لما يصيب الإسلام من خير أو شر[116].

ولكي يكون لهذا الكلام ما يدعمه من الدليل، وحتى نعلم ما هي نتائج تربية ''دار الأرقم'' أذكر موقفاً واحداً لصدِّيق هذه الأمة، أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

---

(١١٤) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لابي الحسن الندوي: (ص٩٧) بتصرف.

(١١٥) انظر «طريق الدعوة في ظلال القرآن»: (ج١/١٨٨).

(١١٦) انظر «هذا ديننا» للشيخ محمد الغزالي: (ص١٧٨).

وُطىء أبو بكر رضي ٱلله عنه في مكّة يوماً بعد ما أسلم، وضُرب ضرباً شديداً، ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين، ويحرفهما لوجهه، ثم نزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول ٱلله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمّه أم الخير: ٱنظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إيّاه، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول ٱلله ﷺ؟ فقالت: وٱلله ما لي علم بصاحبك فقال: ٱذهبي إلى أمّ جميل بنت الخطاب فٱسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد ٱلله قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد ٱلله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ٱبنك ذهبت قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أمّ جميل وأعلنت بالصياح وقالت: وٱلله إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم ٱلله لك منهم، قال: فما فعل رسول ٱلله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع!! قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت: في دار ٱبن الأرقم، قال: فإن لله عليّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول ٱلله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول ٱلله(117).

يا لله! رجل مضروب، مثخن بالجراح لا يتناول حتى شربة الماء وهو أشد ما يكون حاجة إليها حتى يرى رسول الله ﷺ؟!

حقًا إنها تربية دونها كل تربية. وحقًا نقول إن ذلك الجيل الذي ربّاه المصطفى ﷺ جيل فريد على غير مثال سابق ولا لاحق.

---

(117) «البداية والنهاية» لابن كثير: (ج٣/٣٠)، وانظر «ماذا خسر العالم» للندوي: (ص١١٣).

سمات العلاقة بين
المسلمين وأعدائهم في العهد المكّي

إن المرحلة المكّية كانت تقتضي أن تكون العلاقة بين المسلمين والمشركين علاقة غير قتالية، علاقة بيان للحق، وصبر على الأذى فيه، وآحتساب لكل ما عرفته رباع مكّة ورمضاؤها والطائف وفجاجها من أذى للمصطفى ﷺ وعذاب وآضطهاد لبلال وعمار وخباب وآل ياسر وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

ذلك أن ظروف تلك المرحلة كانت تقتضي آتخاذ الأساليب السلمية، وعرض الحقائق الإيمانية عرضاً مؤثراً، عله يكون في هذا وفيما أبداه المؤمنون الصابرون من تحمل وصبر، ما يرجع لأهل اللب صوابهم، وما أجدر ذلك بآستجابة القوم لولا آتباع الهوى وسلطان المصالح الزائلة من زعامة ووجاهة ومكاسب مادية، وما إلى ذلك[118].

والتربية النبوية في هذا العهد ذات شأن عظيم ذلك أنها كانت تربية تقوم على ضبط النفس، والصبر على الأذى، وإعداد العدة مع حبس دواعي الانطلاق، وكف حدة الإقدام، وآحتمال جهل الجاهلين وبغي الطاغين. وكل ذلك من غير ذل ولا آستخذاء، ولا يأس ولا وهن، بل إن عيونهم قريرة وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ونفوسهم مستعلية على شرك المشركين وضلالهم وفتنتهم[119].

---

(١١٨) انظر «علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى» للأستاذ أحمد محمود أحمد: (ص٨ — ٩).

(١١٩) «سبيل الدعوة الإسلامية» للدكتور محمد أمين المصري: (ص١١١ ، ١١٣) بتصرف.

ومن المهم في هذا الموضوع أن نلاحظ الحكمة الربّانية في عدم فرضية القتال في مكّة، فإنه إنما شرع في العهد المدني، أما حين كان المسلمون في مكّة فقد كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي - يعنون أهل منى - ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر بهذا»[120].

ونحن حين نلتمس الحكمة في هذه الحالة وفي غيرها من التكاليف الشرعية - كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله - لا نجزم بما نتوصل إليه، لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبيّن لنا من حكمة. ونفرض أسباباً وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك أن شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم من أحكام الشريعة هو التسليم المطلق لأن الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنما نقول هذه الحكمة والأسباب من باب الاجتهاد وعلى أنه مجرد احتمال لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح[121].

وهذه الأسباب والعلل ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابيه القيمين: «في ظلال القرآن» عند تفسير سورة النساء، وفي «معالم الطريق»[122].

---

(١٢٠) «تفسير ابن كثير»: (ج٥/٤٣١)، والحديث في «مسند أحمد»: (ج٣/٤٦٢)، في سنده معبد بن كعب بن مالك، قال عنه ابن حجر في «التقريب»: مقبول. وذكر في «التهذيب» أن له حديثاً واحداً في «صحيح البخاري»، وأخرج له مسلم. ووثقه ابن حبّان.

(١٢١) انظر «الظلال»: (ج٢/٧١٤).

(١٢٢) «الظلال»: (ج٢/٧١٤ ــ ٧١٥)، وفي «المعالم»: (ص٦٩ ــ ٧١).

وسأوجزها فيما يلي:

(١) إن الكف عن القتال في مكّة ربما كان لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع عليه أو على من يلوذون به: ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يهتاج لأول مهيج ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته. ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد والتقيد بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء ''المجتمع المسلم''.

(٢) وربما كان ذلك أيضاً لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد ونشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، وحينئذ يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها فكرته الأساسية.

(٣) وربما كان ذلك أيضاً آجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد. ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمداً يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟

(٤) وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟

(٥) وربما كان ذلك أيضاً لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة - فابن الدغنة[١٢٣] لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته.. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

(٦) وربما كان ذلك أيضاً لقلة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وآخرة.

(٧) إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملّحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع الأذى، لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائماً ومحققاً وهو ''وجود الدعوة'' ووجودها في شخص الداعية

---

(١٢٣) ابن الدغنة رجل جاهلي أجار أبي بكر عندما أخرجه قومه وأراد الهجرة للحبشة. انظر «الإصابة»: (ج٢/٣٤٤).

محمد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع. ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله، بل إنهم حين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن سب دين آبائهم وأجدادهم لم يسكت، وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا، أن يجاملهم فيجاملوه، بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا بعض عبادته لم يدهن.

إن هذه الاعتبارات كلها - فيما نحسب - كانت بعض ما اقتضت حكمة الله - معه - أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لتتم تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ.. لتكون خالصة لله، وفي سبيل الله. انتهى ملخصاً من «الظلال».

والناظر في الفترة المكّية والتي كانت ثلاثة عشر عاماً كلها تربية وإعداد وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن في عدم الاستعجال واستباق الزمن، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب. وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ﷺ لأصحابه على هذه العقيدة وقفة طويلة، فيأخذوا منها العبرة والأسوة، لأنه لا يقف في وجه الجاهلية - أيًا كانت قديمة أم حديثة أم مستقبلة - إلا رجال اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربّانية، وعمقت جذور شجرة لا إله إلا الله في نفوسهم، فيصدق عليهم حينئذ أنهم:

رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ

[سورة الأحزاب: ٢٣].

لا تهمهم قوة عدو، ولا تنقصهم عزيمة باسل لأن الله هو وليهم وناصرهم،

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

[سورة الحج: ٤٠].

قال ابن إسحاق:

(لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ثم من عمه أبي طالب، وإنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام [١٢٤].

ثم إن لطف الله ورحمته غمرت المؤمنين المستضعفين وذلك بإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أعز الله به الإسلام، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلّى عند الكعبة وصلينا معه»[١٢٥]. إنها نعمة كبرى تجلت في إسلام عمر، الذي منح ولاءه ونصرته المسلمين، وصير بغضه وعداوته وبراءه للكافرين، كيف لا وهو الذي اشتبك مع القوم بعد إسلامه ثم قال: «افعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن قد كنا ثلاث مئة رجل لقد تركناها - أي مكّة - لكم أو تركتموها لنا»[١٢٦].

وسمع المؤمنون بإسلام عمر رضي الله عنه وهم في الحبشة ففرحوا

---

(١٢٤) «السيرة» لابن هشام: (ج١/٣٤٤).

(١٢٥) «السيرة» لابن هشام: (ج١/٣٦٧)، وفي «صحيح البخاري»: (ج٦/٤١، ح٣٦٨٤) مناقب عمر، عن ابن مسعود رضي الله عنه: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر».

(١٢٦) «السيرة» لابن هشام: (ج١/٣٧٤).

بذلك ورجع منهم من رجع إلى مكّة، ولكن قريشاً صبت عليهم ألواناً من العذاب والاضطهاد فلم يزدهم ذلك إلا صلابة في العود وثباتاً على الحق وأملاً في فرج من الله قريب.

ثم تعرض رسول الله ﷺ ومن معه لدرس آخر من دروس الابتلاء التي هي من سنن الدعوة إلى الله: ذلك الدرس هو موت أبي طالب عم رسول الله الذي كان مناصراً له وحامياً. وموت زوجة رسول الله خديجة رضي الله عنها أول امرأة أسلمت، وكانت مثالاً للمرأة المسلمة الصالحة، وهنا يطمع أعداء الله في رسول الله ﷺ، ولكن الله أكبر من كل شيء ثم رأى المصطفى ﷺ أن يتجه إلى غير قريش عسى أن يجد مجيباً وناصراً فخرج إلى الطائف، ولكن ثقيفاً خيبت أمله وآذته وسخرت منهم، فاتجه إلى ربّه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، إن يحل عليّ غضبك أو إن ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»[127]. ثم رجع إلى مكّة.

وعلى الدعاة أن يقفوا طويلاً عند قول المصطفى ﷺ: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي» فإن همَّ الداعية المسلم هو رضاء الله وكفى. ثم بعد ذلك ليكن ما يكون من أمر الناس فإن ذلك ليس له كبير حسبان طالما أن الغاية هي رضاء الله.

---

(١٢٧) «السيرة» لابن هشام: (ج٢/٦٠)، والحديث أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (ج٦/٣٥) ونسبه للطبراني وقال: (فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجال ثقات) وحكم عليه الألباني في «تخريج فقه السيرة» للغزالي: (ص١٣٢) بالضعف. ولكن ألفاظ الحديث ينقدح منها «نور مشكاة النبوة».

بِرُ الأقارب المشركين

ومن خلال تتبع القرآن المكّي نجد أنه رغم قطع الولاء سواء في الحب أو النصرة بين المسلم وأقاربه الكفار فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم والإحسان إليهم ومع ذلك فلا ولاء بينهم.

قال تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[سورة العنكبوت: ٨].

قال البغوي: إن هذه الآية وآية ١٥ من سورة لقمان وهي قوله تعالى:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه حمنة بنت أبي سفيان، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام، وكان بارًا بأمه.

قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت فتعير بذلك أبد الدهر، يقال: يا قاتل أمه. ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل، فأصبحت قد جهدت ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أماه: لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني، فكلي

وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر بوالديه، والإحسان إليهما، وعدم طاعتهما في الشرك لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[128].

لذلك فالولاء لله ودينه والمؤمنين شيء لا طاعة لمخلوق في مخالفته، وبر القريب المشرك شيء. قد يكون من باب تأليفه وترغيبه في الإسلام.

---

(١٢٨) «تفسير البغوي»: (ج٥/١٨٨)، وانظر «أسباب النزول» للواحدي: (ص١٩٥)، فقد ذكر نحو هذا والحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» حديث صحيح انظر «مشكاة المصابيح»: (ج٢/١٠٩٢، ح٣٦٩٦).

كيف كانت صورة
البراء في العهد المكي؟

(١) إن المسلم من حين أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وهو يحس بأنه قد دخل في دين جديد غير دين آبائه وأجداده، إنه (يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام. وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام الجديد.. ويمكننا أن نسمي هذا بـ ''العزلة الشعورية'' فالمسلم قد آنخلع من البيئة الجاهلية، وعرفها وتصورها وعاداتها وروابطها. وآنحلع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود، وآنضم إلى التجمع الإسلامي الجديد بقيادته الجديدة. ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وطاعته وحبه وتبعيته) (١٢٩).

(٢) بعد ذلك جاء الأمر بالإعراض عن الكفار:

فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ

[سورة النجم: ٢٩ - ٣٠].

(٣) وجاء الأمر أيضاً بالصبر والهجر الجميل قال تعالى:

---

(١٢٩) «معالم في الطريق»: (ص١٦ ـ ١٧) بتصرف بسيط.

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا

[سورة المزمل: ١٠].

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ

[سورة الروم: ٦٠].

ثم يُذكّر الله سبحانه المؤمنين بفعل أبيهم إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ليأخذوا منه أسوة وقدوة فيقول سبحانه:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ
إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

(٤) وإلى جانب هذا التذكير الربّاني، يضرب أيضاً المثل المحسوس والملموس في حياة الناس لمن يوزع ولاءه بين أربابٍ متفرقة، ومن يكون ولاؤه لربٍّ واحد، واتجاهٍ واحد.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة الزمر: ٢٩].

فقد وضح الله في هذا المثال القرآني حال المشرك الذي لا يؤمن بالله ولا يكون ولاؤه وحبه لله وفي الله بحال العبد الذي تملكه جماعة مشتركين في خدمته لهم لا يمكنه إرضاؤهم أجمعين، وحال الموحد الذي يعبد الله وحده ويوالي في الله وحده، مثله كمثل عبد لمالك واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم

لمالكه من غير منازع فيه، مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليته بمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ لا. إنهما لا يستويات ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾(١٣٠).

وعلى طريقة القرآن في اهتمامه بقضية اليوم الآخر لما لها من أثر عظيم في قضية الإيمان: نجد القرآن الكريم يسوق مشهداً من مشاهد يوم القيامة لمن يكون ولاؤه لغير الله، وكيف انقلب هذا الولاء إلى عداء وبغضاء. ثم كيف أصبحت الخلة عداوة وشحناء.

قال تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ

[سورة فصلت: ٢٩].

وقال:

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ

[سورة الزخرف: ٦٧].

وقال:

وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا

[سورة الفرقان: ٢٧ — ٢٩].

(٥) ثم جاء التصريح الكامل لأعداء الله بأن دينكم باطل لا ندخل فيه، وديننا

---

(١٣٠) «أمثال القرآن» لابن القيم: (ص٥٣) بتصرف بسيط، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ، تحقيق الدكتور ناصر الرشيد، الناشر: دار مكة.

هو الحق الذي ندين الله به، فلا نعبد ما تعبدون، ولا انتم عابدون ما نعبد.

لكم دينكم ولي دين

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين وآستعلاءهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم ورعونتهم الحمقاء.

فقد دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة فأنزل الله سورة الكافرون:

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

[سورة الكافرون: ١ - ٦][١٣١]

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر وأهله مثل قوله تعالى:

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة يونس: ٤١].

وقوله تعالى:

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ

---

(١٣١) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج٨/٥٢٧).

أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ

[سورة الأنعام: ٥٦ – ٥٧].

وقوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

[سورة يونس: ١٠٤ – ١٠٥].

بهذه النصاعة وهذا الوضوح جاءت هذه الآيات الكريمات لترسم معالم الطريق بين الصف الإسلام والصف الكافر المشرك الذي لا يؤمن بالله ورسوله. ومع هذا الوضوح القرآني نجد أن بعض المنتسبين للعلم قد فهم من هذه الآيات – وخاصة سُورة الكافرون – إنها إقرار من رسول الله ﷺ للكفار على دينهم الباطل وهذا زعم باطل. مخالف لحقيقة الإسلام، ودعوة رسول الإسلام. ومضاد لدعوة الرسل جميعاً.

يقول العلاّمة آبن القيم رحمه الله:

(إن هذه السورة – سورة الكافرون – تشتمل على النفي المحض وهذه خاصية هذه السورة، فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها [١٣٢]

---

(١٣٢) «سنن أبي داود»: (ج٥/٣٠٣، ح٥٠٥٥) في الأدب، والترمذي: (ج٩/١١٠، ح٣٤٠٠) في الدعوات، و«مسند الإمام أحمد»: (ج٥/٤٥٦)، والدارمي: (ج٢/٤٥٨) في فضائل القرآن، وقال الألباني: حديث حسن. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج١/١٤٠، ح٢٨٩).

(ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة. مع تضمنها للإثبات بأن له معبوداً يعبده وأنتم بريئون من عبادته، وهذا يطابق قول إمام الحنفاء ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧] فأنتظمت حقيقة لا إله إلا الله.

(ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة الإخلاص في سُنَّة الفجر[١٣٣] وسُنَّة المغرب[١٣٤] وحين أخبر الله أن لهم دينهم وله دينه: هل هو إقرار فيكون منسوخاً أو مخصوصاً؟ أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص؟

(هذه مسألة شريفة من أهم المسائل، وقد غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية آقتضت التقرير لهم على دينهم! وظن آخرون: أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب!

وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي آتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.

(وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى أيضاً سورة الإخلاص. ومنشأ الغلط: ظنهم أن الآية آقتضت إقرارهم على دينهم. ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا: منسوخة!!

وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم فقالوا هذا مخصوص! ومعاذ الله أن تكون الآية آقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً. بل لم يزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه

---

(١٣٣) «صحيح مسلم» بشرح النووي: (ج٦/٥)، و«المسند»: (ج٤/٢٢٥) بطبع الساعاتي.

(١٣٤) «مشكاة المصابيح»: (ج١/٢٦٨)، وانظر «بدائع الفوائد»: (ج١/١٣٨).

أشد على الإنكار عليهم، وعيب دينهم وتقبيحه، والنهي عنه، والتهديد والتوعيد في كل وقت وفي كل ناد. فكيف يقال إن الآية، اقتضت تقريراً لهم؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل.

وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً، فإنه دين باطل فهو مختص بكم لا نشرككم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق.

فهذه غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يُدعىَ النسخ أو التخصيص؟!

أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال: لكم دينكم ولي دين؟

بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده. وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول ﷺ أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سنته إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته لكم دينكم ولنا ديننا لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منها. وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان(١٣٥).

وزاد هذا الأمر إيضاحاً وبياناً: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال:

(قوله تعالى ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ اللام في لغة العرب يدل على الاختصاص فأنتم مختصون بدينكم لا أشرككم فيه، وأنا مختص بديني لا تشركونني فيه كما قال تعالى:

---

(١٣٥) «بدائع الفوائد»: (ج١/١٣٨ ــ ١٤١) بتصرف بسيط.

﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

[سورة يونس: ٤١].

وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين، ولا أهل الكتاب، كما يظنه بعض الملحدين، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين، وجعلوها منسوخة. بل فيها براءته من دينهم، وبراءتهم من دينه، وأنه لا تضره أعمالهم، ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم. وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ، ولم يرض الرسول بدين المشركين، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط.

ومن زعم أنه رضي الله بدين الكفار، واحتج بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

[سورة الكافرون: ١ - ٦].

فظن هذا الملحد أن قوله ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ معناه أنه رضي بدين الكفار، ثم قال هذه الآية منسوخة فيكون قد رضي بدين الكفار، فهذا من أبين الكذاب والافتراء على محمد ﷺ، فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه. ونظير هذه الآية قوله تعالى:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

[سورة يونس: ٤١].

وقوله تعالى:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾

[سورة الشورى: ١٥].

وإذا كان آلله سبحانه قد قال:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

[سورة الشعراء: ٢١٥ – ٢١٦].

فبرأه من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة؟) (١٣٦).

ورحم آلله عبد آلله بن عباس حين قال في شأن هذه السورة «ليس في القرآن أشد غيظاً لإبليس منها، لأنها توحيد وبراءة من الشرك»(١٣٧) وقال الأصمعي: كان يقال لـ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو آلله أحد﴾ المقشقشتان. أي أنهما تبرئان من النفاق(١٣٨).

فرج من الله قريب

قال آبن إسحاق: «فلما أراد آلله عزَّ وجلَّ إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز موعده له، خرج رسول آلله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد آلله بهم خيراً، فقال لهم

---

(١٣٦) «الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح» لابن تيمية: (ج٢/٣٠ ـــ ٣٢).
(١٣٧) «تفسير القرطبي»: (٢٠/٢٢٥).
(١٣٨) «تفسير القرطبي»: (٢٠/٢٢٥).

ﷺ من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى فجلسوا معه، فدعاهم إلى آلله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.. فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا وآلله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم آلله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم آلله عليه فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول آلله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول آلله ﷺ»(١٣٩).

أجل: بعد كل ذلك العناء وتلك المصابرة هيأ آلله اللطيف الخبير من ينصر هذا الدين ويعلي كلمته، ويشره في الأرض بعد أن آوى رسول آلله وأصحابه الأوائل. إنه لشرف دونه كل شرف أن يُسمّوا ''الأنصار'' أنصار آلله، أنصار نبيه، أنصار دينه، أنصار عباده المؤمنين، وليسوا أنصار الجاهلية وطواغيتها وجبابرتها الذين هم في أعين الناس كبار وهم في حقيقة الأمر صغار وأقزام!!

ولما كان العام المقبل وصل إلى مكّة من الأنصار آثنا عشر رجلاً، فلقوا رسول آلله ﷺ بالعقبة الأولى فبايعوه، وكانت البيعة على الإسلام وأرسل معهم رسول آلله ﷺ مصعب بن عمير(١٤٠) رضي آلله عنه يقرئهم القرآن،

---

(١٣٩) «السيرة» لابن هشام: (ج٢/٧٠ ــ ٧١).

(١٤٠) هو مصعب بن عمير بن هشام نشأ في بيت ثري، مدللاً غاية الدلال، كان يُعرف بأنه أعطر أهل مكّة ثم أسلم فانقلبت تلك النعومة إلى خشونة ورجولة كان من السابقين للإسلام ومن المهاجرين للحبشة في الهجرة الأولى، ثم هاجر للمدينة، وشهد بدراً وحمل اللواء في أحد فاستشهد، وفي الصحيح أن مصعباً =

ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ويؤمهم في الصلاة[141]

وقد مصعب رضي ٱلله عنه ومعه وفد كريم من الأنصار في موسم الحج فكانت بيعة العقبة الكبرى حيث تساءلوا وهم خارجون من المدينة: حتى متى نترك رسول ٱلله يطوف ويطرد في جبال مكّة ويخاف؟

لقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب الفتية، وآن لها أن تنفس عن حماسها، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية[142].

صيغة البيعة

تكلم رسول ٱلله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى ٱلله، ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور[143] بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبيًّا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا[144] فبايعنا يا رسول ٱلله فنحن وٱلله أبناء الحروب، وأهل الحلقة[145]، ورثناها كابراً عن كابر. فٱعترض أبو الهيثم بن التيهان[146]

= لم يترك إلا ثوباً فكان إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا رجليه خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ: «اجعلوا على رجليه شيئاً من الأذخر»، انظر «صحيح البخاري»: (ج٣/١٤٢، ح١٢٧٦) كتاب الجنائز، و«الاستيعاب» لابن عبد البر: (ج٣/٤٦٨)، و«الإصابة»: لابن حجر: (ج٣/٤٢١)، و«مصعب بن عمير» للأستاذ محمد بريغش وغير ذلك من كتب السير.

(١٤١) «السيرة» لابن هشام: (ج٢/٧٦).

(١٤٢) «فقه السيرة» للشيخ محمد الغزالي: (ص١٥٧).

(١٤٣) هو البراء بن معرور الخزرجي الأنصاري أول من بايع وأول من استقبل القبلة وأول من أوصى بثلث ماله، وأحد النقباء من الاثنى عشر. انظر «الإصابة»: (ج١/١٤٤)، و«الأعلام» للزركلي: (ج١/٤٧) الطبعة الرابعة. والحديث في «المسند»: (ج٣/٤٦٠).

(١٤٤) أي نساءنا.

(١٤٥) أي السلاح.

(١٤٦) أبو الهيثم بن التيهان: مالك بن عتيك الأنصاري الأوسي: أحد النقباء. آخى =

فقال: يا رسول آلله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك آلله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول آلله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»[147].

قال آبن هشام: الهدم الهدم: يعني الحرمة، أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم[148].

ثم قام: أسعد بن زرارة[149] فقال: رويداً يا أهل يثرب: فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول آلله، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة، وقتل خياركم وإن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على آلله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند آلله، فقالوا يا أسعد: أمط عنا بيدك، فوآلله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها، ثم قاموا إليه رجلاً رجلاً فبايعوه[150].

= النَّبيُّ ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون، وشهد المشاهد كلها، وهو القائل في رثاء رسول الله ﷺ (لقد جدعت آذاننا وأنوفنا غداة فجعنا بالنَّبي محمد)، توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة سنة عشرين. انظر «الاستيعاب»: (ج٤/٢٠٠)، و«الإصابة»: (ج٤/٢١٢)، و«المعارف» لابن قتيبة: (ص٢٧٠) تحقيق ثروت عكاشة، و«الأعلام» للزركلي: (ج٥/٢٥٨).

(١٤٧) «السيرة» لابن هشام: (ج٢/٨٤ ــ ٨٥)، والحديث في «المسند»: (ج٢/٢٧٤) طبعة الساعاتي مع «الفتح الربّاني».

(١٤٨) «السيرة» لابن هشام: (ج٢/٨٤ ــ ٨٥)، والحديث في «المسند»: (ج٢/٢٧٤) طبعة الساعاتي مع «الفتح الربّاني».

(١٤٩) أسعد بن زرارة: أبو أمامة الأنصاري الخزرجي النجاري، شهد العقبتين، وكان نقيباً على قبيلته. ذكر الواقدي أنه مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة. وقال البغوي: بلغني أنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة وأنه أول ميت صلى عليه النَّبيُّ ﷺ. قال ابن حجر: وقد اتفق أهل المغازي والتواريخ أنه مات في حياة النَّبيِّ ﷺ قبل بدر. «الإصابة»: (ج١/٣٤).

(١٥٠) «مسند أحمد»: (ج٣/٣٢٢، ٣٣٩، ٣٩٤)، والحاكم: (ج٢/٦٢٤ ــ ٦٢٥)، =

أجل: (إنه الإيمان بالله والحب فيه، والإخوة على دينه، والتناصر بآسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم، وسوف يمنعونه بأرواحهم، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء) [١٥١].

ترى: أي صورة أعظم من هذه الصورة لهذا الولاء الصادق؟ لقد كانت بيعة على دين الله ومرضاته. وآنظر إلى رد المصطفى ﷺ: «بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» هذه هي الصلة الحقيقية والوشيجة الصادقة لعلاقة المسلم بأخيه المسلم. لقد أصبح الدم واحداً. «أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» وهكذا تنقطع علائق الدم الجاهلي والتناصر الجاهلي والولاء الجاهلي ليحل محلها الولاء الإسلامي والوقوف في الصف الإسلامي والبراءة من الكفر وأهله وآعتناق الإخوة الجديدة التي أمر الله بها. إنها البديل الصالح لتلك الوشائج الجاهلية كما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[١٥٢].

وهكذا نصل إلى معرفة ما فعل الله بنبيه ودعوته ومن معه، وما هيأ لهم من النصرة والمنعة والدار التي يقام فيها حكم الله وشريعته ومنهاجه في الأرض. أرض الأنصار. أرض الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

فإلى صورة جديدة مشرقة للولاء في العهد المدني.

= والبيهقي في «السنن الكبرى»: (ج٩/٩).

(١٥١) «فقه السيرة» للشيخ الغزالي: (ص١٦١).

(١٥٢) «صحيح البخاري»: (ج١٠/٤٤٢، ح٦٠٢٦) كتاب الأدب، و«صحيح مسلم»: (ج٤/١٩٩٩، ح٢٥٨٥) كتاب البرّ والصلة.

الفصل السادس

الولاء والبراء في العهد المدني

لما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز عبده ورسوله محمد ﷺ ومن معه، أمره بالهجرة لتكون مبدأ فاصلاً بين الحق والباطل، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان(١٥٣).

ولقد كانت الهجرة إيذاناً من المولى جلّ وعلا بقرب وعده الذي وعد به المؤمنين وهو وعد دائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى
شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

[سورة النور: ٥٥].

ولقد وقع هذا التمكين الربآني بالفعل ولذلك نجد القرآن يذكّر المؤمنين بهذا التمكين والنصر فيقول:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

[سورة الأنفال: ٢٦].

---

(١٥٣) انظر زاد المعاد: (ج٣/٤٣) تحقيق الأرنؤوط.

وسيبقى هذا الوعد بالتمكين مادام المسلمون ملتزمون بالشرط وهو عبادته وحده لا شريك له.

نبذة تاريخية

لما أذن الله بالهجرة: خرج المسلمون إلى المدينة زرافات ووحداناً، ولم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي حيث أقاما بأمر منه ﷺ وإلا من احتبسه المشركون كرهاً.

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى المدينة، وعرفوا أنها دار منعة، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس: خافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحوقه بهم حيث سيشتد أمره وتقوى شوكته، فلذلك اجتمعوا في دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجا منهم ليتشاوروا في أمره.

وخرجوا من ذلك الاجتماع برأي واحد: وهو أن يقوم من كل قبيلة شاب ثم يضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل.

ولكن حماية الله ونصرته لنبيه ﷺ أكبر من مكر أولئك المجرمين، فقد نزل جبريل عليه السلام على المصطفى ﷺ يأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة. وخرج رسول الله ﷺ ومعه صاحبه الأمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وبقي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث نام تلك الليلة في فراش المصطفى ﷺ. وينتهي الأمر بخسارة وذلة ''الملأ'' من قريش[١٥٤].

ووصل المصطفى ﷺ إلى دار الهجرة، دار النصرة والمنعة، حيث وجد

---

(١٥٤) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام: (ج٢/١٢٤ ــ ١٢٧)، و«زاد المعاد»: (ج٣/٥٠ ــ ٥١).

''أنصار الله'' فكانت هذه الهجرة نصراً للمؤمنين المهاجرين الذين وجدوا من يؤويهم وينصرهم ويشاركهم الأموال والمساكن وحتى الأزواج!! وكانت نصراً أيضاً للأنصار حيث قُضي على الأحن والأحقاد الجاهلية بين أوسهم وخزرجهم، وعلى كيد اليهود الذين كانوا يشيعون بينهم الفرقة والفتنة.

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ في المدينة هو بناء المسجد. لينطلق منه النداء الرباني ''الله أكبر الله أكبر'' وليكون هذا المسجد الطاهر هو الملتقى التربوي للأمة المسلمة يتلقون فيه وحي الله عن رسول الله، ويتعلمون أمور دينهم، وهذا المسجد هو أيضاً مكان القيادة العسكرية الإسلامية التي انطلقت للجهاد في سبيل الله.

وبعد ذلك: (آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾

[سورة الأحزاب: ٦].

رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة) (١٥٥).

إن هذه الإخوة الإيمانية هي الوشيجة العظمى، والرابطة الفريدة في علاقات البشر بعضهم مع بعض، فلقد أحس كل مؤمن - كما قال الأستاذ محمد قطب - سواء كان مهاجرياً أم أنصارياً برباط جديد يربطه بأخوته في الله، فكل واحد منهم يحب أخاه كحبه لنفسه، مع أنه من قبيلته ولا بينهما آصرة دم بل أن آصرة الدم - حين كانت في الجاهلية - لم تكن تنشىء

(١٥٥) مزاد المعاد: (ج٣/٦٣).

في نفس أحدهم ذلك الحب الصافي العجيب الذي يحسه الآن لأخيه في العقيدة.

ترى ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام؟

لماذا لا توجد هذه المشاعر إلا على العقيدة؟

والجواب: أن الأمر ليس سرًّا، ولا سحراً، ولكنه الإسلام يلتقي فيه الناس على العقيدة في الله، لأن كلاً منهم يحب الله ورسوله، فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخر كما هي الحال في العلاقات الجاهلية، وإنما الجانب البارز هو الحب في الله(١٥٦).

وقفة عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

إن هذه الأخوة جديرة بالدراسة والاعتبار. ذلك أنه نتج عنها أمور عظيمة في حياة المسلمين سواء في مستوى ''الأمة والدولة'' أم على مستوى الأفراد.

فأما ما يتعلق بهم أمة: فقد كانت هذه المؤاخاة هي الركيزة الأساسية في تكوين مفهوم ''الأمة المسلمة'' أمة آلتقت على العقيدة في الله، وعاشت لأجل تلك العقيدة وليس لرابطة الدم أو الحسب والنسب، أو الأرض أو اللون أو اللغة، أو الجنس فيها أي حساب يذكر إذا تعارض ذلك مع العقيدة. والله سبحانه وتعالى هو صاحب المنة والفضل في ذلك فهو القائل:

وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟
وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ

(١٥٦) «منهج التربية الإسلامية»: (ج٢/٤٠ ــ ٤١).

فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

[سورة آل عمران: ١٠٣ - ١٠٥].

لقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم لبعض، كل منهم يحب أخاه كحبه لنفسه، ويناصره ويجاهد من أجله، ويؤثره على كل قريب وحبيب من مال أو أهل أو عشيرة أو ولد

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ

[سورة التوبة: ٧١].

واشتد كيانهم فكانوا كالجسد الواحد «المؤمن للمؤمن كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ثم شبّك ﷺ بين أصابعه»[١٥٧] وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[١٥٨].

ولقد أثنى سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار. فقال سبحانه عن المهاجرين:

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾

[سورة الحشر: ٨].

---

(١٥٧) سبق تخريجه: (ص١٨٩).

(١٥٨) «صحيح البخاري»: (ج١٠/٤٣٨، ح٦٠١١) كتاب الأدب، و«صحيح مسلم»: (ج٤/١٩٩٩، ح٢٥٨٦) كتاب البرّ، واللفظ للبخاري.

ثم يثني سبحانه على الأنصار بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾

[سورة الحشر: ٩].

بل إن الأمر أصبح أكبر من ذلك. فهؤلاء الأنصار الذين آووا رسول آلله ﷺ، ومن معه وآزروهم ونصروهم وبذلوا لهم النفس والنفيس آبتغاء رضوان آلله قد أصبح حبهم من العقيدة التي يدين بها المسلم ربه، وبغضهم وكراهيتهم نفاق ففي الحديث الصحيحَ «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»(١٥٩).

وقال ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه آلله ومن أبغضهم أبغضه آلله»(١٦٠).

وبهذه الأخوّة تكون ''المجتمع الإسلامي'' ذلك المجتمع الذي تظلله راية لا إله إلا آلله وتحكمه الشريعة الربّانية، ويسوده الحب والتفاني، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، الجهاد رهبانيته، والدعوة إلى آلله سبيله ومنهاجَ حياته، القوي فيه ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف فيه قوي حتى يأخذ حقه، ولاؤه لله ورسوله والمؤمنين وبغضه وكراهيته لأعداء آلله ولو كانوا أقرب قريب، وجدوا حلاوة الإيمان وطعمه، وعرفوا الكفر وأهله حتى أن أحدهم

---

(١٥٩) «صحيح البخاري»: (ج١/٦٢ ح١٧) كتاب الإيمان، و«صحيح مسلم»: (ج١/٨٥ ح٧٤). واللفظ للبخاري.

(١٦٠) «صحيح البخاري»: (ج٧/١١٣ ح٣٧٨٣) كتاب المناقب، و«صحيح مسلم»: (ج١/٨٥ ح٧٥). واللفظ للبخاري.

يحب أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه آلله منه كما قال ﷺ – وهذا ما تحقق فيهم – «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه آلله وحتى يكون آلله ورسوله أحب إليه مما سواهما»(١٦١).

وبهذه المؤاخاة الإيمانية وجد ''التكافل الاجتماعي'' وبرزت فيه صور خالدة لم توجد قط إلا فيه وحده!!

ومنها ما رواه البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول آلله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إنني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين! ولي آمرأتان فآنظر إلى أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا آنقضت عدتها فتزوجها!! قال عبد الرحمن: بارك آلله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فلما آنقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو حتى جاء يوماً وبه أثرة صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهيم»؟ قال: تزوجت. قال: «كم سقت إليها»؟ قال: نواة من ذهب(١٦٢) (وإن إعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن الذي زاحم اليهود في سوقهم وبزهم في ميدانهم، وآستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه، ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان)(١٦٣).

وخلاصة القول: إن هذه المؤاخاة (كانت تدريباً عملياً على الأخوة الإسلامية التي تبعثها تلك العقيدة في نفوس المؤمنين بها ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ١٠]، وكان تدريباً ناجحاً نَدًا في نجاحه، فريداً في التاريخ.

---

(١٦١) «صحيح البخاري»: (ج١٠/٤٦٣ خ٦٠٤١) كتاب الأدب، و«صحيح مسلم»: (ج١/٦٦ ح٤٣). واللفظ للبخاري.

(١٦٢) «صحيح البخاري»: (ج٧/١١٢ ح٣٧٨٠) كتاب مناقب الأنصار.

(١٦٣) «فقه السيرة» للشيخ الغزالي: (ص ١٩٣)

وكانت كذلك تدريباً عملياً على "التكافل" وهو معنى من المعاني العميقة في بناء الجماعة الإسلامية. القادرون يكفلون غير القادرين على أساس الأخوة في الله من جانب وعلى أساس التصرف في مال الله بما يرضي الله من جانب آخر) (١٦٤).

ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين. بهذا الحب الكريم. وبهذا البذل السخي. وبهذه المشاركة الرضية. وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء. حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة*.

سمات الولاء والبراء في العهد المدني

لئن كانت سمات العهد المكي - كما سبق القول في ذلك - هي: بيان الحجة وإقامتها. والصبر على الأذى وكف الأيدي، والهجر الجميل، فإن ذلك كان لحكمة ربّانية، منها: أن ذلك كان لتربية الأمة على هذا الدين الحنيف، وصقل النفوس على ضوء منهاجه، والتقيد الكامل بأمر الله ورسوله في الفعل والترك على حدٍّ سواء.

ولكن الأمر أخذ صورة أخرى في العهد المدني، فمن الهجرة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، إلى قيام الدولة المسلمة إلى الجهاد في سبيل الله وهيمنة الشريعة الإسلامية.

وأول ما نذكره في هذا العهد: هو الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم، حيث وادع فيها اليهود، وعاهدهم، وتركهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم. وقد أوردها ابن

---

(١٦٤) «منهج التربية الإسلامية» للاستاذ محمد قطب: (ج٢/٦٩).
* «الظلال»: (ج٦/٣٥٢٦).

إسحاق دون سند[١٦٥]، وأوردها البنا في شرح مسند الإمام أحمد[١٦٦]، وأوردها أصحاب السير والمغازي.

على أنني سأقتصر على بعض فقراتها التي تخص موضوع الموالاة. جاء في أولها: «بسم ٱلله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»[١٦٧].

«... وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ٱبتغى دسيعة[١٦٨] ظلم، أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً. ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة ٱلله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل ٱلله إلا على سواء وعدل بينهم».

«وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بٱلله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة ٱلله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما ٱختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى ٱلله عزَّ وجلَّ وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»[١٦٩]

---

(١٦٥) «السيرة النبوية» لابن هشام: (ج٢/١٤٧).
(١٦٦) «المسند» بشرح البنّا: (ج٢١/١٠).
(١٦٧) «السيرة» لابن هشام: (ج٢/١٤٧).
(١٦٨) الدسيعة: العظيمة .
(١٦٩) «السيرة» لابن هشام: (ج٢/١٤٨-١٤٩).

هذه الوثيقة هي الصورة الصادقة لحقوق الإنسان حيث وردت بما يجعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً متلاحماً متماسكاً، وكفلت - أيضاً - حقوق أهل الديانات الأخرى ما داموا يعيشون تحت مظلة الحكم الإسلامي.

وقد لخص الإمام آبن القيم رحمه الله صورة المجتمع المدني آنذاك بقوله:

(لما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم.

وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة.

وقسم تاركوه، فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل آنتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وآنتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وآنتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين وهؤلاء هم المنافقون.

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربّه تبارك وتعالى) (١٧٠).

* * *

وقد آتضح لي من حلال هذا البحث أن هناك ثلاثة أمور هامة هي سمات هذا العهد:

(١) كيد أهل الكتاب للإسلام ''ثم النهي والتحذير من موالاتهم وطاعتهم''.
(٢) ظهور النفاق والمنافقين.
(٣) البراء من هؤلاء وأولئك: أي المفاصلة التامة بين المسلمين وأعدائهم ولها صور ترد في موضعها.

---

(١٧٠) «زاد المعاد»: (ح٣/١٢٦).

أولاً: كيد أهل الكتاب للإسلام وتحذير المسلمين من موالاتهم:

تتفق نظرة المنصفين الباحثين في التاريخ اليهودي: أن اليهود أمة حاقدة، الخداع طبعها، والغدر ديدنها، ومحادة الله ورسله خلقها، ولحكمة الله يعلمها آنتقلت الرسالة من بني إسرائيل فكان خاتم الأنبياء هو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي ﷺ وقد كان كيد اليهود - خاصة - قد بدأ منذ أن كان رسول الله ﷺ في مكّة حيث كانت تُعاون قريشاً في أسئلة العناد التي توجه للمصطفى ﷺ، وذلك مثل قولهم لقريش: آسألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وغير ذلك مما هو معلوم من سورة الكهف.

ولما هاجر رسول الله ﷺ ومن معه إلى المدينة، قامت قيامة اليهود، فلم يهدأ لهم بال، ولم يهنأ لهم عيش. ذلك أن قيام الدولة المسلمة في الأرض له أثره الكبير عليهم، فالإسلام هو الذي يكسر شوكتهم، ويفضح مكنوناتهم، ويحرر الناس من شرورهم، ويمزق شملهم وسيطرتهم وجبروتهم. ومن هنا لم يفتأوا يكيدون للإسلام ورسوله والمؤمنين، وينصبون العراقيل في وجه من يريد الإسلام وولد النفاق والمنافقون في أحضانهم، وخانوا الله ورسوله فلم يتقيدوا بالوثيقة الآنفة الذكر، وغدروا بالمسلمين فوالوا المشركين والكفار، وآذوا رسول الله ﷺ وهموا بما لم ينالوا.

ولذلك عني القرآن المدني وخاصة أكبر سوره - وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة - بكشف سترهم وفضحهم، وبيان كيدهم. والآيات الكريمة في هذا كثيرة جدًّا ولكنني أورد طرفاً منها هنا؛ ليتضح ''للمسلمين'' المخدوعين بهم اليوم، الذين يوالونهم ويبجلونهم بل يقتدون بهم. ما عليه أعداء الله الذين هم قتلة الأنبياء ودعاة الفساد في الأرض.

قال تعالى:

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا

مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟
وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

[سورة البقرة: ١٠٩].

وفي سورة آل عمران:

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

[سورة آل عمران: ٦٩].

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

[سورة آل عمران: ٧٢].

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ
حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

[سورة البقرة: ١٣٥].

مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

[سورة البقرة: ١٠٥].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى

﴿صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١١٨﴾

[سورة آل عمران: ١١٨].

فهذه الآيات وغيرها مما في مثل معناها: تبين كيدهم وما يتربصون به للإسلام وأتباعه. ولذلك جاءت آيات كثيرة في تحذير المؤمنون ونهيهم عن الاستماع للكفار عامة ولأهل الكتاب خاصة، أو طاعتهم، أو اتخاذهم أولياء، أو الركون إليهم. وسأقتصر هنا أيضاً على بعض هذه الآيات لأنه سيأتي مزيد من تفصيل هذا في الفصل التالي إن شاء الله حول صور الموالاة.

قال تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

[سورة البقرة: ١٢٠].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾

[سورة آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٠١﴾

[سورة آل عمران: ١٠٠ - ١٠١].

ورد في سبب نزول هاتين الآتين: أن شاس بن قيس اليهودي – وكان شيخاً قد أُغبر في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم – مر على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وأُلفتهم، وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: قد آجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا آجتمعوا بها من قرار! فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال: آعمد إليهم فآجلس معهم، ثم ذكرهم بعاث – أحد أيامهم في الجاهلية – وما كان فيه، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل. وتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين، فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه: إن شئتِ رددتها جذعة! وغضب الفريقان جميعاً وقالا: أرجعا السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة – وهي الحرة – فخرجوا إليها، وآنضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

وبلغ رسول الله ﷺ ذلك فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين: الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وآستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً!!». فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم آنصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله فأنزل الله ﴿يا أيها الذين ءامنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أُوتوا الكتاب﴾ الآية.

قال جابر بن عبد الله، ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله ﷺ، فأومأ إلينا بيده، فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا

من رسول الله ﷺ، فما رأيت يوماً أقبح ولا أوحش أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم(١٧١).

ويوجه الله عباده المؤمنين ويرشدهم - بعد أن ذكر قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام في قصة ذبح البقرة - بقوله:

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

[سورة البقرة: ٧٥ - ٧٧].

ثم يأتي التحذير الأقوى في سورة المائدة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١].

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

[سورة المائدة: ٥٥ - ٥٧].

---

(١٧١) انظر «تفسير الطبري»: (ج٤/٢٣)، و«أسباب النزول» للواحدي: (ص ٦٦)، و«أحكام القرآن» للقرطبي: (ج٤/١٥٥)، و«تفسير البغوي»: (ح١/٣٨٩). وقد بذلت جهدي في تخريج الحديث من المصادر الأصلية فلم أعثر على ذلك فجزى الله من وجد تخريج هذا الحديث وسهني إلى دلك خير الجزاء.

إن هذه النصوص وغيرها: قد ربت المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، فقطعت ما في نفوس بعض المسلمين من ود وولاء لهؤلاء الأعداء، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط.

ثانياً: النفاق والمنافقون:

إن المؤمنين في العهد المكي كانوا مبتلين، يعذبون، ويضطهدون ومع ذلك صبروا وآحتسبوا فلم يكن في مكّة حينئذ إلا فريقان: فريق المؤمنين الصابرين، وفريق الكفار والمشركين الجبابرة ولم يكن هناك «منافقون» لأن النفاق طبيعته المراوغة والاحتيال وهذا الدين لم يكن يقدر عليه في مكّة إلا المؤمنون الصادقون.

أما في المدينة، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم آلله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة، التي تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام، وتحب الكفر وأهله ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به.

والمنافقون: (قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة آلله ورسوله، فهم في الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى:

إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

[سورة النساء: ١٤٥].

(فالكافرون المجاهرون أخف منهم، وهم فوقهم في دركات النار، لأن الطائفتين آشتركتا في الكفر ومعاداة آلله ورسله، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق. وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى في حقهم:

هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ

[سورة المنافقون: ٤].

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر. أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وإنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إيّاهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها.

(فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم - أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم. لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، أما هؤلاء فمعهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم.. صحبتهم توجب العار والشنار، ومودتهم تحل غضب الجبار، وتوجب دخول النار.

(من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً، ويمشي على عقبه القهقرى إدباراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً) (١٧٢).

وكان من نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أن لا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق، ذلك أن عدم التمييز يؤدي إلى ضياع القدوة الحسنة في المجتمع الإسلامي، ويؤدي أيضاً إلى ذوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق.

(وفي المنتسبين للإسلام أناس ''نفعيون'' لا همَّ لهم إلا الحصول على المال أو أي مأرب من مآربهم الدنيئة، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم، وإذا أصيبوا كانوا عليهم، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض

---

(١٧٢) انظر «طريق الهجرتين وباب السعادتين» لابن القيم: (ص ٤٠٢-٤٠٨) الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥هـ. السلفية بمصر.

الهدامة ممن قد آمتلأت قلوبهم بالحقد والحسد، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتظاهرون لهم بأنهم معهم، ولكنهم يحونونهم في أحرج المواقف) [173].

ولما كان الأمر كذلك ميز آلله الصادق من الكاذب عن طريق الابتلاء والامتحان قال تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾

[سورة العنكبوت: ١ - ٣].

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾

[سورة آل عمران: ١٤٠ - ١٤١].

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾

[سورة آل عمران: ١٧٩].

أجل: إنه لابد من التمييز بين الخبيث والطيب، فالابتلاء سنّة ربّانية في تمحيص النفوس وصقلها على الحق، ثم إن آلله سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى الحال.. لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع

---

(١٧٣) «المنافقون في القرآن الكريم» للاستاذ عبدالعزيز الحميدي: (ص ١١٦).

والعطش، والتعب والنصب، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه[١٧٤].

والحديث عن المنافقين طويل وقد كتب فيه في القديم والحديث[١٧٥].

وقد سبق لي في التمهيد أن تكلمت عن أنواع النفاق وأحكامه، وأتكلم هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين في كيدهم للدعوة الإسلامية.

(١) من أخطر ما آرتكبه المنافقون: موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين وقد فضحهم القرآن في عدة مواضع ومنها سورة الحشر، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

[سورة الحشر: ١١ – ١٢].

وقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

---

(١٧٤) انظر «اغاثة اللهفان» لابن القيم تحقيق الفقي: (ص ١٩٠).

(١٧٥) هناك رسالة قيمة للاستاذ عبدالعزيز الحميدي بعنوان «المنافقون في القرآن» لعلها من أحسن ما كتب في هذا الموضوع. وهي موجودة بالدرسات العليا بكلية الشريعة بمكة المكرمة، وانظر أيضا كتاب: النفاق آثاره ومفاهيمه للشيخ عبدالرحمن الدوسري رحمه الله.

[سورة المجادلة: ١٤].

ذكر السدي ومقاتل: أنها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ وعبد الله بن نبتل المنافقين: فقد كان أحدهما يجالس النبي ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود[١٧٦]. وهذه الآية كقوله تعالى:

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ١٤٣﴾

[سورة النساء: ١٤٣].

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هي سورة "المنافقون" بيّن الله فيها أنهم يظهرون ما لا يبطنون، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾

[سورة المنافقون: ٧].

وفيها أيضاً:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[سورة المنافقون: ٨].

روى البخاري ومسلم في سبب نزولها عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال

---

(١٧٦) «أسباب النزول» للواحدي: (ص ٢٣٥)، و«تفسير القرطبي»: (ج١٧/٣٠٤)

رسول آلله ﷺ: «دعوها فإنها منتنة» فسمعها عبد آلله بن أُبيّ فقال. قد فعلوها، وآلله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق: قال ﷺ: «دعه. لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(١٧٧).

قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عبد آلله بن عبد آلله بن أُبيّ لما بلغه ما كان من أبيه أتى رسول آلله ﷺ فقال: يا رسول آلله: إنه بلغني إنك تريد قتل عبد آلله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوآلله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه مني، أني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد آلله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول آلله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»(١٧٨).

وذكر عكرمة وغيره: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد آلله بن عبد آلله بن أُبيّ على باب المدينة، وآستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد آلله بن أُبيّ قال له آبنه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟ قال: وآلله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول آلله ﷺ – وكان إنما يسير ساقة –(١٧٩) فشكى إليه عبد آلله بن أُبيّ آبنه، فقال الابن: وآلله يا رسول آلله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول آلله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول آلله ﷺ فجز الآن(١٨٠).

---

(١٧٧) «صحيح البخاري»: (ج٨/٦٥٢ ح٤٩٠٧) كتاب التفسير، و«صحيح مسلم»: (ج٤/١٩٩٩ ح٢٥٨٤) واللفظ له.

(١٧٨) «السيرة» لابن هشام: (ج٢/٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير»: (ج٨/١٥٩)، ولم يخرجه ــ فيما أعلم ــ إلا ابن إسحاق.

(١٧٩) من صفته ﷺ انه يسوق أصحابه. أي يقدمهم ويمشي خلفهم تواضعاً ولا يدع أحداً يمشي خلفه.

(١٨٠) «تفسير ابن كثير»: (ج٨/١٥٩).

وحقًا إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الابن لرسول الله: إن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه!! إنه ما حمل هذا الابن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء في نفسه.

(٢) من أقبح صفاتهم: رفض التحاكم إلى شريعة الله، والتحاكم إلى الطواغيت التي تحقق رغباتهم، قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا

[سورة النساء: ٦٠ - ٦٣].

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى:

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

[سورة النور: ٤٨ - ٥٠].

والله قد وضع ميزاناً دقيقاً في هذه القضية بين المؤمن والمنافق.

فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول: سمعت وأطعت:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[سورة النور: ٥١].

هذه هي صفة المؤمن، أما المنافق فصفته الإعراض والاستكبار عن حكم الله، قال تعالى:

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾

[سورة النور: آية ٤٨]

(٣) من صفاتهم وأفعالهم الدنيئة: التخذيل في صف المسلمين، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم. قال الله عنهم:

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

[سورة آل عمران: ١٦٨].

ولقد أصيب المسلمون في غزوة أحد بالدهشة حين رجع ثلث الجيش بزعامة آبن أُبَيّ. وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها.

وفي موالاتهم للكفار يقول الله في شأنهم:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

[سورة النساء: ١٣٨ – ١٣٩].

وأخبرنا سبحانه أنهم هم:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

[سورة النساء: ١٤١].

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[سورة التوبة: ٤٥ – ٥٠].

ففي هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً لأنهم جبناء، مخذولون، ولأسرعوا بينكم بالنميمة

والبغضاء، والفتنة[181]. وقال الله فيهم أيضاً:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

[سورة التوبة: ٨٦ – ٨٧].

ولهم مواقف أخرى كبيرة، ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبيّن لرسوله ﷺ أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عياناً ولكنهم يُعرفون بلحن القول:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

[سورة محمد: ٣٠].

وسنعرف بعد قليل كيف كان البراء منهم، وكيف كان هدي رسول الله ﷺ معهم:

ثالثاً: البراء في العهد المدني أي: المفاصلة التامة بين المسلمين وجميع أعدائهم:

لئن كانت التربية في العهد المكي تمتاز بضبط النفس، والصبر على الأذى، وتبليغ الدعوة وإعداد العدة مع حبس دواعي الانطلاق، وكف حدة الإقدام: فإن التربية في المدينة مبنية على هذه الأسس ولكن في شكل جديد، حيث انطلق المؤمنون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والضرب على يد أعداء

(١٨١) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج٤/١٠٠).

الله بقوة لا تعرف الضعف، وعزيمة لا تعرف الوهن[١٨٢]. من هنا كان الجهاد في سبيل الله هو أبرز سمات هذا العهد الزاهر، وهو أول صورة من صور البراء والمفاصلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في العهد المدني وبعد الهجرة النبوية. والجهاد وجه جديد من وجوه الثبات على العقيدة، وآحتمال المشقات والأذى في سبيل الذود عنها من الأعداء[١٨٣].

والحديث عن الجهاد طويل طويل، وآياته كثيرة وكذلك الأحاديث النبوية فيه، وفهم الناس لمقصده مختلف، خاصة في العصور المتأخرة، فقد وجد من المسلمين أناس أصيبوا بالهزيمة النفسية أمام شبهات الكفار والملحدين والمستشرقين والمستغربين على حدٍّ سواء!.

ففي الوقت الذي يقول فيه أعداء الله. إن دين الإسلام آنتشر بالسيف، وجد ممن ينتسبون للعلم والعلماء من يدافع - حسب زعمه - عن الإسلام؟ فيلوي أعناق النصوص الشرعية لتوافق ما زعمه دفاعاً عن الإسلام! ومن هنا يوضع الإسلام في مقام الدفاع، ويصور على أنه كالذي يقاتل في معركة آنسحاب حيث كلما طرأت شبهة آنبرى لها من يدافع!!

والذي نعتقده ونراه الحق في هذه القضية: أن هذه مهزلة سخيفة لم تحدث إلا في القرون المتأخرة، حين صارت الغلبة للكفر وأربابه، وآنحدر المسلمون من مقام القيادة والجهاد إلى مقام الاستخذاء والضعف والدفاع والتبعية العمياء.

وقد كتب علماء فضلاء من علماء المسلمين حول هذا الموضوع ما يكفي ويشفي ويغني[١٨٤]. ومن المهم في هذا المقام: أن نعرف هدي

---

(١٨٢) انظر «سبيل الدعوة الإسلامية» د. محمد أمين المصري: (ص ١١٣) ط. (١) سنة ١٤٠٠هـ دار الأرقم بالكويت.

(١٨٣) انظر «منهج التربية الإسلامية» للاستاذ محمد قطب: (ج٢/٧٠).

(١٨٤) اذكر منهم شيخ الإسلام ابن تيمية والعلاّمة ابن القيم والشيخ محمد بن =

المصطفى ﷺ وسيرته مع أعداء الله، وجهاده لهم. وللإمام آبن القيم رحمه الله تلخيص قيم أورده هنا بتمامه نظراً لأهميته.

قال رحمه آلله في «زاد المعاد»:

(أول ما أوحي إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ بآسم ربّه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾

[سورة المدثر: ١ — ٢].

(فنبأه بقوله: ﴿آقرأ﴾ وأرسله بـ ﴿يا أيها المدثر﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال، ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

(ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن آعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:

(١) أهل صلح وهدنة.
(٢) وأهل حرب.
(٣) وأهل ذمة.

(فأمر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما آستقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة

= عبدالوهاب وتلاميذه، ومن لمعاصرين الاستاذين الجليلين أبو الأعلى المودودي وسيد قطب والشيخ سليمن بن حمدان رحمهم الله. وغيرهم ممن لا يحضرني ذكره الآن.

''براءة'' نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان.

(وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام.

(١) قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له فحاربهم وظهر عليهم.

(٢) وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

(٣) وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم. وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله:

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ

[سورة التوبة: ٥].

فالحرم ها هنا أشهر التسيير، أولها يوم الآذان وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها العاشر من ربيع الآخر. وليست هي الأربعة المذكورة في قوله تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ

[سورة التوبة: ٣٦].

فإن تلك: واحد فرد، وثلاثة سرد. رجب وذو القعدة وذو الحجة

والمحرم. ولم يسير المشركين في هذه الأربعة. فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

(ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به ومسالم آمن وخائف محارب)[185].

وقد ركز القرآن الكريم على أهداف الجهاد في غير ما آية. فمنها قوله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾

[سورة الأنفال: ٣٩].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ويكون الدين كله لله﴾: لا يكون مع دينكم كفر[186].

وقال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾

[سورة التوبة: ٣٣].

---

(١٨٥) «زاد المعاد»: (ج٣/١٥٨-١٦٠).
(١٨٦) «تفسير ابن كثير»: (ج٣/٥٩٧).

وقال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾

[سورة الحج: ٤٠ - ٤١].

إن الجهاد في الإسلام: هدفه أن يعبد الله وحده في الأرض، وأن تهيمن شريعته، ويتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن تأليه البشر إلى ألوهية الواحد الأحد[١٨٧].

ومن هدف الجهاد أيضاً إنقاذ المستضعفين في الأرض

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

[سورة النساء: ٧٥].

وإليك تفصيل صور البراء من كل طائفة، وكيفية جهاد المسلمين لهم:

(أ) صور البراءة من المشركين :

(١) بعد أن قامت الدولة المسلمة في المدينة، كان لابد من اجتثاث شجرة الشرك في مكّة وغيرها وقد نزلت سورة التوبة بقتال المشركين،

---

١٨٧) انظر «معالم في الطريق»: فصل الجهاد في سبيل الله، وطريق الدعوة في ظلال القرآن (ج/١/٢٨٩).

وتفصيل ذلك ورد في تلخيص ابن القيم الذي سبق ذكره. قال تعالى:

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى
ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ
إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ
شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ
مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ
فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ
وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ
كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا
ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا
وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟
عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ
فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟

أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

[سورة التوبة: ١ – ١٥].

(٢) منعهم من دخول المسجد الحرام قال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

[سورة التوبة: ٢٨].

قال ابن كثير: كان نزول هذه الآية سنة تسع. ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين، «أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(١٨٨) فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً(١٨٩).

(٣) منع النكاح بالمشركات: ذكر ابن جرير – وهو يتحدث عن صلح الحديبية – أنه جاء إلى النبي ﷺ نسوة مؤمنات فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

---

(١٨٨) «صحيح البخاري»: (ج٨/٣١٧ ح٤٦٥٥) كتاب التفسير: تفسير سورة التوبة.

(١٨٩) «تفسير ابن كثير»: (ج٤/٧٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠﴾

[سورة الممتحنة: ١٠].

قال فطلق عمر رضي آلله عنه يومئذ آمرأتين كانتا له في الشرك[١٩٠].

(٤) منع إقامة المسلم في دار الشرك، وذلك بعد أن أعزّ آلله دينه وعباده، وقامت لهم دولة فحينئذ تحرم الإقامة بدار الشرك خشية على المسلم أن يفتن، ولكي ينضم إلى جماعة المسلمين فهم أخوته وأولياؤه من دون الناس. قال ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول آلله لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما»[١٩١].

(ب) البراء من أهل الكتاب :

كما سبق أن قلنا: أن الجهاد هو أكبر مظاهر المفاصلة بين المسلمين وجميع أعدائهم – ومنهم أهل الكتاب – فإنه لابد أن نشير إلى بعض ما نزل في مفاصلة أهل الكتاب إضافة إلى مبدأ جهادهم.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران التي عنيت بهم كثيراً وكشفت ما لديهم:

---

(١٩٠) «تفسير الطبري»: (ج٢٦/١٠٠) وانظر «أحكام أهل الذمة» لابن القيم: (ج١/٦٩).

(١٩١) «سنن أبي داود»: (ج٣/١٠٥ ح٢٦٤٥) كتاب الجهاد، والترمذي في «السير»: (ج٥/٣٢٩ ح١٦٠٤).

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾

[سورة آل عمران: ٧٠ - ٧١].

قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾

[سورة آل عمران: ٩٨ - ٩٩].

وفي سورة المائدة قوله تعالى:

قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

[سورة المائدة: ٥٩ - ٦٠].

ففي هذه الآيات وغيرها نجد التقريع لأهل الكتاب والتنديد بباطلهم ومخازيهم.

ثم يأتي النص القرآني للرسول ﷺ - وللمؤمنين من ورائه - بأن يقولوا لأهل الكتاب أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا شرع الله ويحكموا كتابه:

= قال الألباني: هو حديث حسن. انظر: «صحيح الجامع الصغير»: (ج٢/١٧ ح١٤٧٤).

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

[سورة المائدة: ٦٨].

وهذه الآية الكريمة من أعظم ما بين صورة البراء من أهل الكتاب. ولقد كان جهاد المصطفى ﷺ وأصحابه لأهل الكتاب – بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير – صورة واضحة في مفاصلتهم وجهادهم والبراءة منهم.

وسيرد الحديث عن إجلائهم عن أرض الجزيرة في الفصل السادس من الباب الثاني.

(ج) البراء من المنافقين :

مفاصلة المنافقين والبراءة منهم تؤخذ من هدي رسول الله ﷺ معهم، وفي ذلك يقول العلاّمة ابن القيم:

(وأما سيرته ﷺ في المنافقين: فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة. وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم) (١٩٢).

وقد قلنا فيما سبق: أن من أبرز صفات المنافقين موالاة الكفار، وكراهية دين الله والتخذيل في صف المسلمين لذلك حين بين الله حالهم للمؤمنين: كان لابد من مفاصلتهم والبراءة منهم ونزل في ذلك آيات توضح صور هذه المفاصلة وذلك البراء ومنها:

(١) الإعراض عنهم والغلظة عليهم: وقد جاء ذلك مقروناً بجهاد الكفار،

(١٩٢) «زاد المعاد»: (ج٣/١٦١).

فالغلظة على المنافق من أنواع الجهاد قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

[سورة التوبة: ٧٣].

''وهي نفس آية ٩ من سورة التحريم'' وسورة التوبة فضحتهم فضحاً عظيماً حتى إنها سميت بـ «الفاضحة». ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها»(١٩٣). وفي سورة النساء:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

[سورة النساء: ٨١].

(٢) النهي عن الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾

[سورة التوبة: ٨٤].

قال ابن كثير: وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين(١٩٤).

(٣) لا يقبل لهم عذر في التخلف عن الجهاد، ومن ثم عدم قبولهم فيه

---

(١٩٣) «صحيح البخاري»: (ج٨/٦٢٩ ح٤٨٨٢) كتاب التفسير: تفسير سورة الحشر.

(١٩٤) «تفسير ابن كثير»: (ج٤/١٣٢).

مرة أُخرى. قال تعالى:

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

[سورة التوبة: ٨٣].

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ
ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

[سورة التوبة: ٩٤ – ٩٦].

(٤) عدم الاستغفار لهم. قال تعالى:

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ

[سورة التوبة: ٨٠].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

[سورة المنافقين: ٥ — ٦].

(د) قطع الموالاة مع الأقارب إذا كانوا محادين لله ورسوله :

قلنا في العهد المكّي: إن المؤمن كان مأموراً بصلة والديه الكافرين وإحسان معاشرتهما، وليس في ذلك ولاء على أية حال إلا إنه لم يؤمر بمقاطعتهما ومفاصلتهما، ولكن الصورة تختلف في العهد المدني بعد قيام الدولة المسلمة وجهاد الكفار والمشركين. حيث جاءت المفاصلة التامة بين المؤمن وقريبه المشرك أو الكافر أو المنافق ونزل في ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾

[سورة المجادلة: ٢٢].

قال أهل العلم في سبب نزولها: إنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجرّاح حين قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد، وفي أبي بكر حين دعا ابنه للمبارزة يوم بدر، وفي عمر حيث قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر، وفي عليٍّ وحمزة حين قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر(١٩٥). وقيل غير

---

(١٩٥) «أسباب النزول» للواحدي: (ص ٢٣٦)، و«تفسير ابن كثير»: (ج٨/٧٩).

ذلك من الأسباب[196].

وهذه الآية الكريمة تشير إلى المفاصلة الكاملة بين حزب آلله وحزب الشيطان، وأن المؤمن يجب عليه أن ينحاز إلى الصف المسلم متجرداً من كل عائق أو جاذب ومرتبطاً في العروة الواحدة بالحبل الواحد. ومن ثم فلا نسب ولا صهر، ولا أهل ولا قرابة، ولا وطن ولا جنس ولا عصبية ولا قومية حين تقف هذه الوشائج دون ما أراد آلله. وإنما هي العقيدة من وقف تحت رايتها فهو من حزب آلله، ومن آستحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب آلله رابطة[197]. وفي سورة التوبة يأتي الأمر الأخير بالمفاصلة. وبيان أن القضية: قضية إيمان وكفر وليست قضية جزئية أو ثانوية. قال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٣ – ٢٤].

فهذا أمر من آلله بمباينة الكفار وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهي عن موالاتهم إذا آختاروا الكفر على الإيمان[198].

قال القرطبي: وهذه الآية – آية ٢٣ – باقية الحكم إلى يوم القيامة في

---

(١٩٦) للاستزادة في هذا انظر «أحكام القرآن» للقرطبي: (ج١٧/٣٠٧).

(١٩٧) انظر «الظلال»: (ج٦/٣٥١٤-٣٥١٦).

(١٩٨) «ابن كثير»: (ج٤/٦٦).

قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين[199]. وقال آبن عباس رضي آلله عنهما في قوله ﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾: هو مشرك مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك[200].

وهذا السياق القرآني الكريم قد آستعرض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها في كفه، ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى.

الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة ''وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج''، والأموال والتجارة ''مطمع الفطرة ورغبتها''، والمساكن المريحة ''متاع الحياة ولذتها''.. كل ذلك في كفة وفي الكفة الأخرى: حب آلله ورسوله وحب الجهاد في سبيله. الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته وما يتبعه من نصب وتعب، ومن تضييق وحرمان وألم وتضحية وجراح وآستشهاد. الجهاد المجرد من الصيت والذكر والظهور والمباهاة والفخر والرياء.

وما يكلف آلله المؤمنين هذا التكليف إلا وهو يعلم أن فطرتهم تطيق ذلك، فآلله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإنه لمن رحمة آلله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال، وأودع فيها الشعور بلذة الاتصال بآلله التي لا تعدلها أي لذة. لذة الاستعلاء على الضعف والهبوط والخلاص من ثقلة اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضي[201].

وخلاصة القول: إن الولاء والبراء قد آكتملت صورته الحقيقية في العهد المدني حيث قامت دولة الإسلام الراشدة وأصبحت الأخوة الإيمانية فيها هي الرابطة الحقيقية، ودونها تهدر كل رابطة. وشرع الجهاد للكفار والمشركين ومن نقض عهده. وجاء الأمر بالغلظة على المنافقين والإعراض عنهم. وحصلت البراءة من كل قريب لا يؤمن بآلله ورسوله ولا يدين دين الحق ولو كان أباً

---

(١٩٩) «أحكام القرآن» للقرطبي: (ج٨/٩٤).

(٢٠٠) «أحكام القرآن» للقرطبي: (ج٨/٩٤).

(٢٠١) «الظلال»: (ج٣/١٦١٥) بتصرف.

أو أخاً أو زوجاً أو غير ذلك مما تعارف الناس عليه أنه رابطة.

ولقد تميز المسلمون وآستعلوا بدينهم، وآفتخروا بالانتماء إلى هذا الدين الذي هو سبب تلك العزة والرفعة والسيادة حين فتحوا الشرق والغرب. ولن يكون للمسلمين اليوم أو غداً عز إلا بالرجوع إلى هذه العقيدة عن حب وولاء لدين آلله والمؤمنين به، وبراء من كل كافر ومشرك ومنافق ولو كان أقرب قريب. أما الإحسان إلى الوالدين وبرهما - وهما كافران - فهذا أمر باق إلى قيام الساعة.

الفصل السابع

صور الموالاة ومظاهرها

إن جمع صور الموالاة ومظاهرها في فصل مستقل أمر له أهميته في مثل هذا البحث، وذلك حتى يكون القارىء على بيِّنة من الأمور والقضايا التي تمسها قضية الولاء والبراء.

وأحب أن أنبه في هذا المقام على أنني لم ألزم نفسي بتتبع الحكم الشرعي في كل صورة من هذه الصور، وذلك لصعوبة القطع بالحكم في كل قضية، لأنه - كما يقول أهل العلم - قد يكون القول أو الفعل كفراً، ولكن هناك ما يصرفه عن ظاهره فيما بين العبد وبين ربّه، ولكن على العموم فهذه الصور تتفاوت من كون فاعلها خارجاً من الملة كمن يحب الكفار لأجل كفرهم إلى كبيرة من الكبائر كتعظيمهم والثناء عليهم[٢٠٢]. ذلك أن (مسمى الموالاة يقع على شُعب متفاوتة منها ما يوجب الردة كذهاب الإسلام بالكليَّة، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات)[٢٠٣]. وقد حرص الدين الإسلامي على إخلاص العبادة «وهي الطاعة والانقياد» لله وحده والبراءة من كل متبوع أو مرغوب، أو مرهوب، وتعلق القلب بربّه في الخشية والخوف والرجاء والعون والنصرة، لأن (كل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه: خضع قلبه لهم، وصار فيه من

---

(٢٠٢) «الدرر السنية»: (ج٧/٢٠١)، و«الهدية الثمينة»: للشيخ/ عبدالله السليمان بن حميد: (ص ١٧).

(٢٠٣) «الرسائل المفيدة» للشيخ/ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ: (ص ٤٣).

العبودية لهم بقدر ذلك.. ومعلوم أن أسر القلب أعظم من أسر البدن، وآستعباد القلب أعظم من آستعباد البدن، فإن من آستعبد بدنه وآسترق وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. أما إذا كان القلب متيماً لغير آلله فهذا هو الذل والأسر المحض) (٢٠٤).

وخطورة موالاة الكفار تبرز في أن ضررها على المسلمين كافة أعظم من خطر من يكفر في نفسه فقط. ذلك أن (الإضرار بالمسلمين يزيد على تغيير الاعتقاد، ويفعله من يظن سلامة الاعتقاد، وهو كاذب عند آلله ورسوله والمؤمنين في هذه الدعوى والظن، ومعلوم أن المفسدة في هذا أعظم من المفسدة في مجرد تغيير الاعتقاد) (٢٠٥) وإليك تفاصيل صور موالاة الكفار(٢٠٦).

(١) الرضى بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة(٢٠٧).

ويتضح هذا الأمر في كونه ولاء للكفار: إنه يسرهم ويسعدهم أن يروا من يوافقهم على كفرهم ويجاريهم على مذاهبهم الإلحادية.

وقد سبق في التمهيد القول بأن من معتقد أهل السنة والجماعة: أن حب القلب وبغضه يجب أن يكون كاملاً. فالذي يحب الكافر لأجل كفره فهو كافر بإجماع الأمة، ولم يخالف في ذلك أحد من علماء المسلمين.

يقول ابن تيمية رحمه آلله:

---

(٢٠٤) «رسالة العبودية» لابن تيمية: ص ٩٥-٩٦.

(٢٠٥) «الصارم المسلول على شاتم الرسول» لابن تيمية: (ص ٣٧١).

(٢٠٦) من أحسن من كتب في ذلك الإمام/ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله وأبناؤه، لذلك فمعظم هذه الصور منقولة من كتبه.

(٢٠٧) انظر نواقض الإسلام في «مجموعة التوحيد»: (ص ١٢٩) مطبعة الحكومة بمكة.

(أما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهيته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان. وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته. ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل، ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة ٱلله ورسوله وبغض ٱلله ورسوله، وهذا من نوع الهوى، فإن ٱتبعه الإنسان فقد ٱتبع هواه:

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ

[سورة القصص: ٥٠])[٢٠٨].

إذن: فالمحبة والرضى أمران جازمان لا يخرجان عن كونهما كفراً إذا كانا للكفار أو إيماناً إذا كانا للمؤمنين.

(٢) التولي العام وٱتخاذهم أعواناً وأنصاراً وأولياء أو الدخول في دينهم وقد نهى ٱلله عن ذلك فقال:

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ

[سورة آل عمران: ٢٨].

قال ٱبن جرير في تفسيرها:

(من ٱتخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً يواليهم على دينهم ويظاهرهم على المسلمين فليس من ٱلله في شيء. أي قد برىء من ٱلله وبرىء ٱلله منه، بٱرتداده عن دينه ودخوله في الكفر. ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاه﴾ أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم

---

(٢٠٨) «شذرات البلاتين»: (ج١/٣٥٤)، «رسالة الأمر بالمعروف».

وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل) (٢٠٩).

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١].

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها:

(من تولى اليهود والنصارى من دون المؤمنين فإنه منهم. أي من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه) (٢١٠).

وقال ابن حزم:

(صح أن قول الله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ إنما هو على ظاهره: بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين) (٢١١).

وقال ابن تيمية:

(أخبر الله في هذه الآية: أن متوليهم هو منهم وقال سبحانه:

---

(٢٠٩) «تفسير الطبري»: (ج٣/٢٢٨).

(٢١٠) المصدر السابق: (ج٦/٢٧٧).

(٢١١) «المحلى»: (ج١٣/٣٥) تحقيق حسن زيدان سنة ١٣٩٢هـ الناشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾

[سورة المائدة: ٨١].

فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. فالقرآن يصدق بعضه بعضاً) (٢١٢).

وقال ابن القيم:

(إن الله قد حكم ولا أحسن من حكمه أنه من تولى اليهود والنصارى، فهو منهم ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾، فإذا كان أولياؤهم منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم. وهذا عام، خص منهم من يتولاهم ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام فإنه لا يُقر ولا تُقبل منه الجزية. بل إما الإسلام أو السيف لأنه مرتد بالنصّ والإجماع، ولا يصح إلحاق من دخل في دينهم من الكفار قبل التزام الإسلام بمن دخل فيه من المسلمين؛ لأن من دان بدينهم من الكفار بعد نزول القرآن فقد انتقل من دين إلى دين خير منه - وإن كانا جميعاً باطلين -، وأما المسلم فإنه قد انتقل من دين الحق إلى الدين الباطل بعد إقراره بصحة ما كان عليه وبطلان ما انتقل إليه فلا يقر على ذلك) (٢١٣).

ويستبعد الأستاذ سيد قطب أن يكون بين المسلمين، من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين. وإنما المراد ولاء التحالف والتناصر. يقول رحمه الله:

(إن الولاية المنهي عنها هنا ولاية التناصر والتحالف معهم، ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم، فبعيد جدًا أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر الذي كان

---

(٢١٢) انظر «الإيمان» لابن تيمية: (ص ١٤) طبع المكتب الإسلامي.

(٢١٣) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم: (ج١/٦٧، ٦٩).

يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأواصر، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله. يوضح ذلك قوله تعالى بشأن المسلمين الذين لم يهاجروا:

مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟

[سورة الأنفال: ٧٢].

أي ولاية التناصر والتعاون وليس ولاية الدين.

(نقول هذا: لأن البعض يخلط بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبرّ بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة: أن تظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين!! أمام الكفار والملحدين. فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين.

فلندع من يغفل عن هذا ولنكن واعين للتوجيه القرآني: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ الآية)[(٦١٤)].

(٣) الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى:

---

(٦١٤) في ظلال القرآن: (ج٦/٩٠٩-٩١٠) بتصرف. وسيرد مزيد من التفصيل إن شاء الله عند الحديث عن زمالة الأديان!

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

[سورة النساء: ٥١].

ونظير هذه الآية قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب:

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ

[سورة البقرة: ١٠١ - ١٠٢].

فأخبر سبحانه أنهم اتبعوا السحر وتركوا كتاب الله كما يفعله كثير من اليهود وبعض المنتسبين إلى الإسلام. فمن كان من هذه الأمة موالياً للكفار: من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة كإتيانه أهل الباطل واتباعهم في شيء من فعالهم ومقالهم الباطل: كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك(٢١٥). وإن هذه الصورة من صور الموالاة قد وقع فيها معظم المنتسبين إلى الإسلام اليوم، فالإيمان ببعض ما هم عليه أمر واقع في ''العالم الإسلامي'' لا ينكره إلا مكابر جاهل، فها هي البيغوات من أبناء أمتنا وممن ينطقون بألسنتنا قد آمنت بالشيوعية مذهباً تارة وبالاشتراكية تارة أخرى، وبالديمقراطية نظاماً أو العلمانية دستوراً، فأخذت هذه المبادىء الكافرة وطبقتها في بلاد المسلمين ملزمة الناس بعبادتها ''في الطاعة والانقياد والتنفيذ'' ونصبت العداء لكل مسلم موحد ينادي في الأمة أن تعود إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(٢٦٥) انظر فتاوى ابن تيمية (ج٢٨/١٩٩-٢٠١).

وهذه الردة الجديدة سيأتي تفصيل الحديث عنها إن شاء الله في الباب الأخير.

وإن من الإيمان ببعض ما هم عليه: مسألة فصل الدين عن الدولة وإنه لا علاقة للإسلام بالسياسة، فهذه أيضاً فرع للقضية السابقة، لم توجد إلا في أوروبا أيام الاضطهاد الكنسي لرجال العلم. ولكن أين الإسلام دين العدل ودين السياسة ودين القوة من ''هرطقة'' رجال الكنيسة حتى يأتي بعض الأقزام فيستورد تلك السموم من أوروبا ليلبس الإسلام قناعاً مزيفاً فيقول: الإسلام علاقة بين العبد وربه والسياسة لها رجالها ولها قضاياها التي لا تمت إلى الدين بصلة(٢١٦).

(٤) مودتهم ومحبتهم: وقد نهى الله عنها بقوله:

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ
حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ
أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(أخبر الله أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادّين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله. فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه؛ كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب) (٢١٧).

---

(٢١٦) هناك كُتّاب أجلاّء أفاضوا الحديث في هذه القضية منهم الأساتذة: د. محمد البهي والاستاذ سيد قطب والاستاذ محمد قطب والاستاذ المودودي وغيرهم. ومن أراد التفصيل الدقيق فعليه بمراجعة كتاب «العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي» للأخ الاستاذ/ سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

(٢١٧) «الإيمان»: (ص ١٣).

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾

[سورة الممتحنة: ١].

(٥) الركون إليهم:

قال تعالى:

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣﴾

[سورة هود: ١١٣].

قال القرطبي: الركون حقيقته: الاستناد والاعتماد، والسكون إلى الشيء والرضا به[٢١٨]. وقال قتادة معنى الآية: لا توادوهم ولا تطيعوهم. وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم.

وهذه الآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم فإن صحبتهم كفر أو معصية. إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة كما قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي[٢١٩]

وقال تعالى:

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ﴾

---

(٢١٨) «تفسير القرطبي»: (ج٩/١٠٨)، وانظر «البغوي والخازن»: (ج٣/٢٥٦). أما البيت فهو لطرفة بن العبد.

(٢١٩) المصدر السابق .

ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾
[سورة الإسراء: ٧٤ – ٧٥].

وإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلاة الله وسلامه عليه فكيف بغيره؟[٢٢٠].

(٦) مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين:

قال تعالى:

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾
[سورة القلم: ٩].

والمداهنة والمجاملة والمداراة على حساب الدين أمر وقع فيه كثير من المسلمين اليوم، وهذه نتيجة طبيعية للانهزام الداخلي في نفوسهم. حيث رأوا أن أعداء الله تفوقوا في القوة المادية فآنبهروا بهم، ولأمر ما رسخ وترسب في أذهان المخدوعين أن هؤلاء الأعداء هم رمز القوة ورمز القدوة – فأخذوا ينسلخون من تعاليم دينهم مجاملة للكفار ولئلا يصمهم أولئك الكفرة بأنهم ''متعصبون''! وصدق المصطفى ﷺ، إذ يقول في مثل هؤلاء: «لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم».

قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟[٢٢١].

إن المداهنة والمجاملة قد تبدأ بأمر صغير ثم تكبر وتنمو حتى تؤدي – والعياذ بالله – إلى الخروج من الملة. وهذه إحدى مزالق الشيطان فليحذر المسلم منها على نفسه، وليعلم أنه هو الأعز وهو الأقوى إذا آمتثل منهج الله وتقيد بشرعه ومقتضيات عقيدته.

---

(٢٢٠) «مجموعة التوحيد»: (ص ١١٧) ط. دار الفكر.

(٢٢١) «صحيح البخاري»: (ج١٣/٣٠٠ ح٧٣٢٠) كتاب الاعتصام، و«صحيح مسلم»: (ج٤/٢٠٥٤ ح٢٦٦٩). واللفظ للبخاري.

ومن الأمور الواضحة في تاريخ المسلمين: أن من أكبر العوامل في انتصارهم - بعد الإيمان بالله ورسوله - الاعتزاز بالإسلام. يصدّق ذلك ويؤيده قول الفاروق رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»(٢٢٢).

(٧) اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين:

قال تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ

[سورة آل عمران: ١١٨].

نزلت هذه الآية في أناس من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين، ويواصلون رجلاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والجوار فأنزل الله هذه الآية تنهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم(٢٢٣).

وبطانة الرجل: خاصته، تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم. وقد بيّن الله العلة في النهي عن مباطنتهم فقال: ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، ثم إنهم يودون ما يشق عليكم من الضر والهلاك.

والعداوة التي ظهرت منهم: شتم المسلمين والوقيعة فيهم، وقيل: بإطلاع المشركين على أسرار المسلمين(٢٢٤). وفي سنن أبي داود قوله ﷺ: «الرجل

(٢٢٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (ج١/٦٢) كتاب الإيمان. وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه.
(٢٢٣) «أسباب النزول» للواحدي: (ص ٦٨).
(٢٢٤) انظر «تفسير البغوي»: (٤٠٩/١)، و«تفسير ابن كثير»: (٨٩/٢).

على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[٢٢٥].

(٨) طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به[٢٢٦]:

قال تعالى ناهياً عن ذلك:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾

[سورة الكهف: ٢٨].

وقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝١٤٩﴾

[سورة آل عمران: ١٤٩].

وقال:

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١﴾

[سورة الأنعام: ١٢١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

(﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كما قال تعالى:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

[سورة التوبة: ٣١])[٢٢٧].

---

(٢٢٥) «سنن أبي داود»: (ج٥/١٦٨، ح٤٨٣٣) كتاب الأدب، وفي «المسند»: (ج١٦/١٧٨، ح٨٣٩٨)، طبعة شاكر، والترمذي: (ج٧/١١١، ح٢٣٧٩) في «الزهد»، وقال هـ ا: حديث حسن غريب.

(٢٢٦) «مجموعة التوحيد»: (ص١١٧).

(٩) مجالستهم، والدخول عليهم وقت آستهزائهم بآيات الله:

قال تعالى في النهي عن مجالستهم:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

[سورة النساء: ١٤٠].

قال آبن جرير:

(قوله ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ أي إنكم إذا جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزىء بها وأنتم تسمعون فأنتم مثلهم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها.

وفي الآية دلالة واضحة على النهي عن مجالسة اهل الباطل من كل نوع من الكفرة والمبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم) (٢٢٨).

وفي الحديث: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابكم»(٢٢٩).

(١٠) توليتهم أمراً من أمور المسلمين:

كالإمارة والكتابة وغيرها، والتولية شقيقة الولاية لذلك فتوليتهم نوعاً

(٢٢٧) «تفسير ابن كثير»: (ج٣/٣٢٢).
(٢٢٨) «تفسير الطبري»: (ج٥/٣٣٠).
(٢٢٩) رواه أحمد في «المسند»: (ج٨/٨٠، ح٥٧٠٥) بتحقيق أحمد شاكر، و«صحيح البخاري»: (ج٨/١٢٥، ح٤٤١٩) كتاب المغازي، و«صحيح مسلم»: (ج٤/٢١٨٥، ح٢٩٨٠) كتاب الزهد.

من توليهم. وقد حكم الله أن من تولاهم فإنه منهم. ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم. والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً.

والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً. والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبداً. ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتّاب – مثلاً – ومكاتبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان: لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال. فهذا الملك ''الصالح'' كان في دولته نصراني يسمى: محاضر الدولة أبا الفضل بن دخان ولم يكن في المباشرين أمكن منه. كان قذى في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين. بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار المسلمين، وأعمالهم، وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها.

وكان مجلسه معموراً برسل الفرنج والنصارى وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الإدرار والضيافات، وأكابر المسلمين محجوبون عن الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام. وحدث أن اجتمع في مجلس ''الصالح'' أكابر الناس من الكتّاب والقضاة والعلماء فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى فبسط لسانه في ذلك وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق. وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب، ولا يدرونه على الحقيقة لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً. والله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [سورة المائدة: ٧٣].

وأول أمانتهم وعقد دينهم: ''بسم الآب والابن وروح القدس إله واحد'' فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا
حد رب الورى تعالى ثلاثة

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان ديناراً وأخذ لنفسه اثنين ولا سيما وهو يعتقد ذلك قربة وديانة؟

وانصرف القوم واتفق أن كبت النصراني بطنته، وظهرت خيانته فأريق دمه وسلط على وجوده عدمه[230].

(١١) استئمانهم وقد خونهم الله:

قال تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾

[سورة آل عمران: ٧٥].

(١٢) الرضى بأعمالهم والتشبه بهم، والتزيي بزيهم[231]:

(١٣) البشاشة لهم والطلاقة وانشراح الصدر لهم وإكرامهم وتقريبهم[232].

(١٤) معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم:

ويضرب القرآن لذلك مثالين هما: امرأة لوط التي كانت ردءاً لقومها، حيث كانت على طريقتهم، راضية بأفعالهم القبيحة، تدل قومها على ضيوف لوط. وكذلك فعل امرأة نوح[233].

---

(٢٣٠) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم: (ج١/٢٤٢ ــ ٢٤٤) بتصرف بسيط.

(٢٣١) «مجموعة التوحيد»: (ص١١٧).

(٢٣٢) «مجموعة التوحيد»: (ص١١٧).

(٢٣٣) «تفسير ابن كثير»: (ج٦/٢١٠) وقد سبق الحديث عنهما.

(١٥) مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم[٢٣٤]:

وهذه الصورة ظهرت واضحة في العصور الأخيرة فقد رأينا ''أفراخ المستشرقين'' - مثلاً - ينشرون فضائلهم وأنهم أصحاب المنهج العلمي السديد و.. و.. إلخ. كذلك جاء من ينشر ''فضائل'' الغرب أو الشرق مضفياً عليها ألقاب التقدم والحضارة والرقي، وواصماً الإسلام والمنتسبين إليه بالرجعية والجمود والتأخر عن مسايرة الركب الحضاري والأمم المتقدمة.

(١٦) تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم :

مثل: السادة والحكماء ومبادأتهم بالسلام (ومما يجب النهي عنه ما يفعله كثير من الجهال في زماننا إذا لقي أحدهم عدوًا لله سلم عليه ووضع يده على صدره إشارة إلى أنه يحبه محبة ثابتة في قلبه. أو يشير بيده إلى رأسه إشارة إلى أن منزلته عنده على الرأس، وهذا الفعل المحرم يُخشى على فاعله أن يكون مرتداً عن الإسلام؛ لأن هذا من أبلغ الموالاة والموادة والتعظيم لأعداء الله) [٢٣٥].

والتعظيم واللقب الرفيع رمز للعزة والتقدير وهما مقصورتان على المؤمن. أما الكافر فله الإهانة والذلة. وقد ورد في الحديث الصحيح النهي عن مبادأتهم بالسلام فقال ﷺ: «لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»[٢٣٦] وسيأتي تفصيل هذه القضية في الباب الثاني.

(١٧) السكنى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم[٢٣٧]:

---

(٢٣٤) «مجموعة التوحيد»: (ص١١٧)، ورسائل سعد بن عتيق: (ص١٠١).

(٢٣٥) «تحفة الإخوان» للشيخ حمود التويجري. (ص١٩)، الطبعة الأولى، مؤسسة النور بالرياض.

(٢٣٦) «صحيح مسلم»: (ج٤/١٧٠٧، ح٢١٦٧) كتاب السلام، وأبو داود: (ج٥/٣٨٤، ح٥٢٠٥) في الأدب.

(٢٣٧) «الرسائل المفيدة» للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: (ص٦٤).

قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»[238]. وقال: «لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منا»[239]. وسوف يأتي - بمشيئة الله - في الباب الثاني تفصيل لهذه المسألة إذا كانت هناك ضرورة لهذه المساكنة.

(١٨) التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم، والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم، والتجسس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم، والقتال في صفهم[240]:

وهذه الصورة من أخطر ما ابتليت به أمتنا في هذا العصر. ذلك أن وجود ما يسمى في المصطلح الحديث "الطابور الخامس" قد أفسد أجيال الأمة في كل مجال سواء في التربية والتعليم أم في السياسة وشؤون الحكم أم في الأدب والأخلاق أم في الدين والدنيا معاً. وصدق الشاعر محمود أبو الوفا فيما نقله عنه أستاذنا الفاضل الشيخ محمد قطب أنه قال حين خرج الاستعمار الانجليزي من مصر: (خرج الانجليز الحمر وبقي الانجليز السمر!!) — نعم إن داءنا هم الانجليز السمر.

ترى من هو الساهر على تنفيذ خطة «دنلوب» في التربية والتعليم؟ ومن هو القائم بتنفيذ مخططات اليهود الثلاثة: فرويد وماركس ودور كايم في أفكارهم الخبيثة؟[241]. إنهم المستغربون من أبناء هذه الأمة الذين حققوا

---

(٢٣٨) أبو داود: (ج٣/٢٢٤، ح٢٧٨٧) كتاب الجهاد وقال الشيخ الألباني: حديث حسن، انظر صحيح الجامع الصغير: (ج٦/٢٧٩، ح٦٠٦٢).

(٢٣٩) الحاكم في «المستدرك»: (ج٢/١٤١)، وقال صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢٤٠) «الإيمان، حقيقته، أركانه، نواقضه» للدكتور محمد نعيم ياسين: (ص١٤٧).

(٢٤١) يراجع كتاب «التطور والثبات في حياة البشرية» للأستاذ محمد قطب: (ص٣٥) —

لأعداء الله ما لا يحملون به. ولكن هيهات لهم فإن الله يقول:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

[سورة الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

(١٩) من هرب من دار الإسلام إلى دار الحرب بغضاً للمسلمين وحباً للكافرين[٢٤٢].

(٢٠) من انخرط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية كالشيوعية والاشتراكية والقومية والماسونية وبذل لها الولاء والحب والنصرة[٢٤٣].

ما يقبل من الأعذار وما لا يقبل في هذه الصور

قد يعتذر بعض الموالين للكفار بأنهم يخافون على سلطانهم وأموالهم ومراكزهم وغير ذلك من المخاوف التي لا تصح، ولا يعتبرها الله، عذراً لهم فيعذرهم من أجلها. لأنها جميعاً من تزيين الشيطان وتسويله، وحب الدنيا والطمع في زينتها.

والله سبحانه وتعالى لم يقبل عذراً لأحد في إظهار موالاته للكفار وطاعتهم وموافقتهم على دينهم إلا عذراً واحداً هو: **الإكراه**.

قال تعالى:

= فصل: اليهود الثلاثة، وكتاب «هل نحن مسلمون؟»: (ص١٣٣)، وكتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٢٤٢) «الردة بين الأمس واليوم»: (ص٣٣).

(٢٤٣) المصدر السابق: (ص٤٠).

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

[سورة النحل: ١٠٦ - ١٠٧].

وقال سبحانه:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾

[سورة آل عمران: ٢٨].

والإكراه لا ينفع أحداً فيما يتعلق بالرضى القلبي، والميل الباطني إلى الكفار لأنه غير مأذون فيه على أية حال لقوله تعالى: ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ ولأن الإكراه لا سلطان له على القلوب. فإنه لا يعلم ما في القلب إلا ٱلله.

فمن والى الكفار بقلبه ومال إليهم فهو كافر على كل حال. فإن أظهر موالاته بلسانه أو بفعله عومل في الدنيا بكفره وفي الآخرة يخلد في النار، وإن لم يظهرها بفعل ولا قول وعمل بالإسلام ظاهراً عصم ماله ودمه وهو منافق في الدرك الأسفل من النار[٢٤٤].

موقف المسلم تجاه هذه الصور :

الولاء والبراء هو الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة وهو مفهوم ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة.

(٢٤٤) انظر «الإيمان» للدكتور محمد نعيم ياسين: (ص١٤٧ ــ ١٤٨).

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

[سورة البقرة: ٢٥٦].

والله جلَّ جلاله أراد للمسلم – بل للإنسان – الكرامة في هذه الأرض

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾

[سورة الإسراء: ٧٠].

فحين يكون ولاء المسلم لله ولدينه وحزبه المؤمنين فهو بهذا يقدّر هذا التكريم حق قدره، ويعبد الله حق عبادته، لأنه تخلى بل وعادى كل عبودية تريد إخضاعه لسلطانها من دون الله.

أما حين ينتكس فيعبد غير الله – سواء بالشعائر أم بالشرائع أم بالطاعة والانقياد – فإنه بهذا يهبط من تلك المكانة والكرامة إلى عبودية أهواء شتى، وآراء ومذاهب تمزق عليه حياته وتضيع عليه آخرته، فيعيش شقيًّا – وإن زعم أنه سعيد –، ذلك أن مقياس السعادة والشقاوة في التصور الإسلامي، نابع من عبادة الله وحده، وتحكيم شرعه، والخلوص له. أو عكس ذلك: عبادة الطاغوت والهوى والشهوة وتلك هي دركات الشقاء التي يعيش فيها كل من أعرض عن هدى الله ودينه.

وموالاة غير المؤمنين – فضلاً عن أنها رِدَّة وعصيان لله سبحانه – هي مصدر التذبذب والفصام النكد في حياة فاعلها، لأنه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وفي هذا العصر الذي اختلطت فيه المفاهيم، واضطربت فيه الآراء، وخلط الحق بالباطل بل أقصي الحق ورفعت شارة الباطل: أين يقف المسلم؟ أين يكون ولاؤه؟ ولمن يكون؟ وهو يرى الكفر الصريح معلناً ومنفذاً في حياة الناس ثم يوضع لذلك ''لافتة بسيطة'' إن هذا لا يتعارض مع الإسلام؟

ومثال ذلك من يدين بالاشتراكية أو الديمقراطية أو العلمانية أو القومية أو الشيوعية ثم يقال: هذا لا يعارض الإسلام لأنه علاقة بين العبد وربه. لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى شرع آلله معبداً من الأرض ومحارباً، ثم يستورد القانون البشري ليكون هو دستور الناس في حياتهم ومنهج مسيرتهم ويقال: إن هذا لا يعارض الإسلام لأن التشريع الإسلامي - سواء قيلت بلسان الحال أو المقال - لم يعد مسايراً لركب الحضارة والتطور؟!

لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى المنافقين يتمسحون بآسم الإسلام وهم في الحقيقة أخطر على الدين من أعدائه الصرحاء؟

هذه أسئلة وأسئلة غيرها كثيرة.. والإجابة عليها تكمن في الحقيقة التالية: إنه لا يمكن للمسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه وللمؤمنين خالصاً إلا إذا كان مدركاً لحقيقة التوحيد ''لا إله إلا آلله محمد رسول آلله'' ممتثلاً لها، مدركاً مدلولها ومعناها عارفاً بمقتضياتها ولوازمها.

ثم علمه بالجاهلية والشرك والكفر والردة والنفاق حتى لا يكون مصيدة للوقوع في هذا الشر. لأنه لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

ثم علمه بحقيقة الولاء والبراء في المفهوم الإسلامي الصحيح وهو: أن الولاء والحب والنصرة للمؤمنين من أي جنس كانوا وبأي لغة نطقوا وفي أي مكان حلوا، لأنه لا يؤمن بما تؤمن به الجاهليات من لوثة الدم ونتن العرق وخسة التراب.

فهو مع إخوانه المؤمنين بقلبه ولسانه وماله ودمه، يألم لألمهم ويفرح لفرحهم، وبغضه وبراءه لجميع أعداء آلله، سواء كانوا كفاراً أصليين أم مرتدين أم منافقين، وموقفه منهم: الجهاد بالنفس والمال والقلم واللسان وكل ما أوتي من طاقة وعلى حسب جهده وطاقته.

إن هذه الحقيقة هي التي - إذا أدركها المسلم وعمل بها - يستطيع بها

أن يحدد موقفه من كل صورة من الصور السابقة وغيرها، فيعرف من يوالي ومن يعادي، وماذا يريد الإسلام منه وماذا يراد للإسلام من أعدائه.

وهو بهذا يكون مسلماً واعياً عزيزاً بعزة الله غير واهن ولا حزين لأن الله معه وهو القائل:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

[سورة آل عمران: ١٣٩].

ومن كان الله معه فلن تضيره أن تجتمع البشرية بكاملها لأن تضره، فهي بمجموعها لا تستطيع ذلك، إلا إذا كان الله يريد له ذلك، وإلا فهي أعجز من أن تنال منه شيئاً بسيطاً بغير قدر الله وإرادته.

---

(٢٤٥) حبذا مراجعة كتاب «هل نحن مسلمون؟»: (ص٤٧).

الفصل الثامن

الرد على الخوارج والرافضة
في عقيدة الولاء والبراء

قد يقول بعض من لا يدرك حقيقة العقيدة، ولا يعي مفاهيم ''لا إلٰه إلا ٱلله'': إن مصطلح الولاء والبراء من مصطلحات الخوارج والشيعة فكيف يدرج في معتقد السّلف الذين هم أُهل السنّة والجماعة؟

والجواب على هذا الاعتراض: من عدة وجوه:

(١) نحن مطالبون بما ورد في كتاب ٱلله وسنّة رسوله ﷺ فهما عقيدتنا وشريعتنا ونظام حياتنا، وأحسب أني قد ذكرت عدداً كبيراً جدًّا من عشرات الآيات في الولاء والبراء وعشرات الأحاديث النبوية الصحيحة في هذه القضية.

(٢) من منطلق عقيدة سلفنا الصالح نقول: لسنا مستعدين للتنازل عن أي أمر من أمور ديننا الصغيرة فضلاً عن أمور العقيدة الكبرى لأجل أن ناعقاً أخذ بعض مصطلحاتنا وبنى عليها مفاهيمه البدعية المنكرة.

(٣) هل يستطيع مسلم يؤمن بكتاب ٱلله وسنّة رسوله أن يقول إن إبراهيم عليه السلام – وهو القدوة الأولى في الولاء والبراء كما ذكرنا – ٱستخدم مصطلحات الخوارج والرافضة الذين جاءوا بعده بآلاف السنين؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

(٤) إن قضية الولاء والبراء باعتبارها مبدأ عقدي: مبدأ صحيح لا غبار عليه ورد به كتاب ٱلله وسنّة نبي ٱلله ولكن الخطأ كل الخطأ والبدعة كل البدعة هو ما بنى عليه هؤلاء السفهاء – من خوارج ورافضة – من

مفاهيم سقيمة خرجوا بها عن النصوص الصريحة وإجماع الأمة المحمدية.

وصدق القائل:

وما ضر الورود وما حوته
إذا المزكوم لم يطعم شذاها

معتقد الخوارج في هذه القضية

أما الخوارج فهم الذين قال فيهم إمام السنّة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه:

(هم الذين مرقوا من الدين، وفارقوا الملة، وشردوا عن الإسلام، وشذوا عن الجماعة فضلوا السبيل والهدى، وخرجوا على السلطان، وسلوا السيف على الأمة، وآستحلوا دماءهم وأموالهم، وعادوا من خالفهم إلا من قال بقولهم. وكان على مثل قولهم ورأيهم، وثبت معهم في بيت ضلالتهم، وهم يشتمون أصحاب محمد ﷺ وأصهاره وأختانه، ويتبرأون منهم، ويرمونهم بالكفر والعظائم، ويرون خلافهم في شرائع الإسلام.. يقولون من كذب كذبة، أو أتى صغيرة أو كبيرة من الذنوب فمات من غير توبة: فهو في النار خالداً مخلداً أبداً.. وهم قدرية جهمية مرجئة رافضة، لا يرون الجماعة إلا خلف إمامهم.. ولا يرون للسلطان عليهم طاعة، ولا لقريش عليهم خلافة. وأشياء كثيرة يخالفون عليها الإسلام وأهله. وكفى بقوم ضلالة: أن يكون هذا رأيهم ومذهبهم ودينهم وليسوا من الإسلام في شيء. ومن أسمائهم الحرورية وهم أصحاب حروراء[٢٤٧] وأزارقة: وهم أصحاب نافع بن الأزرق.. والنجدية: وهم أصحاب نجدة بن عامر الحروري.. والاباضية.. والصفرية وغيرهم.. كل هؤلاء خوارج، فساق مخالفون للسنّة، خارجون من

(٢٤٦) قرية بالكوفة كانت بها وقعة على الخوارج بقيادة نجدة بن عامر. انظر هامش «السنّة» للإمام أحمد: (ص٨٤) وكتب الفرق.

الملة، أهل بدعة ضلالة) [٢٤٨].

وفرقة الخوارج قد آنحرفت في مفهوم الولاء والبراء فهي لا تتولى إلا من يدين بنحلتها القائمة على تكفير مرتكب الدنوب وحاصة الكبائر. وموقفهم من صحابة رسول آلله ﷺ أنهم يتولون أبا بكر وعمر ويتبرأون من عثمان وعليّ[٢٤٩].

وخلاصة القول في الرد عليهم: أن أهل السنّة والجماعة يتبرأون منهم بسبب بدعتهم الضالة. ولا يتولونهم في شيء.

أما الولاء والبراء بمفهومه الصحيح فهو ما عليه أهل السنّة والجماعة، ولا يضيرهم أن الخوارج قالوا بقضية الولاء والبراء. لأن العبرة ليست في العناوين والشعارات، بل في المفاهيم والتصورات التي توافق الكتاب والسنّة أو تناقضها، ومن هنا فإن ولاء الخوارج وبراءهم الذي يعتقدونه: إنما هو بحسب أهوائهم وليس متفقاً مع نصوص الكتاب والسنّة.

معتقد الرافضة في الولاء والبراء

وأما الرافضة: فهم الذين يتبرأون من أصحاب محمد ﷺ ويسبونهم وينتقصونهم، ويكفرون الأئمة إلاّ أربعة: علياً، وعمار، والمقداد، وسلمان[٢٥٠].

وقال الأشعري: إنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر[٢٥١].

ولئن كان الخوارج قد آنحرفوا في الأمور التي ذكرناها آنفاً عنهم: فإن

---

(٢٤٧) كتاب «السنّة» للإمام أحمد: (ص٨٣ ـ ٨٥) تصحيح إسماعيل الأنصاري (بتصرف بسيط).

(٢٤٨) «التنبيه والرد» للملطي: (ص٥٣).

(٢٤٩) «السنّة» للإمام أحمد: (ص٨٢). وفي قوله: يكفرون الائمة الأربعة نظر فلعل الصواب: إلاّ أربعة.

(٢٥٠) «مقالات الإسلاميين»: (ج١/٨٩)

الرافضة أيضاً لا يقلُّون جرماً عنهم، حيث وقفوا من أصحاب رسول آلله ﷺ موقفاً مشيناً، ولعبت بهم الأيدي اليهودية الممثلة في شخصية عبد آلله بن سبأ التي أخذت تنصب حيالات من الحب الكاذب لآل البيت، وتتبرأ من بقية أصحاب رسول آلله ﷺ وتعاديهم، مع أن آل البيت براء مما ألصقه بهم هؤلاء الرافضة.

قال آبن كثير:

(إن الطائفة المخذولة - الرافضة - يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم عياذاً بآلله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم مكوسة فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي آلله عنهم[٢٥٢]؟ أما أهل السنّة فإنهم يترضون عمن رضي آلله عنه، ويسبون من سبه آلله ورسوله، ويوالون من يوالي آلله ويعادون من يعادي آلله. وهم متبعون لا مبتدعون) [٢٥٣].

والرافضة تقول: لا ولاء إلا ببراء: أي لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر. رضي آلله عنهما![٢٥٤].

ولكن لا غرابة في ذلك من زمرة فضائحها في الكتب مسطورة. فقد كانت الرافضة على طول تاريخها حرباً على أهل الإسلام، يوالون أعداء المسلمين من تتار وصليبيين وغيرهم. قال شيخ الإسلام آبن تيمية: الرافضة توالي من حارب أهل السنّة والجماعة، فهم يوالون التتار ويوالون النصارى. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة، حتى صارت الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم، وغلمان السلطان، وغيرهم من

---

(٢٥١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين آتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [سورة التوبة: ١٠٠].

(٢٥٢) «التفسير»: (ج٤/١٤٢).

(٢٥٣) «شرح الطحاوية»: (ص٥٣٢).

الجند والصبيان. وإذا آنتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا آنتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور. وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة، وقتل أهل بغداد.

ووزير بغداد آبن العلقمي الرافضي هو الذي حامر على المسلمين وكاتب التتار، حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، ونهى الناس عن قتالهم.

(وقد عرف العارفون بالإسلام: أن الرافضة تميل مع أعداء الدين، ولما كانوا ملوك القاهرة كان وزيرهم مرة يهوديًّا، ومرة نصرانيًّا أرمينيًّا، وقويت النصارى بسبب ذلك النصراني الأرميني، وبنوا كنائس كثيرة بأرض مصر في دولة أولئك الرافضة المنافقين، وكانوا ينادون بين القصرين: من لعن وسب فله دينار وإردب.

وفي أيامهم أخذت النصارى ساحل الشام من المسلمين حتى فتحه نور الدين وصلاح الدين) (٢٥٥).

ومن أحفادهم في الوقت الحاضر النصيرية الكافرة التي آبتلي بها المسلمون، ذلك أن كفرها أشد من كفر اليهود والنصارى كما قرر ذلك شيخ الإسلام آبن تيمية وغيره. وهم الذين كانوا أداة طيّعة للاستعمار الفرنسي في غزوه لبلاد الشام. ويشنون اليوم حرباً شرسة على المسلمين في ديارهم وبعد: فإن أهل السنّة والجماعة هم الذين يحبون أصحاب رسول آلله ﷺ، ولا يفرطون في حب أحد منهم، ويتولونهم جميعاً ولا يتبرأون من أحد منهم،

---

(٢٥٤) «الفتاوى»: (ج٢٨/٦٣٦ ــ ٦٣٧).

ويبغضون من يبغضهم ويرون أن حبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان[٢٥٦].

وهم براء من الخوارج والرافضة ومن كل الفرق الضالة.

---

(٢٥٥) انظر «الطحاوية مع شرحها» (ص٥٢٨)، وقد اطلعت — بعد كتابة هذا الكتاب — على كتاب قيّم كشف أستار الشيعة ويفضحهم في عصرنا الحاضر وخصوصاً زعيمهم (الخميني) ذلك الكتاب هو «وجاء دور المجوس» لمؤلفه الدكتور عبد الله محمد الغريب، وهو كتاب قيّم في موضوعه فليراجعه من شاء ليستبين زيف باطلهم و خططهم ضد أهل السنّة والجماعة.

الباب الثاني

من مقتضيات الولاء والبراء

من مقتضيات الولاء والبراء

سبق القول في أول البحث: أن الولاء أصله: الحب، والبراء أصله: البغض، وينشأ عنهما من أعمال الجوارح ما يؤيد صدق ذلك الحب أو يكذبه، وما يؤيد ذلك البراء أو ما يبطل زعمه.

والحب عنصر أصيل في التصور الإسلامي، دليل ذلك قول المولى جلّ وعلا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾

[سورة مريم: ٩٦].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

[سورة هود: ٩٠].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾

[سورة البروج: ١٤].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾

[سورة البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

[سورة آل عمران: ٣١].

ذلك أن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية لا تجفف ذلك النداء الحبيب بين ٱلله وعباده، فهي علاقة الرحمة، والعدل والود وليست كما يدعي أعداء ٱلله: أن العلاقة بين العبد وربه علاقة جافة وعنيفة، علاقة قهر وقسر، وعذاب وعقاب، وجفوة وٱنقطاع!

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا

[سورة الكهف: ٥].

وحب آلله لعبد من عبيده أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من عرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه وكما وصفه رسوله، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره.

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها. وإذا كان حب آلله لعبد من عبيده أمراً هائلاً عظيماً، وفضلاً غامراً جزيلاً، فإن إنعام آلله على العبد بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل هو إنعام هائل عظيم(١).

ومن نعمة آلله على عباده المؤمنين أن جعل المحبة فيه هي الوشيجة العظمى بينهم، وهي المورد العذب الذي ينهلون منه جميعاً، ثم جعل سبحانه وجود المحبة للقوم ولما يلحق بهم المحب سبيلاً للحاق بهم يؤيد ذلك قوله ﷺ: «المرء مع من أحب»(٢). وقال عبد آلله بن مسعود رضي آلله عنه: جاء رجل إلى رسول آلله ﷺ فقال: يا رسول آلله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول آلله ﷺ: «المرء مع من أحب»(٣).

وعن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول آلله؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة

---

(١) «الظلال»: (ج٩١٨/٢ ــ ٩١٩) بتصرف.

(٢) «صحيح البخاري»: (ج٥٥٧/١٠، ح٦١٦٨) كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله.

(٣) «صحيح البخاري»: (ج٥٥٧/١٠، ح٦١٦٩) كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، و«صحيح مسلم»: (ج٢٠٣٤/٤، ح٢٦٤٠) كتاب البرّ.

ولكني أحب آلله ورسوله قال: «أنت مع من أحببت»[٤].

على أن من الواجب ذكره هنا: أن هذا الحب ليس مجرد أماني أو أحلام تناقضها الأفعال القبيحة. أو ''هرطقة'' رقعاء الصوفية أو.. أو.. إلخ وإنما هو حب بالقلب وعمل بالجوارح قال آلله تعالى:

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

[سورة النساء: ١٢٣].

وقال:

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

[سورة آل عمران: ٣١].

قال الحسن: لا تغتر بقولك: المرء مع من أحب إن من أحب قوماً آتبع آثارهم، ولن تلحق الأبرار حتى تتبع آثارهم، وتأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتمسي وتصبح وأنت على مناهجهم، حريصاً أن تكون منهم، وتسلك سبيلهم وتأخذ طريقهم، وإن كنت مقصراً في العمل فإن ملاك الأمر أن تكون على آستقامة، أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء الرديَّة يحبون أنبياءهم وليسوا معهم لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقتهم فصار موردهم النار؟[٥].

والمحبة تنقسم إلى اربعة أقسام [٦]:

---

(٤) «صحيح البخاري»: (ج١٠/٥٥٧، ح٦١٧١) كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، و«صحيح مسلم»: (ج٤/٢٠٣٢، ح٢٦٣٩) كتاب البرّ.

(٥) «الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبيّ: بعثت بالسيف بين يدي الساعة» لابن رجب: (ص١٣٣) تحقيق محمد حامد الفقي.

(٦) ذكر ذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب: «مجموعة التوحيد»: (ص١٧)، طبعة دار الفكر.

(١) محبة شركية: وأصحابها هم الذين قال ٱلله فيهم:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

[سورة البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

(٢) حب الباطل وأهله، وبغض الحق وأهله وهذه صفة المنافقين.

(٣) محبة طبيعية: وهي محبة المال والولد إذا لم تشغل عن طاعة ٱلله ولا تعن على محارم ٱلله فهي مباحة.

(٤) حب أهل التوحيد وبغض أهل الشرك: وهي أوثق عرى الإيمان، وأعظم ما يعبد به العبد ربه.

وما دامت المحبة في ٱلله هي أوثق عرى الإيمان كما ورد في الحديث «أوثق عرى الإيمان الحب في ٱلله والبغض في ٱلله»(٧) فإن الطريق الموصل إليها وإلى موالاة ٱلله عزَّ وجلَّ هو: ٱتباع شرعه الذي جاء به محمد ﷺ، وبغير هذا الطريق تكون دعوى الولاية كاذبة كما كان المشركون يتقربون إلى ٱلله تعالى بعبادة من يعبدونه من دونه كما قال ٱلله عنهم:

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ

[سورة الزمر: ٣].

وكما حكى عن اليهود والنصارى أنهم قالوا:

---

(٧) سبق تخريجه في التمهيد: ص٤٣.

﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [سورة المائدة: ١٨].

مع إصرارهم على تكذيب رسله وارتكاب مناهيه وترك فرائضه[٨].

ومتى آمتلأ القلب بعظمة آلله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه وإرادته إلا ما يريده منه مولاه، فإذا تحقق القلب بالتوحيد التام لم يبق فيه محبة لغير آلله، ولا كراهة لغير ما يكره آلله، ومن كان كذلك لم تنبعث جوارحه إلا بطاعة آلله، وإنما تنشأ الذنوب من محبة ما يكره آلله، أو كراهة ما يحبه آلله وذلك ينشأ من تقديم هوى النفس على محبة آلله وخشيته[٩].

ويصور شيخ الإسلام آبن تيمية رحمه آلله عظمة محبة آلله ولذتها فيقول:

(إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة) . وقال بعضهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة آلله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه[١٠].

أما البغض في آلله فهو أمر ملازم للحب في آلله لا ينفصل عنه، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يوالي محبوبه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عمّا ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك.

ومعلوم أن من أحب آلله المحبة الواجبة فلابد أن يبغض أعداءه، ولابد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى:

---

(٨) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: (ص٣١٦).

(٩) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: (ص٣٢٠).

(١٠) «مدارج السالكين»: (ج١/٤٥٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾

[سورة الصف: ٤].

وقد وصف المولى سبحانه وتعالى عباده الذين يحبهم ويحبونه فقال:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

[سورة المائدة: ٥٤].

أي إنهم يعاملون المؤمنين بالذلة واللين وخفض الجناح، ويعاملون الكافرين بالعزة والشدة عليهم، والغلظة لهم. فهم يحبون من أحبه ٱلله فيعاملونه بالمحبة والرأفة واللين، ويبغضون أعداء ٱلله الذين يعادونه فيعاملونه بالشدة والغلظة كما قال تعالى:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾

[سورة الفتح: ٢٩].

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾

[سورة المائدة: ٥٤].

وأعداء ٱلله لهم البغض ولهم من المؤمنين الجهاد:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾

[سورة التوبة: ١٤].

ومن هنا فإن من مقتضيات الولاء والبراء: حق المسلم على المسلم. فما هو ذلك الحق؟

---

(١١) انظر «التحفة العراقية»: (ص٦٤ ــ ٦٥).

(١٢) انظر «جامع العلوم والحكم»: (ص٣١٧).

الفصل الأول

حق المسلم على المسلم

قلنا: إن المحبة في ٱلله هي الوشيجة العظمى التي ٱلتقى عليها المؤمنون، ويلتقون عليها إلى أن يرث ٱلله الأرض ومن عليها. وعلى هذه الوشيجة تنبني حقوق المسلم على المسلم، وهي كثيرة جدًّا: النصرة، والمودة، والزيارة، والإكرام، والسلام، وحماية العرض، والمواساة وغير ذلك مما هو منصوص عليه في الكتاب والسنّة.

ولكن الحقوق التي أتحدث عنها هي ما يتعلق بموضوع البحث. ومن هذه الحقوق:

(١) **المودة**: وهذه للمؤمنين من بعضهم لبعض، فليس للكافر ولا للفاسق ولا للمبتدع فيها نصيب، ومن هذه المودة حب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه[١٣].

(٢) **النصرة**: وهذه واجب أخوي إيماني على كل مسلم لأخيه المسلم من أي جنس كان وفي أي أرض حل، وبأي لون كان، ينصره بنفسه وبماله وبالذب عن عرضه ولذلك ورد التهديد لمن يترك ذلك وهو قادر عليه. قال ﷺ: «ما من ٱمرىء يخذل ٱمرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله ٱلله في موطن يحب فيه نصرته وما من ٱمرىء ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من

(١٣) «صحيح البخاري»: (ج١/٥٧، ح١٣) كتاب الإيمان، و«صحيح مسلم»: (ج١/٦٧، ح٤٥) كتاب الإيمان.

حرمته إلا نصره ٱلله في موطن يحب نصرته»[١٤].

وقد ٱمتدح سبحانه وتعالى الأنصار رضوان ٱلله عليهم في نصرتهم لأخوانهم المهاجرين فقال سبحانه:

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

[سورة الأنفال: ٧٤].

ومن الأوامر النبوية في شأن النصرة قوله ﷺ: «ٱنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[١٥]. ونصرته إذا كان مظلوماً ظاهرة أما نصرته إذا كان ظالماً فبردعِهِ عن الظلم ومنعه عنه. وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان ٱلله عزَّ وجلَّ في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج ٱلله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلماً ستره ٱلله يوم القيامة» متفق عليه[١٦].

والمسلم داخل المجتمع الإسلامي ما هو إلا عضو عامل كأي عضو من أعضاء الجسد فإذا حصل لهذا العضو مرض أو ٱختل عمله تأثر لذلك بقية الجسد، ويصور ذلك المصطفى ﷺ في قوله الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[١٧]. وقوله: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم

---

(١٤) أبو داود: (ج٥/١٩٧، ح٤٨٨٤) كتاب الأدب، و«المسند»: (ج٤/٣٠). وقال الألباني: حديث حسن، انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج٥/١٦٠، ح٥٥٦٦).

(١٥) «صحيح البخاري»: (ج٥/٩٨، ح٢٤٤٣) كتاب المظالم.

(١٦) «صحيح البخاري»: (ج٥/٩٧، ح٢٤٤٢) كتاب المظالم، و«صحيح مسلم»: (ج٤/١٩٩٦، ح٢٥٨٠) كتاب البرّ والصلة.

(١٧) سبق تخريجه: ص١٨٧.

مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[١٨].
وقال أيضاً: «المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه»[١٩].

ولو أردنا تتبع كل النصوص في هذا الشأن لطال الحديث أكثر من هذا.
وسيرة المصطفى ﷺ وأصحابه وخير القرون بعده والذين سلكوا سبيله واهتدوا بهديه على مدار التاريخ الإسلامي: تؤكد هذه الحقيقة الهامة.

ولقد كان التحام المسلمين ونصرة كل منهم لأخيه مثالاً فريداً في تاريخ التلاحم والتواصل والتناصر سواء على مستوى الأمة أم الأفراد. حيث حققوا الموالاة والمعاداة على أوضح صورها.

ولن ينتصر المسلمون إلا إذا تحقق فيهم – بعد صفاء العقيدة ووضوحها – حب المسلم لأخيه كحبه لنفسه، وشعوره بآلام أخيه كشعوره بما يصيبه هو، وحب نصرته كما يحب أن ينصره هو، والله ينصر من ينصره إن الله لقوي عزيز.

وتتحقق النصرة بعدة أمور منها: الدفاع بالنفس عن الأخ المسلم وكسر شوكة الظالمين وبذل المال له لإعزازه وتقوية جانبه، والذبّ عن عرضه وسمعته والرد على أهل الباطل الذين يريدون خدش كرامة المسلمين. والدعاء للمسلم بظاهر الغيب بالنصر والتوفيق وتسديد الخطى، وتتبع أخبار المسلمين في أنحاء المعمورة والوقوف على أحوالهم ودعمهم بقدر الاستطاعة.

كل هذه الأمور تحقق للإنسان ولاءه لأخوانه المسلمين وتجعله عضواً عاملاً صالحاً في جسم الكيان الإسلامي.

---

(١٨) سبق تخريجه: ص١٩٢.
(١٩) «الأدب المفرد» للبخاري: (ص٧٠)، وأبي داود: (ج٥/٢١٧، ح٤٩١٨) كتاب الأدب، والحديث حسن. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج٦/٦، ح٦٥٣٤).

الفصل الثاني
الهجـــرة

هذا الفصل له أهمية خاصة، ذلك أن الهجرة مرتبطة بالولاء والبراء، بل هي من أهم تكاليفهما. والحديث فيها متشعب لذلك سأقسمه إلى الفقرات التالية:

(أ) الإقامة في دار الكفر وحكم ذلك.

(ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

(أ) الإقامة في دار الكفر :

لابد لنا أولاً أن نعرف دار الكفر ودار الإسلام. فقد قال أهل العلم رحمهم الله:

إن دار الكفر: هي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر، ويكون النفوذ فيها للكفار وهي على نوعين:

(١) بلاد كفار حربيين.

(٢) بلاد كفار مهادنين بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة. فتصير إذا كانت الأحكام للكفار: دار كفر، ولو كان بها كثير من المسلمين[٢٠].

ودار الإسلام: هي التي يحكمها المسلمون، وتجري فيها الأحكام الإسلامية ويكون النفوذ فيها للمسلمين ولو كان جمهور أهلها كفاراً[٢١].

---

(٢٠) «الفتاوى السعدية» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي: (ج١/٩٢)، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٨هـ، دار الحياة بدمشق.

(٢١) المصدر السابق: (ج١/٩٢).

ولما كان الإسلام هو دين العزة ودين القوة: فإنه قد أبى على معتنقيه أن يُستذلوا للكفار، ولذلك جاء المنع من الإقامة بين ظهراني غير المسلمين، لأن إقامته بينهم تشعره بالوحدة والضعف وتربي فيه روح الاستخذاء والاستكانة، وقد تدعوه إلى المحاسنة ثم المتابعة. والإسلام يريد للمسلم أن يمتلىء قوة وعزّة وأن يكون متبوعاً لا تابعاً، وأن يكون ذا سلطان ليس فوقه إلا سلطان ٱلله لذلك حرم الإسلام على المسلم أن يقيم في بلد لا سلطان للإسلام فيه إلا إذا ٱستطاع أن يظهر إسلامه ويعمل طبقاً لعقيدته دون أن يخشى الفتنة على نفسه، وإلا فعليه أن يهجر هذا البلد إلى بلد يعلو فيه سلطان الإسلام فإن لم يفعل فالإسلام بريء منه مادام قادراً على الهجرة. وفي ذلك كله يقول المولى سبحانه:

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

[سورة النساء: ٩٧ – ٩٩].

وقال ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قيل: يا رسول ٱلله، و لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما»[٢٢]. وقال: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»[٢٣]. ويقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[٢٤] [٢٥].

---

(٢٢) سبق تخريجه: (ص٢٢٤).

(٢٣) سبق تخريجه: (ص٢٤٧).

(٢٤) «المسند»: (ج٤/٩٩)، وأبي داود: (ج٣/٧، ح٢٤٧٩) كتاب الجهاد، والدارمي: (ج٢/٢٣٩) كتاب السير. وقال الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج٦/١٨٦، ح٧٣٤٦).

(٢٥) انظر «الإسلام وأوضاعنا القانونية» للأستاذ عبد القادر عودة: (ص٨١).

وقال الحسن بن صالح:

(من أقام في أرض العدو وإن آنتحل الإسلام وهو يقدر على التحويل إلى المسلمين فأحكامه أحكام المشركين، وإذا أسلم الحربي فأقام ببلادهم وهو يقدر على الخروج فليس بمسلم، يحكم فيه بما يحكم على أهل الحرب في ماله ونفسه) (٢٦).

وقال الحسن:

(إذا لحق الرجل بدار الحرب ولم يرتد عن الإسلام فهو مرتد بتركه دار الإسلام) (٢٧).

وقال آبن حزم:

(من لحق بدار الكفر والحرب مختاراً محارباً لمن يليه من المسلمين: فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها: من وجوب القتل عليه متى قدر عليه، ومن إباحة ماله وآنفساخ نكاحه وغير ذلك.

وأما من فرَّ إلى أرض الحرب لظلم خافه، ولم يحارب المسلمين، ولا أعان عليهم، ولم يجد في المسلمين من يجيره، فهذا لا شيء عليه، لأنه مضطر مكره.

أما من كان محارباً للمسلمين معيناً للكفار بخدمة أو كتابة فهو كافر.

وإن كان إنما يقيم هنالك لدنيا يصيبها وهو كالذمي لهم، وَهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين وأرضهم فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عذراً، ونسأل آلله العافية.

---

(٢٦) «أحكام القرآن» للجصاص: (ج٣/٢١٦).

(٢٧) «أحكام القرآن» للجصاص: (ج٣/٢١٦).

(*) هكذا بالأصل والذي يظهر لي أن الصواب: مجاهراً لأن الكافر لا يسمى مجاهداً.

وأما من سكن في أرض القرامطة مختاراً فكافر بلا شك لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام. وأما من سكن في بلد تظهر فيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر فهو ليس بكافر لأن آسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد والإقرار برسالة محمد ﷺ والبراءة من كل دين غير الإسلام وإقامة الصلاة وصيام رمضان وسائر الشرائع التي هي الإسلام والإيمان.

وقول رسول الله ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين» يبيّن ما قلناه، وأنه عليه السلام، إنما عنى بذلك دار الحرب، وإلا فقد آستعمل عليه السلام عماله على خيبر وهم كلهم يهود.

ولو أن كافراً مجاهداً(°) غلب على دار من دور الإسلام، وأقر المسلمين بها على حالهم إلا إنه هو المالك لها، المنفرد بنفسه في ضبطها وهو معلن بدين غير الإسلام: لكفر بالبقاء معه كل من عاونه وأقام معه وإن آدعى أنه مسلم - لما ذكرنا) [٢٨].

وللشيخ حمد بن عتيق[٢٩] رحمه آلله رسالة قيمة حول هذا

---

(٢٨) «المحلى» لابن حزم: (ج١٣/١٣٩ - ١٤٠).

(٢٩) هو الشيخ المحقق حمد بن علي بن محمد بن عتيق، ولد سنة ١٢٢٧هـ بالزلفى وحفظ القرآن، وكانت له همة وعلو نفس سمت به إلى معالي الأمور. تتلمذ على الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ صاحب كتاب «فتح المجيد» ولازمه. ولازم أيضاً غيره من العلماء. وجدّ واجتهد حتى صار من كبار العلماء. عين قاضياً في الخرج ثم الأفلاج ومن مؤلفاته «إبطال التنديد شرح كتاب التوحيد»، و«النجاة والفكاك والدفاع عن أهل السنّة والاتباع»، و«الفرق المبين بين السّلف وابن سبعين»، وغير ذلك. وتوفي سنة ١٣٠١هـ عن عمر يناهز السبعين ورثاه تلميذه سليمان بن سحمان بقصيدة منها:

يعنز علينا أن نرى اليوم مثله
لحل عويص المشكلات البوادر

انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» للبسّام: (ج٢/٢٢٩).

الموضوع[٣٠] فقد قسم المقيمين في بلاد الحرب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقيم عندهم رغبة وآختياراً لصحبتهم، فيرضى ما هم عليه من الدين أو يمدحه، أو يرضيهم بعيب المسلمين، أو يعاونهم على المسلمين بنفسه أو ماله أو لسانه: فهذا كافر عدو لله ولرسوله لقوله تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾

[سورة آل عمران: ٢٨].

قال آبن جرير: قد برىء من آلله وبرىء آلله منه لارتداده عن دينه ودخوله في الكفر. وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾

[سورة المائدة: ٥١].

وقال ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله»[٣١].

وصح عن عبد آلله بن عمر رضي آلله عنهما أنه قال: من بنى بأرض المشركين فصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة[٣٢].

قال شيخ الإسلام آبن تيمية: وظاهر هذا أنه جعله كافراً بمشاركتهم في مجموع هذه الأمور.

---

(٣٠) اسمها: «الدفاع عن أهل السنّة والاتباع»، نشرها حفيده إسماعيل بن سعد بن عتيق بدون تاريخ.

(٣١) «الدفاع» لابن عتيق: (ص١٠ ــ ١٢)، والحديث سبق تخريجه (ص٢٤٧).

(٣٢) قال ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٢٠٠) إسناده صحيح.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه آلله: لما ذكر الأنواع التي يكفر بها الرجل: قال النوع الرابع: من سلم من هذا كله ولكن أهل بلده يصرون على عداوة التوحيد وآتباع أهل الشرك وهو يعتذر إن ترك وطنه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده ويجاهد بماله ونفسه فهذا أيضاً كافر، فإنه لو يأمرونه بتزوج آمرأة أبيه ولا يمكنه ترك ذلك إلا بمخالفتهم فعل. وموافقته لهم مع الجهاد معهم بنفسه وماله مع أنهم يريدون بذلك قطع دين آلله ورسوله أكبر من ذلك بكثير فهذا أيضاً كافر وهو ممن قال آلله فيهم:

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

[سورة النساء: ٩١].

القسم الثاني: أن يقيم عندهم لأجل مال أو ولد أو بلاد وهو لا يظهر دينه مع قدرته على الهجرة، ولا يعينهم على المسلمين بنفس ولا مال ولا لسان، ولا يواليهم بقلبه ولا لسانه، فهذا لا يكفرونه لأجل مجرد الجلوس، ولكن يقولون إنه قد عصى آلله ورسوله بترك الهجرة، وإن كان مع ذلك يبغضهم في الباطن لقول آلله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا

[سورة النساء: ٩٧].

---

(٣٣) «الدفاع»: (ص١٠ — ١٢).

قال ابن كثير: ﴿ظالمي أنفسهم﴾ أي بترك الهجرة، ثم قال: فهذه الآية عامة لكل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين فهو مرتكب حراماً بالإجماع وبنص هذه الآية(٣٤).

قلت: وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله هذه الآية: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾(٣٥).

وقد سدَّ الله باب الأعذار الواهية في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

[سورة التوبة: ٢٤].

وما من أحد يترك الهجرة إلا وهو يعتذر بشيء من هذه الثمانية وقد سدَّ الله على الناس باب الاعتذار بها وجعل من ترك الهجرة لأجلها أو لأجل واحد منها فاسقاً وإذا كانت مكّة هي أشرف بقاع الأرض وقد أوجب الله الهجرة منها ولم يجعل محبتها عذراً فكيف بغيرها من البلدان؟(٣٦).

القسم الثالث: من لا حرج عليه في الإقامة بين أظهرهم وهو نوعان:

---

(٣٤) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج٢/٣٤٣). و«الدفاع» لابن عتيق: (ص١٣).

(٣٥) «صحيح البخاري»: (ج٨/٢٦٢، ح٤٥٩٦).

(٣٦) «الدفاع» لابن عتيق: (ص١٣ — ١٤)، وانظر «بيان النجاة والفكاك» له أيضاً: (ص٧٠ — ٧٢).

(١) أن يكون مظهراً دينه فيتبرأ منهم وما هم عليه، ويصرح لهم ببراءته منهم وأنهم ليسوا على حق، بل أنهم على باطل وهذا هو إظهار الدين الذي لا تجب معه الهجرة كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ إلى آخر السورة.

فأمره أن يخاطبهم بأنهم كافرون، وأنه لا يعبد معبوداتهم، وأنهم بريئون من عبادة الله أي أنهم على الشرك وليسوا على التوحيد، وأنه قد رضي الله بدينه الذي هو عليه وبريء من دينهم الذي هم عليه كما قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

[سورة يونس: ١٠٤ - ١٠٥].

فمن قال مثل ذلك للمشركين لم تجب عليه الهجرة.

وليس المراد بإظهار الدين: أن يُترك الإنسان يصلي ولا يُقال له آعبد الأوثان! فإن اليهود والنصارى لا ينهون من صلى في بلدانهم، ولا يكرهون الناس على أن يعبدوا الأوثان؟! بل المقصود: أن إظهار الدين هو: **التصريح للكفار بالعداوة كما آحتج خالد بن الوليد على مجاعة**[٣٧] بأنه سكت ولم

(٣٧) هو مجاعة بن مرارة بن سلمي الحنفي اليمامي. كان من رؤساء بني حنيفة وكان ممن أسر يوم اليمامة. وكان بليغاً حكيماً. ومن حكمه قال لأبي بكر الصّدّيق: إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يقاتل به، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور «الإصابة»: (ج٣/٣٦٢).

(٣٨) هو ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي أبو أمامة اليمامي، حديثه في البخاري حين أسر ثم أسلم. قال ابن إسحاق إن ثمامة مثبت على إسلامه لما ارتد أهل اليمامة وارتحل هو ومن أطاعه من قومه فلحقوا بالعلاء بن الحضرمي =

يظهر البراءة كما أظهرها ثمامة[38] واليشكري. والقصة معروفة في السير، فما لم يحصل التصريح للمشركين بالبراءة منهم ومن دينهم لم يكن إظهار الدين حاصلاً[39].

(٢) أن يقيم عندهم مستضعفاً وقد بين ٱلله الاستضعاف في كتابه فقال:

إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

[سورة النساء: ٩٨].

وهذا الاستثناء بعد ما توعد المقيمين بين أظهر المشركين بأن

مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا [سورة النساء: ٩٧].

فٱستثنى من لا يستطيع حيلة ولا يهتدون سبيلاً. قال ٱبن كثير: لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق[40].

= فقاتل معه المرتدين من أهل البحرين «الإصابة»: (ج١/٢٠٣).

(٣٩) «الدفاع»: (ص١٦)، والقصة المذكورة هنا أوردها المؤلف في كتابه «النجاة والفكاك» حيث قال: لما سار خالد إلى اليمامة لقتال المرتدين بعث قبله مائتي فارس، وقال من أصبتم من الناس فخذوه، فأخذوا (مجاعة) في ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه فلما وصلوا إلى خالد قال له: يا خالد، لقد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ في حياته فبايعته على الإسلام وأنا اليوم على ما كنت عليه أمس، فإن يك كاذباً قد خرج فينا فإن الله يقول: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ فقال خالد: يا مجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك بأمر هذا الكذّاب وسكوتك عنه وأنت أعز أهل اليمامة، وقد بلغك مسيري ــ إقراراً له ورضاء بما جاء به فهلا أبديت عذراً وتكلمت فيمن تكلم؟ فقد تكلم ثمامة فرد وأنكر، وتكلم اليشكري: فإن قلت: أخاف قومي. فهلا عمدت إليّ أو بعثت إليّ رسولاً؟ فقال: إن رأيت يا بن المغيرة أن تعفو عن هذا كله؟ فقال خالد: قد عفوت عن دمك، ولكن في نفسي حرج من تركك.
«بيان النجاة والفكاك»: (ص٦٨ ــ ٧٠).

(٤٠) «تفسير ابن كثير»: (ج٢/٣٤٣).

وقال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

[سورة النساء: ٧٥].

فذكر في الآية الأولى: حالهم وهو العجز عن الخروج وعدم دلالة الطريق.

وذكر في الآية الثانية: مقالهم وهو أنهم يسألون الله أن يخرجهم من بلاد الشرك والظالم أهلها وأن يجعل لهم وليًّا يتولاهم وناصراً ينصرهم، **فمن كانت تلك حاله وهذا مقاله**

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾

[سورة النساء: ٩٩].

وقد ذكر البغوي: أن الأسير المسلم عند الكفار إذا آستطاع الخلاص والانفلات منهم لم يحل له المقام بينهم، فإن حلفوه أنهم إن خلوه لا يخرج فحلف فخلوه، وجب عليه الخروج ويمينه يمين مكره لا كفارة عليه فيها، وإن حلف آستطابة لنفوسهم من غير أن يحلفوه فعليه الخروج إلى دار الإسلام ويلزمه كفارة اليمين(٤٢).

أما حكم السفر إلى بلاد الكفار الحربية لأجل التجارة ففي ذلك تفصيل: فإن كان يقدر على إظهار دينه ولا يوالي المشركين جاز له ذلك فقد سافر

---

(٤١) «الدفاع»: (ص١٦)، وما ذكره الشيخ حمد هنا موافق تماماً لإجابة الشيخين حسين وعبد الله ابني محمد بن عبد الوهاب حين سئلا في هذا الموضوع، انظر «مجموعة الرسائل والمسائل النجديّة»: (ج٣٩/١)، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦هـ، مطبعة المنار بمصر.

(٤٢) «شرح السنّة» للبغوي: (ج٢٤٦/١٠).

بعض الصحابة رضي آلله عنهم كأبي بكر رضي آلله عنه وغيره إلى بلدان المشركين لأجل التجارة ولم ينكر ذلك النبي ﷺ كما رواه أحمد في مسنده[٤٣] وغيره.

وإن كان لا يقدر على إظهار دينه ولا على عدم موالاتهم لم يجز له السفر إلى ديارهم كما نص على ذلك العلماء وعليه تحمل الأحاديث التي تدل على النهي عن ذلك. ولأن آلله تعالى أوجب على الإنسان العمل بالتوحيد، وفرض عليه عداوة المشركين، فما كان ذريعة وسبباً إلى إسقاط ذلك لم يجز[٤٤].

وبعد هذه النصوص الكثيرة الصريحة علينا أن ندرك مدى الهوة التي وصل إليها المسلمون اليوم، ومدى موالاتهم لأعداء آلله والإقامة بأرضهم وآبتعاث أبنائهم إلى ديارهم لتحضير الشهادات العليا في الشريعة واللغة العربية!

إنها مهزلة مبكية ووصمة عار سيسجلها التاريخ: أن يذهب أبناء المسلمين لأخذ الشهادات في العلوم الشرعية واللغة العربية من بلاد الكفار!

وقد كتب علماء أفاضل في خطورة هذه المسألة، وبينوا مخاطر الابتعاث، وأهداف الكفار من غسل أدمغة أبناء المسلمين ومسخهم من إسلامهم، فلتراجع في مظانها[٤٥].

(ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام

أصل المهاجرة: المجافاة والترك.

---

(٤٣) هكذا في النص الذي في «الجامع الفريد» ولكنني بحثت عنه في «المسند» فلم أجده.

(٤٤) انظر «الجامع الفريد»: (ص٣٨٢)، الطبعة الثانية.

(٤٥) من هؤلاء الكتّاب: الأستاذ محمد محمد حسين في كتبه القيّمة: «الاتجاهات الوطنيّة»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، و«حصوننا مهددة من داخلها». وهناك بحث قيدم للشيخ محمد لطفي الصبّاغ بعنوان: «الابتعاث ومخاطره» نشره المكتب الإسلامي فلتراجع أمثال هذه المؤلفات بخصوص ما ذكرنا.

وفي الاصطلاح الشرعي: الانتقال من بلد الكفر والشرك إلى دار الإسلام[٤٦]. ومن المعلوم: أن من كان دينه الإسلام المبني على صرف جميع العبادات لله وحده ونفي الشرك وبغضه وبغض أهله ومعاداتهم ومقاطعتهم فإنه لا يتركه أهل الكفر على دينه مع القدرة عليه كما أخبر عن ذلك المولى عزَّ وجل بقوله:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾

[سورة البقرة: ٢١٧].

كما أخبر الله عن أصحاب الكهف أنهم قالوا:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

[سورة الكهف: ٢٠].

وأخبر سبحانه بذلك عن جميع الكفار حيث قال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[سورة إبراهيم: ١٣].

وكذلك قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: يا ليتني أكون جذعاً إذ يخرجك قومك قال: أومخرجي هم؟! قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، فلذلك أخرجوه من مكه إلى الطائف ثم هاجر إلى المدينة بعدما هاجر طائفة من أصحابه إلى الحبشة مرتين[٤٧].

---

(٤٦) انظر «فتح الباري»: (ج١/١٦).

(٤٧) انظر «الدفاع» لابن عتيق: (ص١٨ ــ ١٩)، وقصة ورقة مع رسول الله ﷺ في «سيرة ابن هشام»: (ج١/٢٥٤).

والهجرة شأنها عظيم، وأمرها كبير إذ هي فرع الولاء والبراء، بل إنها من أبرز تكاليف الولاء والبراء، وما كانت الجماعة المسلمة لتترك أرضها وقومها وتتكبد مشاق الغربة ووعثاء السفر لولا أن ذلك تكليف ربّاني لمن لا يستطيع أن يقيم دينه، ويظهر إسلامه في أرضه. وقد وعد الله عباده المؤمنين المهاجرين بـ ''الحسنات'' في الدنيا والآخرة فقال:

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

[سورة النحل: ٤١ — ٤٢].

وللهجرة مفهوم شامل في التصور الإسلامي ليس مقتصراً على الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فحسب ولكنه كما يقول ابن القيم: الهجرة هجرتان هجرة بالجسم من بلد إلى بلد وهذه أحكامها معلومة.

والهجرة الثانية: الهجرة إلى الله ورسوله فهذه هي الهجرة الحقيقية، وهجرة الجسد تابعة لها وهي هجرة تتضمن ''من'' و ''إلى'' فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه. ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه سبحانه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. وهذا بعينه معنى الفرار إلى الله كما قال تعالى:

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

[سورة الذاريات: ٥٠].

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

والهجرة إلى الله تتضمن: هجران ما يكره، وإتيان ما يحبه ويرضاه.

وأصلها: الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لابد أن يكون

ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر.

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب دواعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً ولا يتحرك لها إرادة[48].

أما الهجرة التي هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فإليك تفصيل أحكامها:

قال الخطابي[49]: كانت الهجرة في أول الإسلام مندوباً إليها غير مفروضة وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾

[سورة النساء: ١٠٠].

فقد نزلت حين آشتد أذى المشركين على المسلمين عند آنتقال رسول آلله ﷺ إلى المدينة. ثم أمروا بالانتقال إلى حضرته ليكونوا معه، فيتعاونوا ويتظاهروا إن حَزبهم أمر، وليتعلموا منه أمر دينهم، ويتفقهوا فيه. وكان أعظم الخوف في ذلك الزمان من قريش وهم أهل مكّة، فلما فتحت مكة ونخعت بالطاعة زال ذلك المعنى وآرتفع وجوب الهجرة وعاد الأمر فيها إلى الندب. وبهذا يظهر الجمع بين حديث معاوية عن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[50].

---

(٤٨) «الرسالة التبوكيّة» لابن القيم: (ص١٤ ـــ ١٨)، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٤هـ، المطبعة السلفيّة بمصر.

(٤٩) هو الإمام حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب من ولد زيد بن الخطاب. يكنى أبا سليمان. كان محدثاً فقيهاً وأديباً شاعراً لغويًّا ومن تلاميذه الحاكم النيسابوري. ولد سنة ٣١٩هـ في بلدة بست من بلاد كابل وتوفي فيها سنة ٣٨٨هـ، انظر مقدمة «معالم السنن» المطبوع مع سنن أبي داود: (ج١/١١)، و«الأعلام» للزركلي: (ج٢/٢٧٣)، الطبعة الرابعة.

(٥٠) سبق تخريجه في أول هذا الفصل: (ص٢٧١).

وبين حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة: «لا هجرة ولكن جهاد ونيّة، وإذا استنفرتم فانفروا»[٥١] على أن بين الإسنادين ما بينهما فإسناد حديث ابن عباس متصل صحيح وإسناد معاوية فيه مقال[٥٢].

ولأهمية موضوع الهجرة - خاصة في أول الإسلام - فقد قطع الله ولاية التناصر بين المسلمين المهاجرين في المدينة وبين المسلمين الذين لم يهاجروا وبقوا في مكّة. قال تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

[سورة الأنفال: ٧٢].

ثم يأتي الثناء على المهاجرين والأنصار في قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

[سورة الأنفال: ٧٤].

والكلام على المهاجرين والأنصار قد سبق فيه الحديث.

أما الصنف الذي نريد أن نتحدث عنه هنا فهم المؤمنون الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في مكّة فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم:

---

(٥١) «صحيح البخاري»: (ج٦/٣٧، ح٢٨٢٥) كتاب الجهاد، باب وجوب النفير.

(٥٢) «معالم السنن» للخطابي: (ج٣/٣٥٢) تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، وانظر «الناسخ والمنسوخ»: (ص٢٠٧).

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

[سورة النساء: ٩٧ - ٩٩].

فقد روى البخاري عن آبن عباس رضي آلله عنهما: أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سوادهم على عهد رسول آلله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل آلله: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾(٥٣).

ولذلك فالذين آمنوا و لم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم ليس لهم في المغانم نصيب ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال كما قال الإمام أحمد(٥٤)، يدل على ذلك الحديث المروي في المسند وصحيح مسلم عن آبن بريدة عن أبيه قال: كان رسول آلله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى آلله، ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: آغزوا بآسم آلله، في سبيل آلله، قاتلوا من كفر بآلله، آغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً وإذا لقيت عدوك من المشركين فآدعهم إلى ثلاث خصال ''أو خلال'' فأيتهن ما أجابوك فآقبل منهم وكف عنهم، ثم آدعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فآقبل منهم وكف عنهم ثم آدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على

---

(٥٣) سبق تخريجه: (ص٢٧٨).

(٥٤) «تفسير ابن كثير»: (ج٤/٤٠).

المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم ٱلله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبو فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فٱقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فٱستعن بٱلله وقاتلهم(٥٥).. الحديث.

ونستطيع أن نلخص أنواع الهجرة - سواء ما بقي منها مفروضاً أو ما نسخ، وما هو غير ذلك - في النقاط التالية:

(١) الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً في أيام النبي ﷺ وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي ٱنقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان. فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام(٥٦).

ويؤيد ذلك حديث مجاشع بن مسعود(٥٧) حيث جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي ﷺ فقال: هذا مجالد يبايعك على الهجرة فقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد فتح مكّة ولكن أبايعه على الإسلام»(٥٨) وعلى ذلك فإن النصوص الواردة في وجوب الهجرة باقية في حال المسلم المقيم بدار الحرب وقد ذكرتها في الإقامة في دار الكفار.

(٢) الخروج من أرض البدعة. قال الإمام مالك: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد

---

(٥٥) الحديث في «مسند أحمد»: (ص٥/٣٥٢)، وفي «صحيح مسلم»: (ج٣/١٣٥٧، ح١٧٣١).

(٥٦) «أحكام القرآن» لابن العربي: (ج١/٤٨٤)، وانظر شرح النووي على «صحيح مسلم»: (ج١٣/٨)، وتفسير القرطبي: (ج٥/٣٠٨).

(٥٧) هو مجاشع بن مسعود بن ثعلبة السلمي. قال البخاري وغيره له صحبة، روى عنه أبو عثمان النهدي وغيره. قتل يوم الجمل. «الإصابة»: (ج٣/٣٦٢)، و«المعارف» لابن قتيبة: (ص٣٣١).

(٥٨) «صحيح البخاري»: (ج٦/١٨٩، ح٣٠٧٩) كتاب الجهاد، باب لا هجرة بعد الفتح، كتاب الإمارة: (ج٣/١٤٨٨، ح١٨٦٤).

سب فيها السلف[٥٩].

(٣) الخروج عن أرض غلب عليها الحرام. فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم[٦٠].

وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أحوال البلاد كأحوال العباد فيكون الرجل تارة مسلماً، وتارة كافراً، وتارة مؤمناً، وتارة منافقاً، وتارة برًّا تقيًّا، وتارة فاجراً شقيًّا. وهكذا المساكن بحسب سكانها فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باق إلى يوم القيامة[٦١].

(٤) الفرار من الأذيَّة في البدن، وذلك فضل من الله عزَّ وجلَّ أرخص فيه، فإذا خشي المرء على نفسه في موضع فقد أذن الله سبحانه له في الخروج عنه، والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام لما خاف من قومه قال:

إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ

[سورة العنكبوت: ٢٦].

وقال:

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ

[سورة الصافات: ٩٩].

وموسى عليه السلام قال الله فيه:

---

(٥٩) «أحكام القرآن» لابن العربي: (ج١/٤٨٤، ٤٨٥).
(٦٠) «أحكام القرآن» لابن العربي: (ج١/٤٨٤، ٤٨٥).
(٦١) «مجموع فتاوى» ابن تيمية: (ج١٨/٢٨٤).

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[سورة القصص: ٢١][٦٢].

(٥) خوف المرض في البلاد الوخمة، والخروج منها إلى الأرض النزهة وقد أذن النبي ﷺ للعرنيين في ذلك حين آستوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المرج، فيكونوا فيه حتى يصحوا وقد آستثنى من ذلك الخروج من الطاعون كما قرر ذلك الحديث الصحيح[٦٣].

(٦) الفرار خوف الأذيّة في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله أو آكد[٦٤].

وبعد: فإن الهجرة وغيرها من الأعمال والأقوال - مبنية على النيّة كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل آمرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى آلله ورسوله فهجرته إلى آلله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو آمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٦٥].

---

(٦٢) «أحكام القرآن» لابن العربي: (ج١/٤٨٥).

(٦٣) المصدر السابق: (ج١/٤٨٥)، وحديث العرنيين في «صحيح البخاري»: (ج١٠/١٤٢، ح٥٦٨٦) كتاب الطب، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٢٩٦، ح١٦٧١) كتاب القسامة، أما حديث الطاعون ففي البخاري: (ج١٠/١٧٩، ح٥٧٢٨) كتاب الطب، و«صحيح مسلم»: (ج٤/١٧٤١، ح٢٢١٩) كتاب السلام، ونصه: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

(٦٤) «أحكام القرآن»: (ج١/٤٨٦).

(٦٥) «صحيح البخاري»: (ج١/٩، ح١) كتاب بدء الوحي، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٥١٥، ح١٩٠٧) كتاب الإمارة.

الفصل الثالث

الجهاد في سبيل الله

وهو من أهم مقتضيات الولاء والبراء لأنه الفاصل بين الحق والباطل وبين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان والجهاد: بكسر الجيم ــ لغة: المشقة، يقال: جهدت جهاداً: بلغت المشقة.

وشرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار(٦٦).

ويطلق أيضاً: على مجاهدة النفس والشيطان والفساق.

فأما مجاهدة النفس: فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها ثم على تعليمها وأما مجاهدة الشيطان: فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار: فتقع باليد والمال واللسان والقلب.

وأما مجاهدة الفساق: فباليد ثم اللسان ثم القلب(٦٧).

وقد سبق القول في الفصل الثاني من الباب الأول ''أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما'': أن العداوة بين الفريقين أمر متأصل وستبقى إلى أن يرث ٱلله الأرض ومن عليها، وذلك لأن المنهجين مختلفان، ويستحيل الالتقاء بينهما لأن حزب ٱلله يريد إقامة كلمة الحق في الأرض وهيمنة الشريعة الإسلامية على كل وضع. وحزب الشيطان يغيظه هذا المنهج فيسعى جاهداً في سحقه وإبادته ما ٱستطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد تحدثنا عن البراء وقلنا: إن أبرز صوره هو الجهاد لأنه هو السبيل

---

(٦٦) «فتح الباري» لابن حجر: (ج٦/٣).
(٦٧) «فتح الباري» لابن حجر: (ج٦/٣).

الوحيد للمفاصلة بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان.

وإذا رجعنا إلى سيرة المصطفى ﷺ: لوجدنا أن الجهاد هو الخطوة التالية للهجرة النبوية. مما يدل على أهميته في إقامة هذا الدين، وبيع المُهج في سبيل آلله تلبية لنداء الجهاد في سبيل آلله.

ومن المعلوم: أن هذا الدين الحنيف يأمر بدعوة الناس إلى توحيد آلله وإفراده بالعبادة والألوهية فإذا لبوا هذا النداء فهذا هو المراد من بعثة الرسل، وإنزال الكتب وإن آنتكصوا على أعقابهم فلابد من جهادهم.

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾

[سورة الأنفال: ٣٩].

وقد سبق معنا حديث رسول آلله ﷺ: «.. فإذا لقيت عدوك من المشركين فآدعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فآقبل منهم وكف عنهم»[٦٨].

فالدين الإسلامي يبدأ بدعوة الناس إلى الخير وجدالهم بالتي هي أحسن، فإذا قامت عليهم الحُجة ثم أعرضوا وجب قتالهم. وإذا كان هناك سلطان وطواغيت ترفض أن يستمع الناس للإسلام؛ فإنه يجب بتر هذه الطواغيت من أساسها لتبلغ كلمة الإسلام للناس ثم يأتي هنا مبدأ ﴿لا إكراه في الدين﴾ أي إذا سيطر سلطان المسلمين على منطقة ما فإن أهلها لا يجبرون على آعتناق عقيدة الإسلام، ولكن يجب أن يخضعوا لسلطانه، فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين وإن طلبوا البقاء على ديانتهم فعليهم دفع الجزية للمسلمين وإلا فالسيف بينهم وبين المسلمين[٦٩].

---

(٦٨) سبق تخريجه: (ص٢٨٧).

(٦٩) انظر تفسير ﴿لا إكراه في الدين﴾ في ابن كثير: (ج١/٤٥٩)، وانظر فصل الجهاد في «معالم في الطريق»: (ص٧٤).

ومن هنا: فإن أهداف الجهاد في الإسلام أهداف سامية عالية فهو:

(١) يقاتل الكفار لتقرير حرية العقيدة.

(٢) ويجاهد ثانياً لتقرير حرية الدعوة.

(٣) ويجاهد ثالثاً لإقامة نظام الإسلام في الأرض. وتحقيق حرية الإنسان، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها.

فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريق التشريع، وإنما هناك رب واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم وهو الذي يتوجهون إليه وحده بالطاعة والخضوع كما يتوجهون إليه بالإيمان والعبادة على السواء.

وعبودية الجهاد من أشرف وأحب أنواع العبودية لله سبحانه وتعالى لأنه (لو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها. من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس) (٧١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(إنه لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه.. لأن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، وهو مشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، ففيه من محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال ما لا يشتمل عليه عمل آخر، والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى

---

(٧٠) انظر «طريق الدعوة»: (ج١/٢٨٨ ــ ٢٨٩).

(٧١) «مدارج السالكين»: (ج٢/١٩٦).

الحسنيين دائماً: إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة) [٧٢].

وقد وردت نصوص كثيرة جدًّا في فضيلة الجهاد نذكر طرفاً منها:

قال تعالى في بيان منزلة الشهيد وإنه حي عند ربه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

[سورة آل عمران: ١٦٩ — ١٧٠].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

[سورة الحجرات: ١٥].

والجهاد هو التجارة الرابحة مع الله كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة الصف: ١٠ — ١٣].

---

(٧٢) «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيّة»: (ص١١٨)، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٩هـ.

أما السنّة النبوية فقد ورد فيها أحاديث كثيرة في فضيلة الجهاد نذكر منها قوله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها ٱلله للمجاهدين في سبيل ٱلله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»(٧٣).

وقال أيضاً: «ما أغبرتا قدما عبد في سبيل ٱلله فتمسه النار»(٧٤).

وفي الصحيح: «جاء رجل إلى رسول ٱلله ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد قال: لا أجده. قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ فقال ومن يستطيع ذلك»(٧٥).

وفي السنن أنه ﷺ قال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل ٱلله تعالى»(٧٦).

والجهاد ذروة سنام الإسلام كما جاء ذلك في الحديث «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»(٧٧) وقال أيضاً: «لغدوة في سبيل أو روحة خير من الدنيا وما فيها» رواه البخاري(٧٨) ومسلم.

وفي مقابل هذا الثناء الجميل: ورد الذم للتاركين للجهاد، بل إن ٱلله وصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال تعالى:

---

(٧٣) «صحيح البخاري»: (ج٦/١١، ح٢٧٩٠) كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله.

(٧٤) «صحيح البخاري»: (ج٦/٢٩، ح٢٨١١).

(٧٥) «صحيح البخاري»: (ج٦/٤، ح٢٧٨٥).

(٧٦) «سنن أبي داود»: (ج٣/١٢، ح٢٤٨٦) كتاب الجهاد، و«مستدرك» الحاكم: (ج٢/٧٣)، وسنده حسن. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج١/٢٢٥، ح٧٢٤).

(٧٧) «سنن الترمذي»: (ج٧/٢٨١، ح٢٦١٩) أبواب الإيمان، و«سنن ابن ماجة»: (ج٢/١٣١٤، ح٣٩٧٣)، وقال الألباني: حديث صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج٥/٣٠، ح٥٠١٢).

(٧٨) «صحيح البخاري»: (ح٦/١٣، ح٢٧٩٢) كتاب الجهاد، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٤٩٩، ح١٨٨٠) كتاب الإمارة.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

[سورة التوبة: ٢٤].

وقال سبحانه:

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾

[سورة محمد: ٢٠ – ٢٣].

والجهاد ضرورة للدعوة وسنّة ربّانية في الابتلاء والتمحيص. قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾

[سورة آل عمران: ١٤٢].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[سورة التوبة: ١٦].

(إن الجهاد في سبيل ٱلله هو طريق الدعوة إلى ٱلله، والجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات فترة الدعوة الأولى. إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة، ولو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما ٱستغرق كل هذه الفصول الواسعة من صلب كتاب ٱلله، ولما ٱستغرق فصولاً طويلة من سنة رسول ٱلله ﷺ.

(وٱلله يعلم أن هذا المنهج الإلٰهي تكرهه الطواغيت، ويعلم أنه لابد لأصحاب السلطان أن يقاوموه لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم، ليس بالأمس فقط ولكن اليوم وغداً، وفي كل أرض وفي كل جيل، وأن ٱلله سبحانه يعلم أن الشر متبجح ولا يمكن أن يكون منصفاً، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة، فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولابد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولابد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولته قتل الحق وخنقه بالقوة، هذه فطرة وليست حالة طارئة.. ومن ثَم لابد من الجهاد.. لابد منه في كل صورة، ولابد أن يبدأ في عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع. ولابد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح، ولابد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة. وإلا كان الأمر هزلاً لا يليق بالمؤمنين.. ولابد من بذل الأموال والأنفس كما طلب ٱلله من المؤمنين) [79].

ويوم أن أدرك المسلمون معنى قوله تعالى:

فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

[سورة النساء: ٧٤].

(٧٩) «طريق الدعوة»: (ج١/٣٠٣ ـ ٣٠٤).

انطلقت كتائب الفتح الإسلامي في الأرض تنشر الخير، وتلقن الإيمان، وتكسر شوكة الطاغوت من أجل أن يعبد آلله وحده في الأرض.

ووجد في ذلك التاريخ المشرق نماذج رفيعة أجادت - بحقٍّ - صناعة الموت لأنها تريد الحياة الكريمة سواء كانت هذه الحياة على هذه الأرض بالنصر وإعلاء كلمة آلله. أم بالحياة عند آلله:

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

[سورة آل عمران: ١٦٩].

لقد كانت هذه النماذج الإيمانية تستبطىء أن تحول بينها وبين الجنة تمرات كما في قصة الصحابي الجليل عمير بن الحمام الأنصاري[٨٠]: حين سمع رسول آلله ﷺ يقول في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال: يا رسول آلله: جنة عرضها السموات والأرض! قال: نعم. قال: بخٍ بخٍ. قال رسول آلله ﷺ: «وما يحملك على قول بخٍ بخٍ؟» قال: لا وآلله يا رسول آلله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها» ثم أخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهنَّ، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمى بها ثم قاتلهم وهو يقول:

ركضاً إلى آلله بغير زاد
إلا آلتقى وعمل المعاد
والصبر في آلله على الجهاد
وكل زاد عرضة للنفاد
غير التقى والبر والرشاد

(٨٠) هو عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي. ذكره موسى بن عقبة وغيره فيمن شهد بدراً وهو أول قتيل قُتل في سبيل الله في الحرب. انظر ترجمته في «الإصابة»: (ج٣/٣١).

فمازال يقاتل حتى قتل(٨١).

وهذا غسيل الملائكة الصحابي الجليل حنظلة بن أبي عامر يخرج من بيته حين سمع نداء الحرب في معركة أُحد، وكان حديث عهد بعرس لم يكن ليتأخر حتى يغتسل من جنابته، بل هرع إلى ساعة الوغى حتى لا يفوته الجهاد فلما قتل قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة فآسألوا صاحبته»، فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهيعة فقال النبيُّ ﷺ: «لذلك تغسله الملائكة»(٨٢).

هذا غيض من فيض، ونقطة من بحر، من تلك البطولات التي بعث الإيمان فيها شجاعة خارقة للعادة وحنيناً إلى الجنة وآستهانة نادرة بالحياة، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رُأْى العين، فطاروا إليها طيران الحمام الزاجل لا يلوي على شيء(٨٣).

هذا هو مفهوم الجهاد، وهؤلاء المؤمنون هم أصحاب الجهاد، ويلحق بهم من سار على نهجهم لأنهم يقاتلون في سبيل ٱلله أمَّا غيرهم فيقاتل في سبيل الطاغوت:

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ

[سورة النساء: ٧٦].

وليس ما يقوله المنهزمون اليوم هو الجهاد، بل إنه من الوجهة الصحيحة فساد. إنهم يدعون إلى عدم مقاتلة أولياء الشيطان، ويدعون إلى موالاتهم

(٨١) «مسند أحمد»: (ج٣/١٣٧)، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٥٠٩، ح١٨٩٩) بدون ذكر الأبيات، وانظر «فقه السيرة» للشيخ الغزالي: (ص٢٤٤).

(٨٢) «الإصابة» لابن حجز: (ج١/٣٦٠)، وانظر «فقه السيرة» للغزالي: (ص٢٧٢).

(٨٣) انظر مزيداً من تلك البطولات في «ماذا خسر العالم» للندوي: (ص١٠٤ ــ ١٠٨).

وإلى مودتهم وإلى الاستكانة إليهم وإلى تمييع نصوص كتاب آلله وسنّة رسوله ﷺ مقابل شبهات الملاحدة آنهزموا وذلوا وآستكانوا لأنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام ولا يمثلون إلا آسماً بدون مسمى، همهم التقليد الأعمى، وديدنهم الركض خلف كل ناعق، ولو كان الأمر هكذا لهان الخطب لأنه لا عبرة بهم، ففي أرض آلله من يقوم بدين آلله وآلله متكفل بذلك. ولكن إن يمتد جبنهم وذلتهم إلى الالتواء على النصوص القرآنية والسنّة النبويّة فيقال: إن الجهاد في الإسلام هو للدفاع فقط، فهذا ما يجب أن نعريه، ولا نسكت عنه، مهما كانت ألقابهم ومهما كانت شهرتهم، فإن دين آلله هو الحق، والحق أحق أن يتبع، ولست بحاجة إلى الإطالة في هذا فقد ذكرت في الفصول السابقة[٨٤] مجموعة من العلماء الفضلاء في القديم والحديث تولوا تعرية هذا الفكر الغريب على التصور الإسلامي. فلتراجع في مظانها.

وعوداً على بدء نقول: إنه لا حياة شريفة في ظل هذا الدين الحنيف إلا بالعودة إلى ينابيعه الصافية كتاب آلله وسنّة رسوله ﷺ وفهم العقيدة الصحيحة وسيرة سلف الأمة وإدراك معنى لا إله إلا آلله ومعنى العبادة ومعنى الدين، ومعنى الجهاد في سبيل آلله. وليس في سبيل الأرض أو الوطن أو الجنس أو اللون أو الشخص أو.. أو.. إلخ.

وعلى المسلمين اليوم إدراك هذه المعاني والاستعلاء بأنفسهم وعقيدتهم من تمييع المائعين وكيد الكائدين، وأن يواجهوا كل موقف بما يمليه عليهم كتاب ربهم وسنّة نبيهم، وليعلموا أنهم مفتقرون إلى معيّة آلله وولايته لهم وإن كيد الشيطان كان ضعيفاً.

---

(٨٤) راجع (ص ٢١٥).

حكم التجسس على المسلمين

جرت عادة المصنفين من العلماء أن يدرجوا الحديث عن الجاسوس في باب الجهاد. وذلك لحكمة هامة وهي أن التجسس أبرز ما يكون في موضوع كشف عورات المسلمين لأعدائهم خاصة وقت نشوب الحرب، فلذلك يأتون بالحديث عن الجاسوس، وأحكامه في ذلك الموضع ولذلك آقتديت بهم فأوردت هذا المبحث في فصل الجهاد.

والتجسس خيانة عظمى، وكبيرة من الكبائر إذا فعله المسلم. وهو من صور موالاة الكفار التي يتراوح الحكم فيها بين الكفر المخرج من الملة إذا كان تجسسه حبًّا في آنتصار الكفار وعلو شوكتهم على المسلمين وبين الكبيرة من كبائر الذنوب إذا كان لغرض شخصي أو دنيوي أو جاه أو ما أشبه ذلك.

وقد حذر آلله من ذلك في قصة حاطب بن أبي بلتعة(85) رضي آلله عنه في سورة الممتحنة.

قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ

---

(85) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، حليف قريش، وقيل هو حليف للزبير بن العوام. شهد بدراً والحديبية، ومات سنة ثلاثين بالمدينة وهو ابن خمس وستين سنة، وصلّى عليه عثمان رضي الله عنهم. وقد شهد الله لحاطب بالإيمان في سورة الممتحنة. بعثه رسول الله ﷺ سنة ست من الهجرة إلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية فأتاه من عنده بهدايا منها مارية القبطية. انظر «الاستيعاب»: (ج١/٣٤٨)، و«الإصابة»: (ج١/٣٠٠).

وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

[سورة الممتحنة: ١].

قال الطبري: لا يدعونكم أرحامكم وقراباتكم وأولادكم إلى الكفر بآلله وآتخاذ أعدائه أولياء تلقون إليهم بالمودة، فإنه لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم عند آلله يوم القيامة لأنه سيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معاصيه والكفر به النار(٨٦).

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن عليٍّ رضي آلله عنه قال: بعثني رسول آلله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود وقال: «آنطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها» فآنطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى آنتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسولَ آلله ﷺ فقال رسولُ آلله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟» قال: يا رسول آلله لا تعجل عليّ، إني كنت آمرءاً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكّة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي **وما فعلت كفراً ولا آرتداداً ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام**. فقال رسول آلله ﷺ: «قد صدقكم» فقال عمر: يا رسول آلله دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعلَّ آلله أن يكون قد آطلع على أهل بدر فقال: آعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل آلله: ﴿يا أيها الذين ءَامنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾(٨٧) الآيات.

---

(٨٦) «تفسير الطبري»: (ج٢٨/٦١).

(٨٧) «صحيح البخاري»: (ج٨/٦٣٣، ح٤٨٩٠) كتاب التفسير، سورة الممتحنة.

قال العلامة ابن القيم: يؤخذ من هذه القصة جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً، لأن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ قتل حاطب بن أبي بلتعة فلم يقل رسول الله ﷺ لا يحل قتله إنه مسلم بل قال: وما يدريك لعلّ الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم» فأجاب بأن فيه مانعاً من قتله وهو شهوده بدراً. وفي الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع. وهذا مذهب مالك وأحد الوجهين في مذهب أحمد، وقال الشافعي وأبو حنيفة لا يقتل وهو ظاهر مذهب أحمد، والفريقان يحتجون بقصة حاطب.

والصحيح: أن قتله راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله وإن كان استبقاؤه أصلح استبقاه والله أعلم[88].

وقال أيضاً: ومن فوائد هذه القصة: أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجس من حاطب مكفراً بشهوده بدراً، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة وتضمنته من محبة الله لها ورضاه وفرحه بها، ومباهاته للملائكة بفاعلها: أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجس من المفسدة، وتضمنته من بغض الله لها فغلب الأقوى على الأضعف، فأزال وأبطل مقتضاه، وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات، الموجبين لصحة القلب ومرضه قال تعالى:

إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

[سورة هود: ١١٤].

وقال:

إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ

[سورة النساء: ٣١].

---

(٨٨) «زاد المعاد»: (ج٣/٤٢٢) بتصرف بسيط.

إلى أن قال: فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر، وبذله نفسه مع رسول آلله ﷺ وإيثاره آلله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته وهم بين ظهراني العدو وفي بلدهم ولم يثن ذلك عنان عزمه، ولا فل من حد إيمانه ومواجهته للقتال لمن أهله وعشيرته وأقاربه عندهم، فلما جاء مرض الجس برزت إليه هذه القوة. وكان البُحران(*) صالحاً فآندفع المرض وقام المريض وكأن لم يكن به قَلبة(**) ولما رأى الطبيب قوة إيمانية قد آستعلت على مرض جسه وقهرته قال لمن أراد فصده: لا يحتاج هذا العارض إلى فصاد «وما يدريك لعل آلله أن يكون قد آطلع على أهل بدر فقال، آعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وعكس هذا ذو الخويصرة التميمي[89] وأضرابه من الخوارج الذين بلغ آجتهادهم في الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يحقر أحد الصحابة عمله معه كيف قال فيهم: «لئنْ أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[90]. وقال: «آقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند آلله لمن قتلهم»[91]. ومن له لب وعقل يعلم قدر هذه المسألة: وشدة حاجته إليها وآنتفاعه بها، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة آلله سبحانه وحكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وأحكام الموازنة.. وتفاوت المراتب في ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس

(*) الأطباء يسمون التغير الذي يحدث للعليل دفعة واحدة في الأمراض الحادة: بحراناً، انظر حاشية «زاد المعاد»: (ج٣/٤٢٥).

(**) القلبة: الداء والتعب. انظر مادة قلب في القاموس المحيط.

(٨٩) ذو الخويصرة التميمي ذكره ابن الأثير في الصحابة مستدركاً على من قبله ولم يورد في ترجمته سوى ما أخرجه البخاري: (ج٦/٦١٧، ح٣٦١٠) كتاب المناقب، ومسلم: (ج٢/٧٤٠، ح١٠٦٣) في الزكاة، من حديث أبي سعيد قال: بينا رسول الله ﷺ يقسم ذات يوم قسماً فقال ذو الخويصرة رجل من بني تميم يا رسول الله، إعدل. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل» الحديث انظر «الإصابة» لابن حجر: (ج١/٤٨٥).

(٩٠) سبق تخريجه: (ص٥١).

(٩١) «صحيح البخاري»: (ج٦/٦١٨، ح٣٦١١) كتاب المناقب، باب علامات النبوّة، و«صحيح مسلم»: (ج٢/٧٤٦، ح١٠٦٦) كتاب الزكاة.

بما كسبت[٩٢].

والذي يظهر لي – والله أعلم – هو ما ذهب إليه مالك وابن عقيل من أصحاب أحمد وغيرهما أن الجاسوس المسلم يقتل لأن التعليل في قصة حاطب (تعليل بعلة مانعة من القتل منتفية في غيره، ولو كان الإسلام مانعاً من قتله لم يعلل بأخص منه، لأن الحكم إذا علل بالأعم كان الأخص عديم التأثير وهذا أقوى والله أعلم) [٩٣].

ونزول الخطاب القرآني بقوله: ﴿يا أيها الذين ءامنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾.

يدل على دخول حاطب في المخاطبة باسم الإيمان ووصفه به، وتناوله النهي بعمومه، وله خصوص السبب الدال على إرادته، مع أن في الآية ما يشعر أن فعل حاطب نوع موالاة وأنه أبلغ بالمودة، فإن فاعل ذلك قد ضل سواء السبيل، لكن قوله ﷺ: «صدقكم خلوا سبيله» ظاهر في أنه لا يكفر بذلك إذا كان مؤمناً بالله ورسوله غير شاك ولا مرتاب، وإنما فعل ذلك لغرض دنيوي، ولو كفر لما قيل «خلوا سبيله»[٩٤]. أما الجاسوس الكافر فهذا يجب قتله لأنه ﷺ قتل جاسوساً من المشركين. فعن أياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: أتى النبي ﷺ عين من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انفتل فقال النبي ﷺ: «اطلبوه واقتلوه». فقتلته فنفلهُ سَلَبَه[٩٥].

---

(٩٢) «زاد المعاد»: (ج٢/٤٢٤ ــ ٤٢٧) بتصرف.

(٩٣) «زاد المعاد»: (ج٣/١١٤)، وانظر «أقضية الرسول ﷺ» لابن فرج المالكي: (ص٢٥).

(٩٤) «إرشاد الطالب» للشيخ سليمان بن سحمان: (ص١٥).

(٩٥) «صحيح البخاري»: (ج٦/١٦٨، ح٣٠٥١) كتاب الجهاد، باب الحربي إذا دخل الإسلام بغير أمان، وأبي داود: (ج٣/١١٢، ح٢٦٥٣) في الجهاد.

الفصل الرابع

هجر أصحاب البدع والأهواء

من تكاليف الولاء والبراء: هجر أصحاب البدع والأهواء والبراءة من معتقداتهم الفاسدة ونِحَلهم الباطلة. وقد تكلمت في الفصل الثالث من الباب الأول عن طرف من موقف السّلف من هؤلاء المبتدعة، وذكرت هناك تعريف البدعة وتقسيمها إلى كُفريَّة وغير كُفريَّة.

أما الحديث هنا فيأتي لبيان أن هجرهم وعدم مخالطتهم والإنكار عليهم واجب من واجبات الولاء والبراء، ومقتضى من مقتضياته، لأن المنطلق في هذه القضية هو حب ٱلله وحب ما يحبه وبغض من يبغضه أو يرتكب ما يغضبه. وفساد الدِّين إنما يأتي من إحدى طريقتين أو هما معاً: فإما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق.

فالأول: البدع، والثاني: آتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شرّ وفتنة وبلاء: وبهما كُذبت الرسل، وعُصي الربّ، ودُخِلَتْ النّار، وحلت العقوبات. لأن الفساد في الاعتقاد يأتي من جهة الشبهات، والفساد في العمل يأتي من جهة الشهوات ولهذا كان السّلف يقولون: (آحذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فَتَنَهُ هواهُ، وصاحب دنيا أعجبته دنياه) [٩٦].

ويقولون أيضاً: (آحذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما

---

(٩٦) «إعلام الموقعين» لابن القيّم: (ج١/١٣٦)، وانظر «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيميّة: (ص٢٥).

فتنة لكل مفتون، لأن الأول يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه، والثاني يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم) [٩٧].

وخطورة البدعة تكمن في أنها تناقض ''الاستسلام لله وحده'' كما قال بعض السّلف: (قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم) [٩٨] وهي - كما قال الإمام سفيان الثوري - أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها، أما المعصية فيتاب منها. ذلك أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه ٱلله ورسوله قد زُين له سوء عمله فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه. فما دام يرى فعله حسناً - وهو سيء في نفس الأمر - فإنه لا يتوب.

ولكن التوبة ممكنة وواقعة بأن يهديه ٱلله ويرشده حتى يتبيّن له الحق، كما هدى ٱلله من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال، وذلك بأن يتبع من الحق ما علمه لأن الله يقول:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾

[سورة محمد: ١٧].

وإذا ٱنتشرت الجهالة بدين الرسل بين الناس، ونما زرع الجاهلية في نفوسهم: سارعت الطباع إلى الانحلال من ربقة الاتباع لأن النفس فيها نوع من الكبر فهي تحب أن تخرج من العبودية بحسب الإمكان كما قال أحد السّلف: (ما ترك أحد سنّة إلا تكبر في نفسه) [١٠٠]. وكما قلنا في الفصل الثاني من الباب الأول: أن العداوة بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان أمر محتم وواقع، فإن العداوة هنا بين المتبع والمبتدع تأخذ نفس المرتبة والشأن

---

(٩٧) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٢٥).
(٩٨) «شرح السنّة» للبغوي: (ج١/١٧١).
(٩٩) انظر «التحفة العراقية» لابن تيمية: (ص٣٨).
(١٠٠) «ملحق مؤلفات» الإمام محمد بن عبد الوهاب: (ص٨٧)، طبعة جامعة الإمام.

ولذلك قال الشوكاني: العداوة بين المتبع والمبتدع أوضح من الشمس لأن المتبع يعادي المبتدع لبدعته، والمبتدع يعادي المتبع لاتباعه وكونه على الصواب. بل قد تبلغ عداوات أهل البدع لغيرهم من أهل الاتباع فوق ما تبلغه عداواتهم لليهود والنصارى[101]. وقبل أن نعرف كيفية البراءة من أهل البدع والأهواء لابد من إلمامة بسيطة بكيفية مخالطة الناس وقد رأيت كلاماً حسناً لابن القيم رحمه آلله. أوجزه فيما يلي. فقد قسم رحمه آلله مخالطة الناس إلى أربعة أضرب[102].

(١) مَن مخالطته كالغذاء، لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا آحتاج خالطه. وهذا النوع أعزّ من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بآلله وأمره ومكايد عدوه، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه. فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

(٢) مَن مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك فيه. وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في المعاش، وما يحتاج إليه من المعاملات والمشاركات فإذا قضيت حاجتك من مخالطته بقيت مخالطتهم من القسم الثالث وهم:

(٣) مَن مخالطته كالداء على آختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فبعضهم كالدّاء العُضال، لا تربح عليه في دين ولا دنيا، بل تخسر معه الدين والدنيا أو أحدهما، ومنهم مَن مخالطته كوجع الضرس يؤلمك فإذا فارقك سكن الألم. ومنهم من مخالطته حمّى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، وإذا تكلم فكلامه كالعصى على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه، وظنه أنه كالمسك يطيب به المجلس وإن سكت فأثقل

---

(١٠١) «قطر الولي» للشوكاني: (ص٢٥٩).

(١٠٢) «بدائع الفوائد»: (ج٢/٢٧٤ ــ ٢٧٥).

من نصف الرحى التي لا يطاق حملها، ولا جرها على الأرض، وإذا كان لابد من هذا الضرب فليعاشر بالمعروف حتى يجعل ٱلله لك منه فرجاً ومخرجاً.

(٤) مَن مخالطته فيها الهلاك كله، وهي بمنزلة أكل السّم، فإن ٱتفق لآكله ترياق[١٠٣] وإلا فأحسن ٱلله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم ٱلله. وهم أهل البدع والضلال، الصَّادُّون عن سنّة رسول ٱلله ﷺ، الدّاعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل ٱلله ويبغونها عوجاً، فيجعلون البدعة سنّة، والسنّة بدعة، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً، إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول ٱلله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين وإن وصفت ٱلله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير غلوٍّ ولا تقصير قالوا أنت من المشبِّهين، وإن أمرت بما أمر ٱلله به ورسوله من المعروف ونهيت عمّا نهى ٱلله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين، وإن ٱتبعت السنّة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين، وإن ٱنقطعت إلى ٱلله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين، وإن تركت ما أنت عليه وٱتبعت أهواءهم فأنت عند ٱلله من الخاسرين وعندهم من المنافقين! فالحزم كل الحزم التماس مرضاة ٱلله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بأعتابهم ولا بٱستعتابهم ولا تبالي بذمهم، ولا بغضهم فإنه عين كمالك كما قال الشاعر:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني فاضل

(١٠٣) الترياق: بكسر التار، دواء السموم وهو فارسي معرب. «مختار الصحاح»: (ص٩١).

وعند الممات يحمد القوم التقى

وفي الصباح يحمد القوم السرى

آنتهى من «بدائع الفوائد».

وموقف المسلم من أصحاب البدع والأهواء يختلف بآختلاف ما هم عليه. فأما من كانت بدعته كفرية أو شركية فهذا يتبرأ منه ويهجر هجراً نهائيًّا وليس له أي موالاة بل البراءة منه كالبراءة من الكافر الأصلي أو المشرك. ومثال ذلك من أحدث حدثاً في الإسلام، أو آوى محدثاً ونصره وأعانه كما جاء في الحديث: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة آلله والملائكة والناس أجمعين»(١٠٤). قال آبن القيم: (ومن أعظم الحدث تعطيل كتاب آلله وسنّة رسوله وإحداث ما خالفهما، ونصر من أحدث ذلك والذب عنه، ومعاداة من دعا إلى كتاب آلله وسنّة رسوله ﷺ)(١٠٥). وأما من كانت بدعته دون ذلك أي من المعاصي والذنوب التي لا تصل إلى حدّ الكفر أو الشرك فهذه تختلف أيضاً بآختلاف الأشخاص والأزمان.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستقيم إلا بالبصيرة والمعرفة التامة، وأقل الأحوال إذا لم يحصل للعبد ذلك: أن يقتصر على نفسه كما قال ﷺ: «إذا رأيت شحًّا مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك»(١٠٦). فإذا رأى المسلم

---

(١٠٤) أبو داود (ج٤/٦٦٩، ح٤٥٣٠) كتاب الديّات، والنسائيّ: (ج٨/٢٠) في القسامة، وإسناده حسن.

(١٠٥) «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج٤/٤٠٥).

(١٠٦) أبو داود: (ج٤/٥١٢، ح٤٣٤١) كتاب الملاحم، والترمذي: (ح٣٠٦٠) في التفسير، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة: (ح٢/١٣٣١، ح٤٠١٤) في الفتن، وانظر «جامع الأصول»: (ج١٠/٣، ح٧٤٥٣). قال الألباني: ضعيف ولبعضه شواهد. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج٣/١٤٢٣).

من يعمل شيئاً من المعاصي: أبغضه على ما فيه من الشرّ، وأحبه على ما فيه من الخير - كما ذكرنا ذلك في معتقد أهل السنّة في أول البحث - ولا يجعل بغضه على ما معه من الشرّ قاطعاً وقاضياً على ما معه من الخير فلا يحبه، بل إن كان بغضه له يزجره ذلك ولا يرتدع هو وأمثاله راعى فيه الإصلاح، لأن النّبيّ ﷺ هجر من علم أن الهجر يزجره ويردعه، وقبل معذرة من علم أن الهجر لا ينجع فيه شيئاً ووكل سرائرهم إلى آلله[107].

وعلى أي حال فإنه ينبغي للمسلم أن لا يخالط أهل البدع والفجور وسائر المعاصي، إلاَّ على وجه يسلم به من عذاب آلله عزَّ وجلَّ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم، ماقتاً شانئاً ما هم فيه بحسب الإمكان كما في الحديث «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[108].

والهجر الشرعي نوعان:

الأول: بمعنى الترك للمنكرات.

والثاني: بمعنى العقوبة عليها.

فالأول هو المذكور في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾

[سورة الأنعام: ٦٨].

وقوله تعالى:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى﴾

---

(١٠٧) انظر «الدرر السنيّة في الأجوبة النجديّة»: (ج٧/٤١).

(١٠٨) «تفسير سورة النور» لابن تيمية: (ص٥٥)، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ، والحديث في «صحيح بسلم»: (ج١/٦٩، ح٤٩) كتاب الإيمان.

﴿ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾

[سورة النساء: ١٤٠].

وهذا الهجر من جنس هجر الإنسان نفسه عن فعل المنكرات كما قال ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(١٠٩). ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان، فإنه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به، ومن هذا قوله تعالى:

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾

[سورة المدثر: ٥].

أما النوع الثاني وهو الهجر على وجه التأديب: فهو هجر من يظهر المنكرات حتى يتوب منها كما هجر النبي ﷺ والمسلمون: «الثلاثة الذين خلفوا»(١١٠) حتى أنزل الله توبتهم.

وهذا الهجر يختلف بأختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم، وقلتهم وكثرتهم فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشرّ وخفيته كان مشروعاً، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف، بحيث تكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر.

---

(١٠٩) «صحيح البخاري»: (ج١/٥٣، ح١٠) كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

(١١٠) سيرد حديثهم إن شاء الله في الباب الأخير عند الحديث عن كعب بن مالك وهو أحدهم.

وقد كان النبيُّ ﷺ يتألف قوماً ويهجر آخرين.

وإذا عرف هذا فالهجر يجب أن يكون خالصاً لله وموافقاً لأمره، لأن من هجر لهوى نفسه أو هجر هجراً غير مأمور به كان خارجاً عن هذا الأصل، وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة لله[111].

والهجر من باب ''العقوبات الشرعية'' فهو من جنس الجهاد في سبيل آلله، وهذا يفعل لأن تكون كلمة آلله هي العليا، ويكون الدين كله لله، والمؤمن عليه أن يعادي في آلله، ويوالي في آلله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه، فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية قال تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ٩ — ١٠].

فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي[112].

ومما ينبغي التنويه به: (أن هذا الهجران والتبري والمعاداة لأهل البدع المخالفين في الأصول. أما الاختلاف في الفروع بين العلماء فآختلاف رحمة أراد آلله أن لا يكون على المؤمنين حرج في الدين، فذلك لا يوجب الهجران والقطيعة لأن هذا الاختلاف كان بين أصحاب رسول آلله ﷺ مع كونهم إخواناً مؤتلفين، رحماء بينهم، وتمسك بقول كل فريق منهم طائفة من أهل العلم بعدهم، وكل في طلب الحق، وسلوك سبيل الرشد مشتركون)[113].

---

(١١١) انظر «مجموع الفتاوى»: (ج٢٨/٢٠٣ — ٢٠٧).

(١١٢) المصدر السابق: (ج٢٨/٢٠٨).

(١١٣) «شرح السنّة» للبغوي: (ج١/٢٢٩).

كلمات للسّلف
في الاتباع والنهي عن الابتداع

سلف الأُمة رحمهم آلله كانوا حريصين على الوقوف عند كتاب آلله العزيز وسنّة نبيه ﷺ وكانوا يمقتون من يخرج عن هذين المصدرين الأُصليين. وقد كثر كلامهم في هذا ولكني أورد هذه الكلمات القيمة لما لها من أثر في تزويد المؤمن بالثبات على ما ثبتوا عليه.

قال الإمام مالك رحمه آلله: (من أُحدث في هذه الأُمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول آلله ﷺ خان الدين، لأن آلله تعالى يقول:

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

[سورة المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً) [١١٤].

وقال آبن مسعود رضي آلله عنه: «ستجدون قوماً يدعونكم إلى كتاب آلله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم وإيّاكم والتبدع والتنطع والتعمق وعليكم بالعتيق»[١١٥].

وقال أبو العالية الرياحي: (تعلموا الإسلام فإذا علمتوه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإن الصراط المستقيم: الإسلام، ولا تحرفوه يميناً وشمالاً، وعليكم بسنّة نبيكم وأُصحابه) [١١٦].

---

(١١٤) «الاعتصام» للشاطبي: (ج٢/٥٣).
(١١٥) «التنبيه والرد» للملطي: (ص٨٥)، ومعنى العتيق: أي القديم الأول.
(١١٦) المصدر السابق: (ص٨٤).

وقال الشافعي رحمه ٱلله: (لأن يلقى ٱلله العبد بكل ذنب – ماخلا الشرك – خير من أن يلقاه بشيء من الهوى) [117].

وقيل لسفيان بن عيينة: (ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم فقال: أنسيت قوله تعالى:

وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ

[سورة البقرة: ٩٣]) [118].

ولذلك قال أبو قلابة: (لا تجالسوا أهل الأهواء فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون) [119].

وقال آبن مسعود رضي ٱلله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم» [120]. حقًّا، لقد كفينا فكتاب ٱلله واضح وجلي، وسنّة رسوله ﷺ واضحة ومفصلة وشارحة لكتاب ٱلله، وسيرة سلفنا الصالح محفوظة لدينا وما علينا إلا آتباع الكتاب والسنّة والبعد عن كل مبتدع ودخيل، وإذا فعلنا ذلك كنا أمة متميزة لها شخصيتها المستقلة التي لا تجاري أصحاب الأهواء والآراء البشرية الناقصة.

وما تبعت أمة داعي كل ناعق إلا تردت في مهاوي الجهل والظلام، وٱلله يريد لعباده المؤمنين النور والصلاح والفلاح، وكل ذلك في الإسلام وحده وما عداه فجاهلية وضلال. أعاذنا ٱلله من ذلك.

---

(١١٧) «الاعتقاد على مذهب السلف» للبيهقي: (ص١١٨).

(١١٨) «العبوديّة» لابن تيميّة: (ص٧٠).

(١١٩) «الاعتقاد» للبيهقي: (ص١١٨).

(١٢٠) «سنن الدارمي»: (ج٦٩/١) في كتاب العلم، باب كراهية الأخذ بالرأي. قال السخاوي: وأخرجه الديلمي في «مسنده». انظر «المقاصد الحسنة»: (ص١٦).

الفصل الخامس
انقطاع التوارث والنكاح
بين المسلم والكافر

من حرص الإسلام على تميز المسلم وقطع العلائق والوشائج التي قد ترده عمّا أراده ٱلله له: قطع التوارث بين المسلم وقريبه الكافر، وكان هذا التكليف من مقتضيات الولاء والبراء في التصور الإسلامي.

ولكن ذلك جاء بعد الأمر للنبي ﷺ بالجهاد، فقد كان ﷺ – كما يذكر ٱبنَ القيم – قبل أن يفرض الجهاد يقر الناس على ما هم عليه في الأنكحة ويدعوهم إلى الإسلام، وكانت المرأة تُسلم وزوجها كافر فلا يفرق الإسلام بينهما حتى صلح الحديبية، وبعد هذا الصلح نزل تحريم المسلمة على الكافر[121]. قال تعالى:

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾

[سورة الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى:

﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾

[سورة الممتحنة: ١٠].

لقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة، وأن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات كما يستقر في واقعهم: أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان، وأن

---

(١٢١) «أحكام أهل الذمة»: (ج١/٦٩).

لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة، وأن لا آرتباط إلا بين الذين يرتبطون بآلله[122].

وجاء التحريم أيضاً في سورة البقرة في قوله تعالى:

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

[سورة البقرة: ٢٢١].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه آلله في قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ هذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى:

وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

[سورة المائدة: ٥].

أما قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ فهذا عام لا تخصيص فيه.

وذكر سبحانه العلة والحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين فقال: ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾ أي في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم فمخالطتهم على خطر منهم: بل إنه الشقاء الأبدي[123].

ونكاح المسلم للكتابية مجمع عليه - كما قال شيخ الإسلام آبن تيمية - من السّلف والخلف، ولكن يروى عن آبن عمر أنه كره نكاح

(١٢٢) «الظلال»: (ج٦/٣٥٤٦).
(١٢٣) «تفسير كلام المنان» لابن سعدي: (ج١/٢٧٤).

النصرانية وقال: لا أعلم شركاً أعظم من شرك من ربها عيسى ابن مريم[124]، ولكن الجواب على ذلك من ثلاثة أوجه:

(١) إن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين بدليل قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ

[سورة البقرة: ٦٢].

فإن قيل قد وصفوا بالشرك بقوله:

ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

[سورة التوبة: ٣١].

قيل: أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك، لأن الله بعث الرسل بالتوحيد، ولكن النصارى ابتدعوا الشرك وما دام أنه ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة.

(٢) أن يقال: آية البقرة عامة وآية المائدة خاصة. والخاص يقدم على العام.

(٣) أن يقال: آية المائدة ناسخة لآية البقرة لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء[125].

---

(١٢٤) الأثر في «صحيح البخاري»: (ج٩/٤١٦، ح٥٣٨٥) كتاب الطلاق، باب قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾. عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية قال: إن الله حرم المشركات على المؤمنين ولا أعلم من الإشراك شيئاً أكبر من أن تقول المرأة ربها عيسى وهو عبد من عباد الله.

(١٢٥) «دقائق التفسير» لابن تيمية. (ج١/٢٥٨ ـــ ٢٦٠) تحقيق وجمع الدكتور: محمد السيد الجليند. الناشر: دار الأنصار

والذي يظهر لي. وٱلله أعلم - أن الجواب الأول من الأجوبة الثلاثة التي ذكرها شيخ الإسلام غير مسلم به، مع التسليم بأن أصل دينهم هو التوحيد، ولكنهم نقضوا هذا الأصل والعبرة بالخواتيم. أما الجواب الثاني والثالث فهذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم[١٢٦].

وأما ٱنقطاع التوارث بين المسلم والكافر فهذا أيضاً من التكاليف، والمقتضيات للولاء والبراء ودليل ذلك قوله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم» متفق عليه[١٢٧].

والسبب في ذلك: أن التوارث يتعلق بالولاية. ولا ولاية بين المسلم والكافر لقوله تعالى: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض﴾[١٢٨].

قال البغوي: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم: أن الكافر لا يرث المسلم، والمسلم لا يرث الكافر لقطع الولاية بينهما، إلا ما رُوي عن معاذ ومعاوية أنهما قالا: المسلم يرث الكافر، ولا يرثه الكافر، وحُكي ذلك عن إبراهيم النخعي، كما أن المسلم ينكح الكتابية ولا ينكح الكافر المسلمة، وبه قال إسحاق بن راهوية[١٢٩].

أما المرتد: فلا يرث أحداً. لا مسلماً ولا كافراً ولا مرتداً. وٱختلفوا في ميراثه:

فذهب جماعة: إلى أنه لا يورث منه بل ماله فيء. وهذا قول مالك والشافعي.

---

(١٢٦) انظر على سبيل المثال «المغني» لابن قدامة: (ج٧/١٢٩).

(١٢٧) «صحيح البخاري»: (ج١٢/٥٠، ح٦٧٦٤) كتاب الفرائض، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٢٣٣، ح١٦١٤) كتاب الفرائض.

(١٢٨) «فتح الباري»: (ج١٢/٥٠).

(١٢٩) «شرح السنّة»: (ج٨/٣٦٤).

وذهب جماعة: إلى أن ميراثه لأقاربه المسلمين وهو قول الحسن والشعبي وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد. وذهب بعضهم: إلى أن ما آكتسبه في الإسلام لورثته المسلمين، وما آكتسبه بعد الردة فيء وهو قول سفيان الثوري وأبي حنيفة[١٣٠].

إن الإسلام دين عزّة وعفّة وقوة يرتفع بالمسلم أن تبقى نفسه معلقة بأطماع قاصرة لا تتفق مع مبدأ هذا الدين وتميزه وسمو تشريعه. بل إنه ليقطع كل ما من شأنه أن يثبط المسلم أو يغريه بالتذبذب في دينه أو بالنفاق. لذلك قطع النكاح من الكافر لئلا يكون له سلطة على المسلمة، فالإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وقطع النكاح من الكافرة لأنها سبب خطير في ''جرف'' زوجها إلى ملتها وتنشئة الأطفال على مبدأ الكفر والشرك. وقطع التوارث بين المسلم والكافر حتى يبقى المسلم مصوناً من المال الحرام لأن صاحبه الكافر رضي بالحرام وترك شريعة آلله الحلال شريعة الإسلام.

وما دام أنه قد آنقطع التناصر والولاء الإيماني بين المسلم والكافر فلأن يقطع النكاح والتوارث من باب أولى لتخلص نفس المسلم لله رب العالمين وتصبح حياته ومماته كلها قائمة على منهج آلله القويم وشرعه الحكيم.

وبهذا يكون التميز الكامل متحققاً في حياة المسلم فهو لا يعبد إلا آلله، ومن ثم فلا يتلقى إلا من آلله، ولا يرجو ولا يطلب الرزق إلا من آلله. ولا يسير في أمر يسير أو كبير إلا بحسب ما أراده آلله، وهذا هو معنى الاستسلام لله. والطاعة والانقياد له.

---

(١٣٠) «شرح السنّة»: (ج٨/٣٦٥).

الفصل السادس

النهي عن التشبه بالكفار والحرص على حماية المجتمع الإسلامي

الدين الإسلامي ليس حريصاً على تميز المسلمين في المضمون فحسب وإنما حتى في المظهر العام للمسلم في نفسه وللمجتمع الإسلامي في عمومه. ولذلك كان النهي عن التشبه بالكفار أحد التكاليف الربانية لهذه العقيدة. وقد حفل الكتاب والسنّة بأدلة كثيرة حول هذه القضية. لأن التشبه بالكفار في الظاهر يورث التشبه بهم في العقيدة، أو مودتهم، ومسايرتهم وموافقتهم على هواهم مما يحدث التميع في حياة المسلم ويجعله إمعة يتبع كل ناعق، والله يريد له العزة والكرامة. وإذا تمعنا في طريقة التربية القرآنية: وجدنا أن الإسلام ربّى المسلمين على العقيدة الصحيحة فترة طويلة قبل نزول التكاليف، فلما رست جذور هذه الشجرة المباركة في النفوس جاءت التكاليف واحداً إثر الآخر مما جعل المسلمين يترقون في هذا السلم التربوي الإيماني إلى الذروة.

من هنا جاء النهي عن التشبه بالكفار في العهد المدني. وذلك بعد الجهاد من أجل صيانة وحماية المجتمع الإسلامي من كل دخيل، وحرصاً على بناء الشخصية الإسلامية الفريدة. فكما أن هذه العقيدة فريدة في مضمونها وجوهرها فهي أيضاً فريدة في شكلها ومظهرها. لذا وجب على صاحبها أن يكون متميزاً بعد أن أخرجه الله من الظلمات إلى النور.

وتجتاح العالم الإسلامي اليوم موجة من التبعية الجارفة في كل شيء، ومن ذلك التشبه بالغرب الكافر من قبل ضعاف الإيمان الذين يرون أن ذلك الفعل هو سبيل التقدم والرقي!

وفي هذا يقول الأستاذ محمد أسد:

(... وإن السطحيين من الناس فقط ليستطيعون أن يعتقدوا أنه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها.

(إن المدنية ليست شكلاً أجوف فقط، ولكنها نشاط حي. وفي اللحظة التي نبدأ فيها. بتقبل شكلها تأخذ مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فينا، ثم تخلع على اتجاهنا العقلي كله شكلاً معيناً ولكن ببطء ومن غير أن نلحظ ذلك.

ولقد قدر الرسول ﷺ هذا الاختيار حق قدره حينما قال: «مَن تشبه بقوم فهو منهم»[١٣١]. وهذا الحديث المشهور ليس إيماءه أدبية فحسب، بل تعبير إيجابي يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمونِ بالمدنية التي يقلدونها.

(ومن هذه الناحية قد يستحيل أن نرى الفرق الأساسي بين ''المهم'' وبين ''غير المهم'' في نواحي الحياة الاجتماعية وليس ثمة خطأ أكبر من أن نفترض أن اللباس – مثلاً – شيء خارجي بحت وأن لا خوف منه على ''حياة المسلم'' العقلية والروحية. إنه على وجه العموم نتيجة تطور طويل الأمد لذوق شعب ما في ناحية معينة. وزي هذا اللباس يتفق مع الإدراك البديعي لذلك الشعب ومع ميوله. لقد تشكل هذا الزي ثم ما فتىء يبدل أشكاله باستمرار حسب التبدل الذي طرأ على خصائص ذلك الشعب وميوله، وبلبس الثياب الأوروبية يوفق المسلم من غير شعور ظاهر بين ذوقه والذوق الأوروبي ثم يشوه ''حياته'' العقلية بشكل يتفق نهائياً مع اللباس الجديد وبعمله هذا يكون ''المسلم'' قد تخلى عن الإمكانيات الثقافية لقومه، وتخلى

(١٣١) سيرد تخريجه بعد قليل.

عن ذوقهم التقليدي، وتقبل لباس العبودية العقلية الذي خلعته عليه المدنية الأجنبية.

(إذا حاكى المسلم اوروبة في لباسها، وعاداتها وأسلوب حياتها فإنه يكشف عن أنه يؤثر المدنية الأوروبية، مهما كانت دعواه التي يعلنها، وإنه لمن المستحيل عملياً أن تقلد مدنية أجنبية في مقاصدها العقلية والبديعية من غير إعجاب بروحها، وإنه لمن المستحيل أن تعجب بروح مدنية مناهضة للتوجيه الديني، وتبقى مع ذلك مسلماً صحيحاً.

إن الميل إلى تقليد التمدين الأجنبي نتيجة الشعور بالنقص. هذا ولا شيء سواه، ما يصاب به المسلمون الدين يقلدون المدنية الغربية) [١٣٢].

وأصل المشابهة: إن الله جبّل بني آدم - بل سائر المخلوقات - على التفاعل بين الشيئين المتشابهين، فكلما كانت المشابهة أكثر: كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم. والمشاركة بين بني الإنسان أشد تفاعلاً فلأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم فاكتسب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة.

والمشابهة في الأمور الظاهرة: توجب مشابهة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي، وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين أقل كفراً من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام[١٣٣].

ثم إن المشاركة في الهدي الظاهر: توجب مناسبة وآئتلافاً وإن بعد المكان والزمان وهذا أمر محسوس، بل إنها تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر.

---

(١٣٢) «الإسلام على مفترق الطرق»: (ص٨١ — ٨٣) ترجمة الدكتور عمر فروخ، الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٤م، دار العلم للملايين.

(١٣٣) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٢٢٠) بتصرف.

وإذا كانت المشابهة في الأمور الدنيوية تورث المحبة والموالاة فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ نعم. إنها تفضي إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد. والمحبة لهم تنافي الإيمان كما قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

[سورة المائدة: ٥١].

وثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان، لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم[١٣٤]

وهنا لابد أن نورد بعض النصوص الكثيرة والمستفيضة من الكتاب والسنّة التي نهت عن مشابهة الكفار واتباع أهوائهم.

منها قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

[سورة الجاثية: ١٨ - ١٩].

يقول في تفسيرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: جعل الله محمداً ﷺ على شريعة من الأمر شرعها له وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون. وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته. وأهواءهم: هي ما يهوونه وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل وتوابع ذلك. فموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين لهم في بعض الأمور ويسرون بذلك.

---

(١٣٤) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٢١٩ ــ ٢٢٢) بتصرف.

ولو فرض أن الفعل ليس من اتباع أهوائهم: فلا ريب أن مخالفتهم في ذلك أحسم لمادة متابعتهم في أهوائهم وأعون على حصول مرضاة الله في تركها[١٣٥].

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى:

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ

[سورة البقرة: ١٢٠].

فانظر كيف جاء في الخبر ''ملّتهم'' وفي النهي ''أهواءهم'' لأن القوم لا يرضون إلا باتباع الملة مطلقاً. والزجر وقع عن اتباع أهوائهم في قليل أو كثير، ومن المعلوم أن متابعتهم في بعض ما هم عليه من الدين: نوع متابعة لهم في بعض ما يهوونه. أو مظنة لمتابعتهم فيما يهوونه[١٣٦].

ومن الأدلة القرآنية: أيضاً ما ورد في سورة البقرة بخصوص تغيير القِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة قال تعالى:

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

[سورة البقرة: ١٤٥].

---

(١٣٥) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص١٤).

(١٣٦) المصدر السابق: (ص١٥).

إلى قوله تعالى:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

[سورة البقرة: ١٥٠].

قال غير واحد من السّلف: معناه لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة فيقولوا: قد وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا. فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة. وبيّن سبحانه أن من حكمة فسخ القبلة وتغييرها: مخالفة الكافرين في قبلتهم ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، وهذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة فإن الكافر إذا اتبع في شيء من أمره كان له من الحجة مثل ما كان – أو قريب مما كان – لليهود من الحجة في القبلة(١٣٧).

ومن الأدلة القرآنية أيضاً الدالة على النهي عن التشبه بهم في أي حال وأي حال وأي وضع قوله تعالى:

﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[سورة يونس: ٨٩].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

[سورة الأعراف: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى:

---

(١٣٧) نفس المصدر: (ص١٦).

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾

[سورة النساء: ١١٥].

كل ذلك يدل على أن جنس مخالفتهم وترك مشابهتهم أمر مشروع(١٣٨).

أما السنّة النبوية فورد فيها نصوص كثيرة في هذا الموضوع. ومن ذلك قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»(١٣٩). وفي هذا الحديث يقول ابن تيمية: إسناده جيد وأقل أحواله: أنه يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [سورة المائدة: ٥١].

وهو نظير ما قاله عبد الله بن عمرو: «من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة»(١٤٠). فقد يحمل هذا على التشبه المطلق الذي يوجب الكفر.. وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً للكفر أو المعصية: كان حكمه كذلك.

أما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضاً، ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه ففي كون هذا تشبهاً نظر. لكن قد ينهى عن هذا لئلا يكون ذريعة إلى التشبه ولما فيه من المخالفة(١٤١). ومن الأدلة النبوية أيضاً قوله ﷺ:

---

(١٣٨) انظر نفس المصدر: (ص١٦).

(١٣٩) «سنن أبي داود»: (ج٤/٣١٤، ح٤٠٣١) كتاب اللباس، و«مسند أحمد»: (ج٧/١٤٢، ح٥١١٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقال الألباني: صحيح، انظر «صحيح الجامع»: (ج٥/٢٧٠، ح٦٠٢٥).

(١٤٠) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٨٣)، والأثر سبق تخريجه: (ص٢٧٦).

(١٤١) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٨٢ — ٨٣).

«لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم» قلنا: يا رسول آلله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»[١٤٢].

وفي الصحيح أيضاً: عن آبن عمر: أن الناس نزلوا مع رسول آلله ﷺ على الحِجر - أرض ثمود - فآستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول آلله ﷺ أن يهريقوا ما آستقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[١٤٣].

ولما كان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ويسمونها ''ذات أنواط'' قال بعض الناس: يا رسول آلله: آجعل ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال ﷺ: «آلله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى آجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة، إنها السَنن لتركبن سَنن من كان قبلكم»[١٣٤]. فأنكر النبيُّ ﷺ مجرد مشابهتهم الكفار في آتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أطم من ذلك من مشابهتهم المشركين أو هو الشرك بعينه؟[١٤٥].

أيهما أعظم - يا ترى - شجرة يعلق عليها سلاح نهي عنها لأن فيها آقتداء بفعل الكفار أم نظام حياة فيه التشريع والتحليل والتحريم والإلزام والعقوبة على المخالفة؟

ومن الأحاديث الواردة في النهي عن التشبه قوله ﷺ: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»[١٤٦].

---

(١٤٢) سبق تخريجه: (ص٢٤٧).
(١٤٣) «صحيح مسلم»: (ج٤/٢٢٨٥، ح٢٩٨١).
(١٤٤) «مسند أحمد»: (ج٥/٢١٨)، إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح.
(١٤٥) «اقتضاء الصراط»: (ص٣١٤).
(١٤٦) «صحيح البخاري»: (ج٦/٤٩٦، ح٣٤٦٢) كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٦٦٣، ح٢١٠٣).

وقوله ﷺ: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم»[١٤٧]

وقوله ﷺ: «ليس منا من تشبه بغيرنا»[١٤٨].

إن هذه النصوص وغيرها تهدف إلى سدِّ الذرائع لأن المشابهة في الظاهر ذريعة إلى الموافقة في القصد والعمل[١٤٩].

لكن هناك حالات معينة قد تجعل المسلم يشارك الكفار في الهدي الظاهر.

فمتى تكون الموافقة ومتى تكون المخالفة؟

يجيب على ذلك شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله بقوله: إن المخالفة لا تكون إلا بعد ظهور الدين وعلوه كالجهاد وإلزامهم بالجزية والصغار، ولما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء فإنه لم يشرع لهم المخالفة، فلما كمل الدين وظهر وعلا شرع ذلك.

ومثل ذلك اليوم - هذا كلام الشيخ في عصره فكيف بالعصور التالية!؟ - لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب: لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر لما عليه في ذلك من الضرر. بل يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم إلى الدين، والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك أو دفع ضررهم عن المسلمين ونحو ذلك من المقاصد الصالحة فأما في دار الإسلام والهجرة التي أعزّ الله فيها دينه، وجعل على الكافرين بها الصغار والجزية: ففيها شرعت المخالفة.

---

(١٤٧) «سنن أبي داود»: (ج١/٤٢٧، ح٦٥٢) كتاب الصلاة، وقال الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع»: (ج٣/١٠٦، ح٣٢٠٥).

(١٤٨) «سنن الترمذي»: (ج٧/٣٣٥، ح٢٦٩٦)، وقال: إسناده ضعيف. ولكن حسنه الألباني. انظر «صحيح الجامع»: (ج٥/١٠١، ح٥٢١٠).

(١٤٩) «إعلام الموقعين» لابن القيّم: (ج٣/١٤٠).

وإذا ظهرت الموافقة والمخالفة لهم بآختلاف الزمان: ظهرت حقيقة الأحاديث[150] في هذا.

وقد ذكر العلماء رحمهم ٱلله قاعدة جليلة عليها مدار الشرع وإليها مرجع الخلق والأمر – كما يقول ابن القيم – وهي: إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التي هي دونها، والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها. فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها[151].

ولكن مع هذا يجب أن يحذر المسلم فإن هذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من ٱلله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة رسول ٱلله ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند ٱلله، وأحبها إليها، وأرضاها له[152].

وإذا أردنا أن نعرف تفصيل مخالفة أهل الكتاب وجدنا أن ذلك يندرج تحت ثلاثة أقسام[153]:

(١) ما كان مشروعاً في الشريعتين، أو ما كان مشروعاً لنا وهم يفعلونه فهذا كصوم يوم عاشوراء، أو كأصل الصلاة والصيام، فهنا تقع المخالفة في صفة ذلك العمل كما سنَّ لنا صوم تاسوعاء، وعاشوراء، وكما أمرنا بتعجيل الفطر والمغرب مخالفة لأهل الكتاب، وكذلك تأخير السحور مخالفة لهم، والصلاة في النعلين مخالفة لليهود وهذا كثير في العبادات وكذلك في العادات.

(٢) ما كان مشروعاً ثم نسخ بالكلية كالسبت، أو إيجاب صلاة أو صوم. ولا يخفى النهى عن موافقتهم في هذا.

(١٥٠) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص١٧٦ — ١٧٧).
(١٥١) «الجواب الكافي»: (ص١٦٧).
(١٥٢) انظر «بدائع الفوائد»: (ج٢/٢٦٢).
(١٥٣) ذكرها شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص١٧٨ — ١٧٩).

وكذلك الأمر في أعيادهم، لأن الأعياد المشروعة يشرع فيها وجوباً أو استحباباً من العبادات ما لا يشرع في غيرها كالصلاة أو الذكر أو الصدقة أو النسك ويباح فيها أو يستحب أو يجب من العادات التي للنفوس فيها حظ ما لا يكون في غيرها كذلك كالتوسع في الطعام واللباس.

ولهذا وجب علينا فطر العيدين وقرن بالصلاة في أحدهما الصدقة وقرن بها في الآخر الذبح وكلاهما من أسباب الطعام فموافقتهم في هذا القسم المنسوخ من العبادات أو العادات أوكليهما أقبح من موافقتهم فيما هو مشروع الأصل. ولهذا كانت الموافقة في هذا محرمة.. وفي القسم الأول قد لا تكون إلا مكروهة.

(٣) ما أحدثوه من العبادات أو العادات أو كليهما، فهذا أقبح وأقبح، فإنه لو أحدثه المسلمون لقد كان يكون قبيحاً، فكيف إذا كان مما لم يشرعه نبي قط؟ بل قد أحدثه الكافرون؟ فالموافقة فيه ظاهرة القبح. فهذا أصل.

وأصل آخر: وهو أن كل ما يتشابهون فيه من عبادة أو عادة أو كليهما هو من المحدثات في هذه الأمة ومن البدع إذ الكلام فيما كان من خصائصهم. وأما ما كان مشروعاً لنا وقد فعله سلفنا السابقون فلا كلام فيه.

ونخلص إلى القول: أن حكم الموافقة في الأول مكروهة وفي الثاني محرمة وفي الثالث أشد حرمة.

ما بين التشبه والولاء من علاقة

من نافلة القول: أن الشارع ما ترك خيراً إلاَّ دل الأمة عليه، وما ترك شرًا إلا حذر الأُمة منه. وحين أَمر الشارع الحكيم بمخالفة الكفار - في الهدي الظاهر - فإن ذلك لحكم جليلة[154] منها:

(١) إن المشاركة في الهدي الظاهر: تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأَخلاق والأَعمال.

وهذا أَمر محسوس، فإن اللابس لثياب الجند المقاتلة - مثلاً - يجد في نفسه نوع تخلّق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضياً لذلك، إلا أَن يمنعه من ذلك مانع.

(٢) إن المخالفة في الهدي الظاهر: توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأَسباب الضلال. والانعطاف إلى أَهل الهدي والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأَعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أَتم حياة، وأَعرف بالإسلام الذي هو الإسلام - لست أَعني مجرد التوسم به ظاهراً، أَو باطناً بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة - كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً أَو ظاهراً أَتم. وبعده عن أَخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أَشد.

(٣) إن مشاركتهم في الهدي الظاهر: توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التمييز ظاهراً بين المهديين والمرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأَسباب الحكمية.

---

(١٥٤) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص١١ ــ ١٢).

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحاً محضاً، لو تجرد عن مشابهتهم. فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالتهم ومعاصيهم. وهذا أصل ينبغي أن يتفطن إليه(١٥٥).

مثال واحد
من مشابهة اليهود والنصارى
(العيد)

العيد مظهر مميز للأمة، ومن هنا آخترته مثالاً واحداً من أمثلة التشبه باليهود والنصارى. وقد وردت الأدلة الكثيرة المحرمة للتشبه بهم في هذا الشأن من الكتاب والسنّة والإجماع والاعتبار(١٥٦).

أما الكتاب: فقد قال تعالى:

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ

[سورة الفرقان: ٧٢].

قال مجاهد في تفسيرها إنها أعياد المشركين وكذلك قال مثله الربيع بن أنس والقاضي أبو يعلى والضحاك(١٥٧).

وإذا كان آلله قد مدح ترك شهودها الذي هو مجرد الحضور برؤية أو

---

(١٥٥) نفس المصدر: (ص١٢).

(١٥٦) أفاض شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله في هذا الموضوع بما يكفي ويشفي في كتابه القيّم «اقتضاء الصراط المستقيم». ولذا فما أذكره هنا مقتبس من كلامه رحمه الله.

(١٥٧) المصدر السابق: (ص١٨١).

سماع فكيف بالموافقة بما يزيد على ذلك من العمل الذي هو عمل الزور لا مجرد شهودة؟

ومن السنّة: عن أنس بن مالك رضي ٱلله عنه قال: قدم رسول ٱلله ﷺ ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: «ما هذان اليومان؟» قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول ٱلله ﷺ: «إن ٱلله قد أبدلكم بهما خيراً منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر» رواه أبو داود(١٥٨) وأحمد والنسائي على شرط مسلم.

ووجه الدلالة: أن اليومين الجاهليين لم يقرهما رسول ٱلله ﷺ ولا تركهم يلعبون فيهما على العادة بل قال: «إن ٱلله قد أبدلكم بهما خيراً منهما..» والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه، إذ لا يجمع بين البدل والمبدل منه. وهذه العبارة لا تستعمل إلا فيما ترك آجتماعهما كقوله تعالى:

أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا

[سورة الكهف: ٥٠].

وقوله ﷺ «خيراً منهما» يقتضي الاعتياض بما شرع لنا عما كان في الجاهلية.

والمحذور في أعياد أهل الكتابين التي نقرهم عليها أشد من المحذور في أعياد الجاهلية التي لا نقرهم عليها، فإن الأمة قد حذروا مشابهة اليهود والنصارى وأخبروا إن سيفعل قوم منهم هذا المحذور، بخلاف دين الجاهلية فإنه لا يعود إلا في آخر الدهر عند آخترام أنفس المؤمنين عموماً، ولو لم يكن أشد منه فإنه مثله على ما لا يخفى، إذ الشر الذي له فاعل موجود يخاف على الناس منه أكثر من شر لا مقتضي له قوي(١٥٩).

---

(١٥٨) كتاب «الصلاة»: (/٦٧٥، ح١١٣٤)، وانظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص١٨٤).

(١٥٩) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص١٨٤ — ١٨٦).

أما الإجماع: فمما هو معلوم من السير أن اليهود والنصارى والمجوس مازالوا في أمصار المسلمين بالجزية يفعلون أعيادهم التي لهم، ومع ذلك لم يكن على عهد السّلف من المسلمين من يشركهم في شيء من ذلك.

وكذلك ما فعله عمر بخصوص أهل الذمة - سيأتي ذكر ذلك قريباً - وما آتفق عليه الصحابة والفقهاء أن أهل الذمة لا يظهرون أعيادهم في دار الإسلام، وإذا كان هذا آتفاقهم فكيف يسوغ للمسلمين فعلها؟ أو ليس فعل المسلم لها أشد من فعل الكافر لها مظهراً لها؟

وقد قال عمر رضي آلله عنه: «إياكم ورطانة الأعاجم، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم في كنائسهم فإن السخطة تتنزل عليهم» رواه أبو الشيخ الأصبهاني ورواه البيهقي بإسناد حسن(١٦٠).

وأما الاعتبار: فالأعياد من جملة الشرع، والمناهج والمناسك التي قال آلله فيها:

لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

[سورة المائدة: ٤٨].

فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج، فإن الموافقة في جميع العيد: موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه: موافقة في بعض شعب الكفر، بل إن الأعياد من أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر وأظهر شعائره.

ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة(١٦١).

---

(١٦٠) نفس المصدر: (ص١٨٢، ١٩٩).

(١٦١) نفس المصدر: (ص٢٠٨).

ثم إن عيدهم من الدين الملعون هو وأهله، فموافقتهم فيه موافقة فيما يتميزون به من أسباب سخط ٱلله وعقابه.

ومن أوجه الاعتبار أيضاً: أنه إذا سوغ فعل القليل من ذلك أدى إلى فعل الكثير، ثم إذا ٱشتهر الشيء دخل فيه عوام الناس وتناسوا أصله حتى يصير عادة للناس بل عيداً لهم، حتى يضاهى بعيد ٱلله، بل قد يزيد عليه حتى يكاد أن يفضي إلى موت الإسلام وحياة الكفر(١٦٢).

أما ما ينعكس على نفوسهم إذا تشبه بهم المسلمون في العيد خاصة فهو السرور والفرح لأن في ذلك رفعة لباطلهم وتنافياً لمبدأ القهر والجزية والصغار الواقعين تحته.

وخلاصة المشابهة: أنها تفضي إلى كفر أو معصية غالباً، أو تفضي إليهما في الجملة وليس في هذا المفضي مصلحة، وما أفضى إلى ذلك كان محرماً فالمشابهة محرمة، والمقدمة الثانية لا ريب فيها، لأن ٱستقرار الشريعة يدل على أن ما أفضى إلى الكفر غالباً حرام وما أفضى إليه على وجه خفي حرام وما أفضى إليه في الجملة ولا حاجة تدعو إليه حرام(١٦٣).

وبعد أن يتمعن المسلم كل هذه الأحكام بخصوص العيد عليه أن يقيس بمقياس الكتاب والسنّة: الأعياد المحدثة اليوم ومن يحدثونها ومن يهنئون بها الكفرة والملاحدة. مثل عيد الثورة! وعيد الجلوس! وعيد الميلاد! وعيد الأم! وعيد تحكيم القانون ونبذ الشريعة! وعيد الوطن! وعيد الجلاء!... إلى آخر هذه المسميات والأسماء الجاهلية التي ما أنزل بها من سلطان، والتي هي مضاهاة ومنازعة لشريعة ٱلله وحكمه.

فواجب المسلم أن لا يقر بها ولا يهنىء أحداً بها ويكتفي بالعيدين

---

(١٦٢) المصدر السابق: (ص٢٠٩).

(١٦٣) المصدر السابق: (ص٢١٦).

الإسلاميين الفطر والأضحى وفي الأيام الأخرى كالجمعة وغيرها ما يغنينا عن آستيراد شعائر وشارات الكفر وأربابه.

صورة مشرقة من صور التميز في المجتمع الإسلامي الأول

كلما عاد الحديث إلى الرعيل الأول كان له حلاوة خاصة تبعث في النفس الأمل والرجاء بالاقتداء بأولئك العظام، وتحفز الهمم لتشمر عن ساعد الجد فتلحق بركب قافلة الإيمان، ودعاة الهدى والخير.

ولقد كانت الشروط العمرية التي وضعها الفاروق رضي آلله عنه مثالاً رائعاً في تعامل المسلمين مع غيرهم وتميز أهل الذمة عن المسلمين مما يحفظ على المجتمع الإسلامي شخصيته المستقلة ويرعى لأولئك الذمّيين حقوقهم التي أمر بها هذا الدين الحنيف.

إن الحرص العُمري على تميز المسلمين عن غير المسلمين هو عمق هذه العقيدة في نفسه والقيام بمسؤوليته كراعٍ للأمّة يعلم أنه مسؤول عنها كما في الحديث الصحيح «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»(١٦٤) متفق عليه.

والذي جعلني أختار موضوع أهل الذمة في هذه النقطة بالذات هو أن وضع الذميين في الدولة الإسلامية وضع خاص غير وضع الكفار الحربيين أو المهادنين.

وحيث ينشأ ويعيش الذميون وسط المجتمع الإسلامي فإن هذا الشيء يجب أن يكون محاطاً بحصانة خاصة للمسلمين لئلا يؤدي آحتكاكهم

---

(١٦٤) «صحيح البخاري»: (ج١٣/١١١، ح٧١٣٨) كتاب الأحكام، و«صحيح مسلم»: (٣/١٤٥٩، ح١٨٢٩) كتاب الإمارة.

بالذميين إلى التشبه بهم وذوبان الشخصية الإسلامية التي أراد هذا الدين أن تكون فريدة متميزة في كل شيء.

ثم إن من صفات هذا الدين الحنيف العدل حتى مع الكفار، ولكن ما حدود هذا العدل وما سماته؟ خاصة وإنه قد أقر ''الذميين'' على العيش وسط المجتمع الإسلامي.

الجواب: هو ما ورد في ''الشروط العمرية'' التي نصت على حماية المسلمين وكفلت للذميين حقوقهم على أن يكونوا هم أيضاً متميزين بزيهم وديانتهم حتى لا يلتبس المسلم بالذمي: وينتج من ذلك خليط لا يعرف له آتجاه محدد وهوية خاصة. وهذه الشروط - كما يقول عنها شيخ الإسلام آبن تيمية ـــ منها: ما مقصوده التمييز عن المسلمين في الشعور واللباس، والأسماء، والمراكب والكلام ونحوها ليتميز المسلم من الكافر ولا يشبه أحدهما الآخر في الظاهر. ولم يرضِ عمر رضي آلله عنه والمسلمون بأصل التمييز، بل بالتمييز في عامة الهدي... وذلك يقتضي: إجماع المسلمين على التميز عن الكفار ظاهراً، وترك التشبه بهم، ولقد كان أمراء الهدى مثل العمرين وغيرهما يبالغون في تحقيق ذلك بما يتم به المقصود. ومنها: ما يعود بإخفاء منكرات دينهم وترك إظهارها، كمنعهم من إظهار الخمر، والناقوس والنيران في الأعياد. ومنها: ما يعود بإخفاء شعار دينهم كأصواتهم بكتابهم. ومنها: ما يعودّ بترك إكرامهم وإلزامهم الصغار الذي شرعه آلله[١٦٥].

وإليك نص هذه الشروط:

روى سفيان الثوري عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي آلله عنه حين صالح نصارى الشام، وشرط عليهم فيه ألا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية[١٦٦]،

---

(١٦٥) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص١٢٢ ـــ ١٢٤).

(١٦٦) القلاية: مبى يبنيه النصارى كالمنارة ولا تكون إلا لواحد ينفرد فيها بنفسه =

ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يؤوا جاسوساً، ولا يكتموا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يظهروا شركاً، ولا يمنعوا ذوي قراباتهم من الإسلام إن أرادوه وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، ولا يتكنوا بكناهم، ولا يركبوا سرجاً، ولا يتقلدوا سيفاً، ولا يبيعوا الخمور، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم ولا يظهروا صليباً ولا شيئاً من كتبهم في شيء من طرق المسلمين، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفيًّا، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من محضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين، ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم، ولا يظهروا النيران معهم، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين.

فإن خالفوا شيئاً مما شرطوه فلا ذمة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق(١٦٧) انتهى.

ولهذه الشروط طرق أخرى في روايتها، ولكنها كلها تلتقي عند هذا المعنى، ولذلك عقب ابن القيم رحمه الله على اختلاف تلك الروايات بقوله: وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها من بعده الخلفاء وعملوا بها(١٦٨).

= ولا يكون لها باب، بل فيها طاقة يتناول منها طعامه وشرابه وما يحتاج إليه. انظر «أحكام أهل الذمة»: (ج٢/٦٦٨).

(١٦٧) «أحكام أهل الذمة» لابن القيّم: (ج٢/٦٦١ — ٦٦٢).

(١٦٨) «أحكام أهل الذمة» لابن القيّم: (ج٢/٦٦٣)، انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص١٢).

سبحان الله!!!

ما هذا البون الشاسع بين تلك القمة وبين هذا الغثاء الذي يعيش اليوم على الأرض متميعاً متسكعاً وراء الكفار والملاحدة؟ ويحسب نفسه مسلماً؟

أين تلك العزة والقوة والسلطان الربّاني الذي أُخذ به ذلك الجيل، وأين الضعف والاستخذاء والتبعية العمياء التي يعيشها ''المسلمون'' اليوم؟

ترى: هل المنتسبون اليوم للإسلام في درجة الذميين الذين طُبقت عليهم هذه الشروط؟

هل ''المتسلمون'' اليوم ذميون للكفار؟

إن الذي يظهر لي أنه حتى على هذا الافتراض الأخير فإن المسلمين اليوم أقل قدراً من ذميي الأمس. ذميو الأمس: في صغار وفي ذلة وفي زي معين ومكان معين. نعم.

أما مسلمو اليوم ففي صغار وذلة وآستكانة عن إسلامهم وتبعية للشرق الملحد والغرب الكافر، وإعجاب وآنبهار بما عليه أعداء الإسلام، وسخرية وآستهزاء بما كان عليه سلف هذه الأمة!

من هنا فهم أحط قدراً عند آلله – ما داموا بهذه الصفات – وأحقر من أن يُهابوا وأصغر من أن يُسمع لهم كلمة في المجتمع الدولي المعاصر.

فعلى المسلم الصادق. المسلم الواعي. المسلم المدرك لحقيقة إسلامه أن يعرف أين يضع قدمه ولمن يهب حبه وولاءه، وأن يعلم أن حب أعداء آلله وموالاتهم والتشبه بهم لا تلتقي مع صدق إيمانه وإنما يفعل ذلك من يزعم الإسلام زعماً وبئس ذلك الزعم الكاذب.

وقد ذكر علماء الإسلام ما ينتقض به عهد الذمي حرصاً على حماية المسلمين من أي دخيل يستغل سماحة الإسلام فيغدر بالمسلمين. وهذه النواقض هي:

(١) الإعانة على قتال المسلمين، وقتل المسلم أو المسلمة.

(٢) قطع الطريق عليهم.

(٣) إيواء جواسيس المشركين أو التجسس للمشركين بأن يكتب لهم أسرار المسلمين.

(٤) الزنا بالمسلمة أو إصابتها بآسم النكاح.

(٥) فتن المسلم عن دينه.

(٦) سب آلله أو النبي ﷺ[١٦٩].

والأدلة على آنتقاض عهد الذمي بسبّ آلله أو كتابه أو دينه أو رسوله ووجوب قتله، وقتل المسلم إذا فعل ذلك كثيرة من الكتاب والسنّة وإجماع الصحابة والتابعين والاعتبار[١٧٠].

أما الكتاب: فقوله تعالى:

وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ

[سورة التوبة: ١٢].

وقوله تعالى:

قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ

[سورة التوبة: ٢٩].

(١٦٩) انظر «الصارم المسلول على شاتم الرسول» لابن تيمية: (ص٥ ــ ٢٦).

(١٧٠) المصدر السابق: والمراد بالاعتبار: القياس.

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾

[سورة الأحزاب: ٥٧ - ٥٨].

ومن السنّة: ما رواه الشعبي عن عليٍّ رضي آلله عنه: «أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت فأبطل رسول آلله ﷺ دمها»[١٧١] رواه أبو داود وآبن بطة في «سُننه»، والحديث متصل لأن الشعبي رأى عليّاً وكان على عهد عليٍّ قد ناهز العشرين سنة. ثم إن كان فيه إرسال - لأن الشعبي يبعد سماعه من علي - فهو حجة وفاقاً، لأن الشعبي عندهم صحيح المراسيل لا يعرفون له مرسلاً إلا صحيحاً[١٧٢].

وأيضاً ما رواه عكرمة عن آبن عباس رضي آلله عنهما: أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، فلما كان ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه فأخذ المغول فوضعه في بطنها وآتكأ عليها فقتلها، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس فقال: «أنشد رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق إلاّ قام» قال: فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتدلدل، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال يا رسول آلله أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها فلا تنزجر، ولي

---

(١٧١) «سنن أبي داود»: (ج٤/٥٣٠، ح٤٣٦٢) كتاب الحدود، والدارقطني: (ج٣/١١٢، ح١٠٢) في الحدود، قال الحافظ في «بلوغ المرام»: رواته ثقات. انظر التعليق «المغني»: (ج٣/١١٢).

(١٧٢) «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: (ص٦١).

منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتكأت عليه حتى قتلها. فقال النبي ﷺ: «اشهدوا أن دمها هدر» رواه أبو داود والنسائي[١٧٣].

ومن السنّة أيضاً: ما احتج به الشافعي على أن الذمي إذا سبَّ قتل وبرئت منه الذمة وهو قصة كعب بن الأشرف اليهودي. والحديث متفق عليه[١٧٤].

وأما إجماع الصحابة: فقد نقل ذلك عنهم في قضايا متعددة مستفيضة ولم ينكرها أحد فصارت إجماعاً ومن ذلك: ما رفع إلى المهاجر بن أبي أمية[١٧٥]، وكان أميراً على اليمامة ونواحيها: أن امرأتين مُغنيتين غنت إحداهما بشتم النبي ﷺ فقطع يدها ونزع ثنيتها وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع يدها ونزع ثنيتها، فكتب إليه أبو بكر: بلغني الذي سرت به في المرأة التي غنت وزمزمت بشتم النبي ﷺ فلولا ما قد سبقتني لأمرتك بقتلهما، لأن حدَّ الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر[١٧٦].

وفي عهد عمر رضي الله عنه: جاءه رجل من أهل الكتاب — حين دخل الشام — وهو مشجوج مضروب فغضب لذلك عمر وأمر بإحضار عوف بن مالك[١٧٧] الأشجعي لأنه هو الذي فعل ذلك بالذمي فلما سأله عمر عن

---

(١٧٣) «سنن أبو داود»: (ج٤/٥٢٨، ح٤٣٦١) كتاب الحدود، والنسائي: (ج٧/١٠٨) في باب حكم سب النبي، وإسناده حسن.

(١٧٤) «صحيح البخاري»: (ج٧/٣٣٦، ح٤٠٣٧) كتاب المغازي، و«صحيح مسلم»: (ج٢/١٤٢٥، ح١٨٠١) في الجهاد.

(١٧٥) المهاجر بن أبي أميّة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي أخو أم سلمة زوج النبيّ ﷺ. قال الزبير: شهد بدراً مع المشركين. ولاه رسول الله على صدقات صنعاء، ثم ولاه أبو بكر. «الإصابة»: (ج٣/٤٦٥).

(١٧٦) انظر «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: (ص٢٠٠).

(١٧٧) عوف بن مالك الأشجعي قال الواقدي: أسلم عام خيبر ونزل حمص، وقال =

فعله هذا قال: يا أمير المؤمنين رأيت هذا يسوق بآمرأة مسلمة على حمار فنخس بها لتصرع، فلم تصرع، فدفعها فصرعت فغشيها، وأكب عليها، فقال عمر آئتني بالمرأة فلتصدق على ما قلت فأتاها عوف، فذهب معه أبوها وزوجها فأخبر عمر بمثل قول عوف، فأمر عمر باليهودي فصلب وقال: ما على هذا صالحناكم ثم قال: يا أيها الناس آتقوا ٱلله في ذمة محمد ﷺ فمن فعل منهم مثل هذا فلا ذمة له(١٧٨).

وأما الاعتبار: فمن وجوه(١٧٩):

أحدها: إن عيب ديننا وشتم نبينا مجاهدة لنا ومحاربة، فكان نقضاً للعهد كالمجاهدة والمحاربة بطريقة الأولى.

الثاني: إن مطلق العهد الذي بيننا وبينهم يقتضي أن يكفوا ويمسكوا عن إظهار الطعن في ديننا، وشتم رسولنا، كما يقتضي الإمساك عن دمائنا ومحاربتنا.

الثالث: إن ٱلله فرض علينا تعزيز رسوله وتوقيره، وتعزيزه: نصره ومنعه، وتوقيره إجلاله وتعظيمه، وذلك يوجب صون عرضه بكل طريق. فلا يجوز أن نصالح أهل الذمة، وهم يسمعونا شتم نبينا وإظهار ذلك، لأنا إذا تركناها على هذا تركنا الواجب علينا نحو رسول ٱلله ﷺ.

= غيره: شهد الفتح وكانت معه راية أشجع، قال ابن سعد: آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي الدرداء ومات سنة ٧٣هـ في خلافة عبد الملك. «الإصابة»: (ج٣/٤٣).

(١٧٨) «الأموال» لأبي عبيد: (ص٢٣٥ ــ ٢٣٦).

(١٧٩) «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: (ص٢٠٦ ــ ٢٠٩).

الأمكنة التي يمنع أعداء الله
من دخولها والإقامة فيها

قال آلله تعالى:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٢٨﴾

[سورة التوبة: ٢٨].

وعن أبي هريرة رضي آلله عنه قال: بينما نحن في المسجد خرج علينا النَّبيُّ ﷺ فقال: «آنطلقوا إلى اليهود» فخرجنا معه حتى إذا جئنا بيت المدراس قام النبي ﷺ فناداهم فقال: «يا معشر اليهود: أسلموا تسلموا» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول آلله ﷺ ذلك أُريد، فقال: أسلموا تسلموا، فقالوا قد بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول آلله ﷺ: ذلك أُريد، ثم قالها الثالثة فقال: «آعلموا إنما الأرض لله ورسوله، وإني أُريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فآعلموا إنما الأرض لله ورسوله» متفق عليه ولفظه للبخاري(١٨٠).

وقال ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» متفق عليه(١٨١).

وقال أيضاً: «لأُخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع

---

(١٨٠) «صحيح البخاري»: (ج١٢/٣١٧، ح٦٩٤٤) كتاب الإكراه، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٣٨٧، ح١٧٦٥) في الجهاد.

(١٨١) «صحيح البخاري»: (ج٦/١٧٠، ح٣٠٥٣) كتاب الجهاد، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٢٥٨، ح١٦٣٧) في كتاب الوصية.

فيها إلا مسلماً» رواه مسلم(١٨٢).

وهذه النصوص الصريحة الواضحة وغيرها توضح - بجلاء - مدى حرص الإسلام على حماية أمته من معاشرة الكفار، ومعايشتهم لما في ذلك من جلب لمودتهم وموالاتهم التي نهى الله عنها.

قال الشافعي رحمه الله: يمنعون من الحجاز وهو مكّة والمدينة واليمامة وقراها. أما غير الحرم منه فيمنع الكتابي وغيره من الاستيطان والإقامة به، وله الدخول بإذن الإمام لمصلحة كأداء رسالة أو حمل متاع يحتاج إليه المسلمون: وإن دخل لتجارة ليس فيها كثير حاجة لم يأذن له إلا بشرط أن يأخذ من تجارته شيئاً، ولا يمكن من الإقامة أكثر من ثلاث(١٨٣). وعقّب ابن القيم رحمه الله على كلام الشافعي بقوله: أما حرم مكّة فإنهم يمنعون من دخوله بالكلية فلو قدم رسول لم يجز أن يأذن له الإمام في دخوله، ويخرج الوالي أو من يثق به إليه. وأما حرم المدينة فلا يمنع من دخوله لرسالة أو تجارة أو حمل متاع(١٨٤).

اعتراض وجوابه

إن قيل: إن الله سبحانه إنما منع المشركين من قربان المسجد الحرام ولم يمنع أهل الكتاب منه، ولهذا أذّن مؤذن النبيّ ﷺ يوم الحج الأكبر إنه لا يحج بعد العام مشرك. والمشركون الذين كانوا يحجون هم عبدة الأوثان لا أهل الكتاب؟(١٨٥).

والجواب: للناس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين:

---

(١٨٢) «صحيح مسلم»: (ج٣/١٣٨٨، ح١٧٦٧) كتاب الجهاد.

(١٨٣) «أحكام أهل الذمة»: (ج١/١٨٤)، وقارن بـ «الأموال» لأبي عبيد: (ص٩٠).

(١٨٤) «أحكام أهل الذمة»: (ج١/١٨٥).

(١٨٥) المصدر السابق: (ج١/١٨٨).

فابن عمر رضي الله عنهما وغيره كانوا يقولون: هم من المشركين، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا أعلم شركاً أعظم من أن يقول المسيح ابن الله وعزير ابن الله، وقد قال الله فيهم:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

[سورة التوبة: ٣١].

والثاني: لا يدخلون في لفظ «المشركين» لأن الله سبحانه جعلهم غيرهم في قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾

[سورة البقرة: ٦٢].

قال ابن تيمية: والتحقيق: أن أصل دينهم دين التوحيد فليسوا من المشركين في الأصل، والشرك طارىء عليهم فهم منهم باعتبار ما عرض لهم لا باعتبار أصل الدين، فلو قدر أنهم لم يدخلوا في لفظ الآية دخلوا في عمومها المعنوي وهو كونهم نجساً والحكم يعم بعموم علته.

(وجميع الصحابة والأئمة فهموا من قوله ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ أن المراد مكة كلها والحرم ولم يخص ذلك أحد منهم بنفس المسجد الذي يطاف فيه. ولما نزلت هذه الآية كانت اليهود بخيبر وما حولها ولم يكونوا يمنعون من المدينة) (١٨٦).

---

(١٨٦) المصدر السابق: (ج١/١٨٩).

الفصل السابع
تعامل المسلمين مع غير المسلمين
وفيه ثلاثة مباحث

* المبحث الأول: الفرق بين الموالاة وحسن المعاملة :

كلمة حول ما يسمى بزمالة الأديان

أجدني مضطراً لذكر هذه المسألة لتوضيح وبيان وجه الحق والصواب حول هذا المفهوم الخاطىء، الذي خلط فيه الحق والباطل. وطالب العلم المبتدىء – مثلي – يعجب لمشايخ كبار من أهل العلم ''وقعوا في هذا الفخ الذي تولى كبر الدعوة له أعداء هذا الدين من صليبيين ويهود''!

ويراد من وراء هذا التقريب والزمالة المزعومة إضاعة تميز المسلم وآنصهار شخصيته في تيار هذه الدعوة المشبوهة.

ونحب أن نقرر – آبتداء – أن الرسالات السماوية التي أنزل آلله بها رسله عليهم السلام كلها تدعو إلى عبادة آلله وحده قال تعالى:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

[سورة النحل: ٣٦].

مع آختلاف في الشرائع آقتضتها حكمة ربّانية لا نعلمها.

ولكن الرسالات التي سبقت الرسالة المحمدية الخاتمة: آعتورها التحريف والتبديل الذي صنعته أيد بشرية.

﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾

[سورة البقرة: ٧٩].

لذلك آقتضت مشيئة الله وحكمته أن تكون رسالة محمد بن عبد الله ﷺ هي خاتمة الرسالات وناسخة لما قبلها من الشرائع.

ولابد: أن نورد طرفاً من أقوال دعاة التقارب بين الأديان كما يسمون أنفسهم الذين يزعمون أنهم بصنيعهم هذا يخدمون الإسلام والبشرية كلها.

يقول الشيخ مصطفى المراغي في رسالة بعث بها إلى مؤتمر الأديان العالمي: (آقتلع الإسلام من قلوب المسلمين جذور الحقد الديني بالنسبة لأتباع الديانات السماوية الأخرى وأقر بوجود زمالة عالمية بين أفراد النوع البشري. ولم يمانع أن تتعايش الأديان جنباً إلى جنب) (١٨٧).

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: (إذا آختلفت الأديان فإن أهل كل دين لهم أن يدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة!! من غير تعصب يصم عن الحقائق ولا إكراه ولا إغراء بغير الحجة والبرهان) (١٨٨).

أما الدكتور وهبة الزحيلي فيقول: (ليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، إذ أن كل ذلك محاولة فاشلة، ومقاومة لسنّة الوجود، ومعاندة للإرادة الإلٰهية) (١٨٩).

---

(١٨٧) نقلاً عن «آثار الحرب في الفقه الإسلامي» للدكتور وهبة الزحيلي: (ص٦٣)، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٥هـ، وهذا الرجل دعا إلى أكثر من ذلك في تفسيره لبعض آيات القرآن. وتكلم بكلام لا يقره العامي الموحّد فضلاً عن طالب العلم والعلماء!!

(١٨٨) «العلاقات الدوليّة في الإسلام»: (ص٤٢)، الناشر: الدار القوميّة للطبعة سنة ١٣٨٤هـ.

(١٨٩) «آثار الحرب»: (ص٦٥).

ناسين ما يقرره القرآن من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، ولن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين!

يقول السذج: إننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعاً أهل دين! ناسين تعليم القرآن كله. وناسين تعليم التاريخ كله.

فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:

هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا

[سورة النساء: ٥١].

وهم الذين ألبوا المشركين على المسلمين في المدينة وكانوا لهم درعاً وردءاً.

وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام. وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا المسلمين في فلسطين وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية!

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان في الحبشة والصومال وارتيريا وغيرها حيث يتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند وفي كل مكان!

إن هؤلاء الذين يظنون - وهم واهمون - إنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين: لا يقرأون القرآن، وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن. ومن هنا يحاولون تمييع المفاصلة

وغير هؤلاء الثلاثة خلق كثير. والذي يظهر لي أن هؤلاء وأمثالهم اعتمدوا ما ذكره شيخهم الأول جمال الدين الأفغاني الذي كان متأثراً بأفكار الماسونية الخبيثة وهو أول من حمل راية الدعوة إلى زمالة الأديان فهو يقول في خاطراته بعنوان «نظرية الوحدة» ما نصه: (وجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في واحد منها شيء من أوامر الخير المطلق استكمله الثاني!

... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها وأنه بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً وأخط أسطراً وأحبر رسائل للدعوة كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ولا تعمقت في أسباب اختلاف أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف...)[١٩٠].

وهذه الأقوال فيها من المغالطات ما هو ظاهر لكل ذي عينين، فمن قال: إن الدين الإسلامي يسمح للنصراني: أن يدعو إلى نصرانيته، ولليهودي أن يدعو إلى يهوديته والبوذي أن يدعو إلى بوذيته، وغير ذلك من أديان البشر الوضعية أو الأديان المحرفة؟

هل هؤلاء الدعاة يجهلون ما ذكره القرآن عن بني إسرائيل وقتلهم الأنبياء ثم تحريف التوراة والإنجيل، ثم اللعب بالكتب المنزّلة حسبما تمليه عليهم أهواؤهم؟

هل هؤلاء يجهلون قوله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾

[سورة المائدة: ٧٣].

---

(١٩٠) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» اختبار عبد العزيز سيد الأهل: (ص١٤)، وانظر (ص١٥٨)، الناشر: دار حراء بالقاهرة.

وقوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[سورة التوبة: ٣٠].

وقوله تعالى:

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾

[سورة النساء: ٨٩].

وقوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾

[سورة البقرة: ١٠٩].

وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي تبيّن عداوة أهل الكتاب للمسلمين. ورحم الله الأستاذ الجليل، العالم الربّاني سيد قطب حين قال: إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، الذي يهدف إلى إنشاء واقع في الأرض وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية.

إن هؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة لأنه ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة أهل الكتاب فيها، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فهم يخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة،

الحاسمة بين المسلمين وأهل الكتاب، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية. فكما أنهم مخطئون في فهم الأديان هم أيضاً مخطئون في فهم معنى التسامح.

إن الدين الذي نزل على رسول الله ﷺ هو الدين عند الله. والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي. أما هؤلاء، فيحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم الذي يقرر أن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام، وأن على المسلم أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلاً، ولا يقبل فيه تعديلاً – ولو طفيفاً – قال تعالى:

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ

[سورة آل عمران: ١٩].

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ

[سورة آل عمران: ٨٥].

والإسلام قد جاء ليصحح آعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح آعتقادات المشركين والوثنيين سواء، ودعاهم إلى الإسلام جميعاً لأن هذا هو ''الدين'' الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعاً.. والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء، وهو غير مأذون في أن يكره أحداً من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام، لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه، فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه، هو كذلك لا ثمرة له(١٩١).

---

(١٩١) انظر «في ظلال القرآن»: (ج٢/٩٠٩ ــ ٩١٥) بتصرف.

الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى

قلنا قبل قليل أن الولاء شيء والمعاملة شيء آخر والأصل في هذا قوله تعالى:

لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ

[سورة الممتحنة: ٨].

وقد آختلف أهل العلم في تفسيرها فقال بعضهم إن المعني بها: الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا فأذن الله للمؤمنين ببرهم والإحسان إليهم وإلى هذا ذهب مجاهد.

وقال آخرون: عني بها من غير أهل مكّة من لم يهاجر.

وقال آخرون: بل عني بها من مشركي مكّة من لم يقاتل المؤمنين ولم يخرجوهم من ديارهم ونسخ الله ذلك بعدُ بالأمر بقتالهم. ويروى هذا عن قتادة(١٩٢).

ورجح آبن جرير: أن أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم. لأن الله عزَّ وجلَّ عم بقوله: ﴿الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ. لأن برَّ المؤمن أحداً من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينهما ولا نسب غير محرم، ولا منهي عنه إذا لم

---

(١٩٢) «تفسير الطبري»: (ج٢٨/٦٦).

يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح.

ويبيّن ذلك الخبر المروي عن ابن الزبير في قصة أسماء مع أمّها[١٩٣]. والإسلام بفعله هذا - حتى في حالة الخصومة - يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك، وعدالة المعاملة انتظاراً لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع[١٩٤].

وقد سبق الحديث في أول هذا البحث: أن الله أمر بصلة الأقارب الكفار والمشركين وأن ذلك ليس موالاة لهم في شيء.

ونزيد هذا الأمر إيضاحاً بقصة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها مع أمّها.

فقد روى البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها قالت: قدمت عليّ أمّي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمّي قدمت علي وهي راغبة أفأصل أمّي؟ قال: [نعم صلي أمّك][١٩٥].

قال الخطابي: فيه - أي الحديث - أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلماً[١٩٦].

قال ابن حجر: البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى:

---

(١٩٣) «تفسير الطبري»: (ج٢٨/٦٦).

(١٩٤) انظر «الظلال»: (ج٦/٣٥٤٤).

(١٩٥) «صحيح البخاري»: (ج٥/٢٣٣، ح٢٦٢٠) كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، و«صحيح مسلم»: (ج٢/٦٩٦، ح١٠٠٣) كتاب الزكاة.

(١٩٦) «فتح الباري»: (ج٥/٢٣٤).

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

[سورة المجادلة: ٢٢].

فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل(١٩٧).

وقال ابن القيم: الذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق، وإن اختلف الدينان لقوله تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

[سورة لقمان: ١٤ — ١٥].

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة وهو في غاية الغنى. وقد ذم الله قاطعي الرحم وعظم قطيعتها وأوجب حقها وإن كانت كافرة لقوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾

[سورة النساء: ١].

وفي الحديث «لا يدخل الجنّة قاطع رحم»(١٩٨).

وصلة الرحم واجبة، وإن كانت لكافر، فله دينه وللواصل دينه وقياس

---

(١٩٧) «فتح الباري»: (ج٥/٢٣٣).

(١٩٨) «صحيح البخاري»: (ج١٠/٤١٥، ح٥٩٨٤) كتاب الأدب، باب إثم القاطع، و«صحيح مسلم»: (ج٤/١٩٨١، ح٢٥٥٦) في كتاب البر والصلة، ويلاحظ هنا: أن النكرة وقعت في سياق النفي فتعم.

النفقة على الميراث قياس فاسد. فإن الميراث مبناه على النصرة والموالاة بخلاف النفقة فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة.

وقد جعل الله للقرابة حقًّا - وإن كانت كافرة - فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا. قال تعالى:

وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا

[سورة النساء: ٣٦].

وكل من ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافراً، فما بال ذي القربى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه[١٩٩]؟

من هنا: يتضح لنا: أن الموالاة المثلة في الحب والنصرة شيء. والنفقة والصلة والإحسان للأقارب الكفار شيء آخر. وسماحة الإسلام أيضاً تتضح في معاملة الأسرى والشيوخ والأطفال والنساء في الحرب. كما هو معلوم من صفحاته المشرقة.

---

(١٩٩) «أحكام أهل الذمة»: (ج٢/٤١٧ - ٤١٨).

* المبحث الثاني: التعامل مع الكفار :

(١) البيع والشراء :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الأصل أنه لا يحرم على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما دل الكتاب والسنّة على تحريمه، كما لا يشرع لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلا ما دل الكتاب والسنّة على شرعه. إذ الدين ما شرعه الله، والحرام ما حرمه الله، بخلاف الذين ذمهم الله حيث حرموا من دون الله ما لم يحرمه الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله[٢٠٠].

وانطلاقاً من هذه القاعدة وبناء على النصوص الشرعية وسيرة رسول الله ﷺ وأصحابه الراشدين وأئمة المسلمين نقول: إن التعامل مع الكفار في البيع والشراء والهدية وخلاف ذلك لا يدخل في مسمى الموالاة، بل يباح للمسلم البيع والشراء مع الكفار فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يُسأل عن معاملة التتار فيقول:

(يجوز فيها ما يجوز في معاملة أمثالهم، ويحرم فيها ما يحرم في معاملة أمثالهم، فيجوز أن يبتاع الرجل من مواشيهم وخيلهم ونحو ذلك كما يبتاع من مواشي الأعراب والتركمان والأكراد ويجوز أن يبيعهم من الطعام والثياب ونحو ذلك ما يبيعه لأمثالهم.

فأما إن باعهم أو باع غيرهم ما يعينهم به على المحرمات، كبيع الخيل والسلاح لمن يقاتل به قتالاً محرماً فهذا لا يجوز قال تعالى:

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
[سورة المائدة: ٢].

---

(٢٠٠) «السياسة الشرعية»: (ص١٥٥).

وإذا كان الذي معهم أو مع غيرهم، أموال يعرف أنهم غصبوها من معصوم فذلك لا يجوز ٱشتراؤها لمن يمتلكها لكن إذا ٱشتريت على طريق الاستنقاذ لتصرف في مصارفها الشرعية فتعاد إلى أصحابها - إن أمكن - وإلا صرفت في مصالح المسلمين: جاز هذا. وإذا علم أن في أموالهم شيئاً محرماً لا تعرف عينه، فهذا لا تحرم معاملتهم فيه كما إذا علم أن في الأسواق ما هو مغصوب ومسروق ولم يعلم عينه) [٢٠١].

وقد روى البخاري في كتاب البيوع باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي ٱلله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثم جاء رجل مشرك مشعان[٢٠٢] طويل بغنم يسوقها فقال النبيُّ ﷺ: «بيعاً أم عطية» أو قال: أم هبة؟ فقال: لا. بيع فاشترى منه شاة[٢٠٣].

قال ٱبن بطال: معاملة الكفار جائزة إلا بيع ما يستعين به أهل الحرب على المسلمين[٢٠٤].

وثبت أيضاً عن النبي ﷺ أنه أخذ من يهودي ثلاثين وسقاً من شعير ورهنه درعه[٢٠٥]. قال شيخ الإسلام ٱبن تيمية:

(وإذا سافر الرجل إلى دار الحرب ليشتري منها جاز عندنا، كما دل عليه حديث تجارة أبي بكر رضي ٱلله عنه في حياة رسول ٱلله ﷺ إلى أرض الشام وهي حينذاك دار حرب وغير ذلك من الأحاديث.

---

(٢٠١) «المسائل الماردينية»: (ص١٣٢ ــ ١٣٣) تحقيق الشاويش، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ.

(٢٠٢) أي طويل مشعث الشعر.

(٢٠٣) «صحيح البخاري»: (ج٤/٤١٠، ح٢٢١٦).

(٢٠٤) «فتح الباري»: (ج٤/٤١٠).

(٢٠٥) «مسند أحمد»: (ج٥/١٣٧، ح٣٤٠٩) تحقيق أحمد شاكر وقال: إسناده صحيح.

فأما بيع المسلم لهم في أعيادهم ما يستعينون به على عيدهم من الطعام واللباس والريحان ونحو ذلك، أو إهداء ذلك لهم: فهذا فيه نوع إعانة على إقامة عيدهم المحرم، وهو مبني على أصل وهو: أنه لا يجوز أن يبيع الكفار عنباً أو عصيراً يتخذونه خمراً.

وكذلك لا يجوز بيعهم سلاحاً يقاتلون به مسلماً(٢٠٦).

(٢) الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين :

قال ابن القيم: أما ما وقفوه. فينظر فيه، فإن وقفوه على معين أو جهة يجوز للمسلم الوقف عليها كالصدقة على المساكين والفقراء وإصلاح الطرق والمصالح العامة، أو على أولادهم وأنسالهم وأعقابهم: فهذا الوقف صحيح. حكمه حكم وقف المسلمين على هذه الجهات لكن إذا شرط في استحقاق الأولاد والأقارب بقاءهم على الكفر ''فإن أسلموا لم يستحقوا شيئاً'': لم يصح هذا الشرط، ولم يجز للحاكم أن يحكم بموجبه باتفاق الأمة لأنه مناقض لدين الإسلام، مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ.

أما وقف المسلم عليه: فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم، أو على أقاربه، وبني فلان ونحوه.

ولا يكون الكفر موجباً ولا شرطاً في الاستحقاق ولا مانعاً منه — فلو وقف على ولده أو أبيه أو قرابته استحقوا ذلك وإن بقوا على كفرهم، فإن أسلموا فأولى بالاستحقاق.

وأما الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر: فلا يصح من كافر ولا مسلم. فإن في ذلك أعظم الإعانة لهم على الكفر والمساعدة والتقوية عليه، وذلك مناف لدين الله(٢٠٧).

---

(٢٠٦) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٢٢٩).

(٢٠٧) «أحكام أهل الذمة»: (ج١/٢٩٩ — ٣٠٢)، وانظر «مجموعة الرسائل =

(٣) عيادتهم وتهنئتهم :

روى البخاري في كتاب الجنائز عن أنس رضي ٱلله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النَّبيَّ ﷺ فمرض فأتاه النَّبيُّ ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النَّبيُّ ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[٢٠٨].

وروى أيضاً: قصة أبي طالب حين حضرته الوفاة فزاره النَّبيُّ ﷺ وعرض عليه الإسلام[٢٠٩]..

قال ٱبن بطال: إنما تشرع عيادته إذا رجي أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك فلا[٢١٠].

قال ٱبن حجر: والذي يظهر: أن ذلك يختلف بٱختلاف المقاصد، فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى[٢١١].

أما تهنئتهم بشعائر الكفر المختصة بهم فحرام بالاتفاق، وذلك مثل أن يهنأهم بأعيادهم فيقول: عيدك مبارك، أو تهنأ بهذا العيد، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثماً عند ٱلله، وأشد مقتاً من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس وٱرتكاب الفرج الحرام ونحوه.

وكثير مما لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل. فمن هنأ عبداً بمعصية، أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت ٱلله وسخطه،

= والمسائل»: (٢٢٩/١).

(٢٠٨) «صحيح البخاري»: (ج٢١٩/٣، ح١٣٥٦).

(٢٠٩) «صحيح البخاري»: (ج٢٢٢/٣، ح١٣٦٠) كتاب الجنائز.

(٢١٠) «فتح الباري»: (ج١١٩/١٠).

(٢١١) «فتح الباري»: (ج١١٩/١٠).

وقد كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهنئة الظلمة بالولايات، وتهنئة الجهال بمنصب القضاء والتدريس والإفتاء تجنباً لمقت آلله وسقوطهم من عينه، وإن بلي الرجل فتعاطاه دفعاً لشرٍّ يتوقعه منهم فمشى إليهم ولم يقل إلا خيراً ودعا لهم بالتوفيق والتسديد فلا بأس بذلك(٢١٢).

ويدخل في هذا أيضاً: تعظيمهم ومخاطبتهم بالسيد والمولى وذلك حرام قطعاً، ففي الحديث المرفوع «لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عزَّ وجلَّ»(٢١٣).

ولا يجوز أيضاً تلقيبهم – كما يقول آبن القيم – بمعز الدولة أو فلان السديد، أو الرشيد أو الصالح ونحو ذلك. ومن تسمى بشيء من هذه الأسماء لم يجز للمسلم أن يدعوه به، بل إن كان نصرانياً قال: يا نصراني، يا صليبي، ويقال لليهودي، يا يهودي.

ثم قال آبن القيم بالنص:

(.. وأما اليوم فقد وفقنا إلى زمان يصدرون في المجالس، ويقام لهم وتقبل أيديهم ويتحكمون في أرزاق الجند، والأموال السلطانية، ويكنون بأبي العلاء وأبي الفضل، وأبي الطيب، ويسمون حسناً وحسيناً وعثمان وعليًّا! وقد كانت أسماؤهم من قبل: يوحنا ومتي وجرجس وبطرس وعزرا وأشعيا، وحزقيل وحيي، ولكل زمان دولة ورجال) (٢١٤) ا.هـ.

وإذا كان هذا كلام العلاّمة آبن القيم وهو المتوفى سنة ٧٥١هـ رحمه آلله. فلينظر المسلم اليوم إلى هذا الغثاء الذي هو كغثاء السيل، ينتسبون

---

(٢١٢) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم: (ج١/٢٠٥ — ٢٠٦).
(٢١٣) «سنن أبي داود»: (ج٥/٢٥٧، ح٤٩٧٧) كتاب الأدب. قال الألباني: إسناده صحيح. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج٣/١٣٤٩، ح٤٧٨٠).
(٢١٤) «أحكام أهل الذمة»: (ج٢/٧٧١).

للإسلام وهم يتبعون أعداء ٱلله في كل صغيرة وكبيرة حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلوه، وليست تبعية لهم فحسب بل إنها تبعية بإعجاب وٱنبهار! فما تمر بأعدائنا مناسبة إلا وتنهال التهاني عليهم من كل حدب وصوب بالتهنئة والتبريك ومعسول الأماني!!

(٤) حكم السلام عليكم :

ٱختلف العلماء في معنى قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام حين دعا أباه فأبى قال إبراهيم:

سَلَٰمٌ عَلَيْكَ

[سورة مريم: ٤٧].

فأما الجمهور فقالوا: المراد بسلام: المسالمة التي هي المشاركة لا التحية. وقال الطبري: معناه: أمنة مني لك. وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام[٢١٥]. وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق. وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال نعم. قال ٱلله تعالى:

لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ

[سورة الممتحنة: ٨].

وقال:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ

[سورة الممتحنة: ٤].

---

(٢١٥) «تفسير القرطبي»: (ج١١/١١١ ــ ١١٢).

(٢١٦) «تفسير القرطبي»: (ج١١/١١١ ــ ١١٢).

وقال إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾.

قال القرطبي: قلت: والأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة[٢١٦].

وفي هذا الشأن حديثان: فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه»[٢١٧].

وفي «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أن النبيّ ﷺ ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبيُّ ﷺ[٢١٨] الحديث.

قال القرطبي:

(فالأول: يفيد ترك السلام عليهم ابتداء، لأن ذلك إكرام والكافر ليس أهله. والثاني: يجوز ذلك. قال الطبري: ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس أحدهما خلاف للآخر، وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة يبيّن أن معناه الخصوص. قال النخعي: إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأ بالسلام.

فبان بهذا أن حديث أبي هريرة «لا تبدؤهم بالسلام» إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤهم بالسلام من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قِبلهم، أو حق صحبة أو جوار أو سفر.

---

(٢١٧) سبق تخريجه: (ص٢٤٧).

(٢١٨) «صحيح البخاري»: (ج١١/٣٨، ٦٢٥٤) كتاب الاستئذان، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٤٢٢، ح١٧٩٨) في الجهاد.

قال الطبري: قد روى عن السّلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب وفعله آبن مسعود بدهقان صحبه في طريقه قال له علقمة: يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أنه يبدؤا بالسلام؟ قال: نعم. ولكن حق الصحبة.

وقال الأوزاعي: إن سلّمت فقد سلّم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك. وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم) (٢١٩).

قال آبن القيم: إن صاحب هذا الوجه - أي من أجاز آبتداءهم بالسلام - قال يقال له - السلام. فقط بدون ذكر الرحمة، وبلفظ الإفراد(٢٢٠).

(أما رد السلام عليهم فآختلف في وجوبه: فالجمهور على وجوبه وهو الصواب. وقالت طائفة: لا يجب الرد عليهم كما لا يجب على أهل البدع وأولى والصواب الأول: والفرق: أنا مأمورون بهجر أهل البدع تعزيراً لهم وتحذيراً منهم بخلاف أهل الذمة) (٢٢١).

قلت: ومما يرجح رأي الجمهور في وجوب الرد على أهل الكتاب قوله ﷺ: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السلام عليكم. فقل وعليك»(٢٢٢). وقوله ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»(٢٢٣).

---

(٢١٩) «تفسير القرطبي»: (ج١١/١١٢)

(٢٢٠) «زاد المعاد»: (ج٢/٤٢٥).

(٢٢١) «زاد المعاد»: (٢/٤٢٥).

(٢٢٢) «صحيح البخاري»: (ج١١/٤٢، ح٦٢٥٧) كتاب الاستئذان، و«صحيح مسلم»: (ج٤/١٧٠٦، ح٢١٦٤) في السلام.

(٢٢٣) «صحيح البخاري»: (ج١١/٤٢، ح٦٢٥٨) كتاب الاستئذان، و«صحيح مسلم»: (ج٤/١٧٠٥، ح٢١٦٣).

* المبحث الثالث: الانتفاع بالكفار وبما عندهم :

إن الإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم من غير المسلم ما ينفعه في علم الكيمياء والفيزياء والفلك والطب والصناعة والزراعة والأعمال الإدارية وأمثال ذلك. وهذا حين تنعدم الاستفادة من هذه العلوم من مسلم تقي(٢٢٤).

كذلك يبرز الانتفاع بهم في دلالة الطريق وما عندهم من سلاح وملابس وغير ذلك من الحاجات التي يحتاجها الناس، وجرت العادة فيها أن المسلم والكافر يستويان في الانتفاع بها.

ولكن الإسلام لا يبيح بل يرفض أن يتلقى المسلم أي شيء يتعلق بعقيدته أو مقومات تصوره، أو تفسير قرآنه وسنّة نبيه ﷺ أو منهج تاريخه أو نظام ومنهج سياسته أو موجبات أدبه وتعبيره ممن لا يؤمن بهذا الإسلام(٢٢٥).

وقد سبق في أول هذا البحث أن قلنا: إن المسلمين وقعوا في غلطة كبرى حين آستوردوا فلسفة اليونان وتصوف الهنود والفرس لأنها غثاء إذا مزج بالتصور الإسلامي النقي نتج من ذلك خليط من غبش العقيدة وآنحراف التصورات.

وأحسنوا حين ترجموا كتب الطب والكيمياء ودفعهم ذلك إلى آكتشاف علوم جديدة منها علم الجبر. فقد كانت العقلية الإسلامية المتنورة بنور آلله قادرة على الابتكار والإبداع في المجال العلمي بكل ميادينه وفي المجال الأدبي والثقافي.

---

(٢٢٤) انظر «معالم في الطريق»: (ص١٣١ ــ ١٣٢)، وانظر «مجموع فتاوى» شيخ الإسلام ابن تيمية: (ج٤/١١٤).

(٢٢٥) انظر المصدر السابق «معالم في الطريق»: (ص١٣١).

ذلك أن لديهم من مقومات هذه العقيدة ومقتضياتها ما يدفعهم للعمل بجد وصبر. وهم يعلمون أن ذلك جزء من عبادة ٱلله. لأن نفع ما توصلوا إليه لم ينفعهم هم فحسب بل تعدى ذلك إلى كافة الناس حتى إن أوروبا ظلت قروناً طوالاً تعتمد على النظريات الإسلامية والأبحاث التي آبتكرها المسلمون. وانعكس هذا على التقدم العلمي الذي توصل إليه الغرب في القرون الأخيرة، بعد أن نام المسلمون، وتركوا مركز القيادة والريادة في كل شيء حتى جاءت الأجيال التي نشهدها اليوم فإذا بها عالة على تلاميذ أجدادها بالأمس!

من أجل ذلك نقول: ونحن نستبشر بالخير حيث بدأ الزحف الإسلامي اليوم في كل أرض – إنه ينبغي للمسلمين أن يعرفوا ماذا يأخذون من غيرهم فيستفيدون به، وماذا يتركونه لئلا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم.

إن عليهم أن يجعلوا هذه العقيدة الإسلامية هي القاعدة التي يقوم عليها البناء الإسلامي من جديد ثم يستوردون من غير المسلمين ما ينقصهم في المجال ''العلمي البحت'' ويكون هذا الاستيراد بحذر وذكاء، حيث تصاغ هذه العلوم بصياغة علمية مؤمنة سليمة من صياغة الملاحدة ودعاة ''اللادين''.

وقد يقول قائل: وما دخل الأسلوب العلمي البحت في الأسلوب الديني؟

والجواب: إنه لا فصل بين دين وعلم، بل الدين الإسلامي هو دين العلم. وصياغة الأسلوب العلمي من منطلق إسلامي صحيح يغرس في النفوس إيماناً عميقاً بقدرة الخالق سبحانه وتعالى وعظيم صنعه وإبداعه في هذا الكون بكل ما فيه.

ثم إن هذا الاعتراض فيه مغالطة ظاهرة: فإنه مهما آدعى المتجردون للأسلوب العلمي أنهم ''حياديون'' فإنه يستحيل أن تكون صياغة من تلقى نظرية ماركس أو فرويد أو دوركايم لنظرية علمية ما، مثل صياغة من كان

بنفس الكفاءة العلميه ولكنه تلقى عقيدة ''لا إله إلا آلله'' من مشكاة محمد بن عبد آلله ﷺ.

وهذا أمر ظاهر لا يستطيع أن ينكره إلا مكابر أو جاهل يجهل أنه يغالط نفسه.

وأدلة الانتفاع بالكفار نجدها في سنّة رسول آلله ﷺ فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره في كتاب الإجارة باب آستئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام عن عائشة رضي آلله عنها وآستأجر النّبيُّ ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديّل ثم من بني عبد بن عدي هادياً خريتاً – الخريت: الماهر بالهداية – قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث فآرتحلا[٢٢٦] الحديث. قال آبن القيم: آسمه عبد آلله بن اريقط الدؤلي وفي آستئجاره وهو كافر: دليل على جواز الرجوع إلى الكافر في الطب والأدوية والحساب والعيوب ونحوها، ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة ولا يلزم من مجرد كونه كافراً أن لا يوثق به في شيء أصلاً، فإنه لا شيء أخطر من الدلالة في الطريق ولا سيما في مثل طريق الهجرة[٢٢٧].

قال آبن بطال: عامة الفقهاء، يجيزون آستئجارهم – أي المشركين – عند الضرورة وغيرها لما في ذلك من المذلة لهم، وإنما الممتنع أن يؤاجر المسلم نفسه من المشرك لما فيه من إذلال المسلم[٢٢٨]. ولكن ما هو الحكم لو آجر المسلم نفسه من كافر؟

والجواب على ذلك ما رواه البخاري أيضاً عن خباب رضي آلله عنه

---

(٢٢٦) «صحيح البخاري»: (ج٤/٤٤٢، ح٢٢٦٣).
(٢٢٧) «بدائع الفوائد»: (ج٣/٢٠٨).
(٢٢٨) «فتح الباري»: (٤/٤٤٢).

قال: كنت رجلاً قيناً فعملت للعاص بن وائل فاجتمع لي عنده، فأتيته أتقاضاه فقال: لا وآلله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما وآلله حتى تموت ثم تبعث فلا. قال: وإني لميت ثم مبعوث؟

قلت: نعم. قال: فإنه سيكون لي ثَمَ مال وولد، فأقضيك، فأنزل آلله تعالى:

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا

[سورة مريم: ٧٧].

قال المهلب: كره أهل العلم ذلك – أي مؤاجرة نفسه من مشرك في أرض الحرب – إلا لضرورة بشرطين أحدهما أن يكون عمله فيما يحل للمسلم فعله. والآخر: أن لا يعينه على ما يعود ضرره على المسلمين(٢٣٠).

أما آستئجار المشرك في الغزو: فقد رود النهي بذلك: ففي الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي آلله عنها قالت: خرج رسول آلله ﷺ قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة(٢٣١) أدركه رجل، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول آلله ﷺ حين رأوه. فلما أدركه قال لرسول آلله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك قال له رسول آلله ﷺ: «تؤمن بآلله ورسوله؟» قال: لا. قال: «فآرجع فلن أستعين بمشرك» قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة. فقال له النبيُّ ﷺ كما قال أول مرة قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة «تؤمن بآلله ورسوله؟» قال: نعم. فقال له رسول آلله ﷺ: «فآنطلق»(٢٣٢).

---

(٢٢٩) «صحيح البخاري»: (ج٤/٤٥٢، ح٢٢٧٥) كتاب الإجارة باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب.

(٢٣٠) «فتح الباري»: (ج٤/٤٥٢).

(٢٣١) موضع على بعد أربعة أميال من المدينة.

(٢٣٢) «صحيح مسلم»: (ج٣/١٤٤٩، ح١٨١٧).

ولكن الحازمي[٢٣٣] قال: اختلف أهل العلم في هذا الباب:

فذهبت جماعة إلى منع الاستعانة بالمشركين مطلقاً، وتمسكوا بظاهر هذا الحديث. وقالوا: هذا حديث ثابت عن النبي ﷺ وما يعارضه لا يوازيه في الصحة والثبوت فتعذر ادعاء النسخ لهذا.

وذهبت طائفة إلى أن للإمام أن يأذن للمشركين أن يغزوا معه ويستعين بهم ولكن بشرطين:

(١) أن يكون في المسلمين قلة وتدعو الحاجة إلى ذلك.

(٢) أن يكونوا ممن يوثق بهم فلا تخش ثائرتهم.

فمتى فقد هذان الشرطان لم يجز للإمام أن يستعين بهم، قالوا: ومع وجود الشرطين يجوز الاستعانة بهم. وتمسكوا في ذلك بما رواه ابن عباس أن رسول الله ﷺ استعان بيهود بني قينقاع، واستعان بصفوان بن أمية في قتال هوزان يوم حنين، قالوا: وتعين المصير إلى هذا لأن حديث عائشة رضي الله عنها كان يوم بدر وهو متقدم فيكون منسوخاً[٢٣٤]. ثم قال: ولا بأس أن يستعان بالمشركين على قتال المشركين إذا خرجوا طوعاً ولا يسهم لهم[٢٣٥].

ويدعم ابن القيم هذا الرأي وهو يتحدث عن فوائد صلح الحديبية فيقول: الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عينه ﷺ الخزاعي كان كافراً إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم[٢٣٦]

---

(٢٣٣) هو الإمام أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم المعروف بالحازمي من رحال الحديث أصله من همذان، ولد سنة ٥٤٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٥٨٤هـ. «الإعلام» للزركلي: (ج٧/١١٧) الطبعة الرابعة.

(٢٣٤) «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار» للحازمي: (ص٢١٩) تحقيق راتب حاكمي.

(٢٣٥) المصدر السابق: (ص٢٢٠).

(٢٣٦) «زاد المعاد»: (ج٣/٣٠١)، وقصة الخزاعي في «تاريخ الطبري»: (ج٢/٦٢٥).

وقال في فوائد غزوة حنين. للإمام أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أدرع صفوان بن أمية وهو يومئذ مشرك(٢٣٧).

وتبعه الإمام محمد بن عبد الوهاب فقال: الانتفاع بالكفار في بعض أمور الدين ليس مذموماً لقصة الخزاعي(٢٣٨).

ونخلص إلى القول:

إن الانتفاع بالكفار وبما عندهم من العلوم التي هي من اجتهاد الإنسان أمر جائز في الإسلام وأدلته كثيرة سبق ذكر بعضها، ومنها أيضاً: مزارعة رسول الله ﷺ لليهود في خيبر على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها(٢٣٩).

أما إجارة المسلم نفسه لهم فجائزة إذا لم يكن في ذلك تعظيم لدينهم أو شعائرهم أو ما فيه ذلة ومهانة له. وأما الاستعانة بهم في الغزو فجائز ولكن ذلك منوط بإمام المسلمين إذا رأى أن المصلحة تقتضي استخدامهم وإلا فلا.

ومع هذا فإنه يجب الاحتراز ومنع استعمال الكفار في شيء من ولايات المسلمين التي يكون فيها سلطة لهم على المسلمين كالدواوين فإن في ذلك جناية على الإسلام والمسلمين، ففضلاً عن أن ذلك مخالفة صريحة لحكم الشرع الإسلامي وهيمنته على الأرض فإنه أيضاً إذلال صريح للمسلمين حتى الذين توهموا أن ذلك أمر جائز. وإليك بعضاً من النصوص والحوادث التاريخية الهامة التي يبدو فيها كيد أعداء الله للإسلام والمسلمين حين تولوا هذه المناصب الهامة.

---

(٢٣٧) «زاد المعاد»: (ج٣/٤٧٩)، والقصة في «السيرة» لابن هشام: (ج٤/٨٣)، و«تاريخ الطبري»: (ج٣/٧٣).

(٢٣٨) «ملحق مصنفات» الإمام محمد بن عبد الوهاب: (ص٧).

(٢٣٩) الحديث في «صحيح البخاري»: (ج٥/١٥، ح٢٣٣١) كتاب المزارعة، باب المزارعة مع اليهود.

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي آلله عنه قال: «قلت لعمر رضي آلله عنه إن لي كاتباً نصرانيًّا. قال: مالك؟ قاتلك آلله؟ أما سمعت آلله يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

[سورة المائدة: ٥١].

ألا اتخذت حيفاً؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين لي كتابته، وله دينه، قال: لا أكرمهم إذا أهانهم آلله ولا أعزّهم إذا أذلهم آلله، ولا أدنيهم إذا أقصاهم آلله»(٢٤٠).

وكتب عمر رضي آلله عنه أيضاً إلى أبي هريرة كتاباً جاء فيه: «..ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك. وساعد على مصالح المسلمين بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن آلله تعالى جعلك حاملاً لأثقالهم»(٢٤١).

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه آلله إلى بعض عماله: «أما بعد: فإنه بلغني أن في عملك كاتباً نصرانيًّا يتصرف في مصالح الإسلام، وآلله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

[سورة المائدة: ٥٧].

فإذا أتاك كتابي هذا فادع حسّان بن زيد – يعني ذلك الكاتب – إلى الإسلام فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبى فلا تستعن به ولا تتخذ أحداً

---

(٢٤٠) هكذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٥٠) أن هذا الحديث رواه أحمد ولم أجده في «مسند أبي موسى»، وقد أورده البيهقي في «السنن الكبرى»: (١٠/١٢٧) كتاب آداب القاضي.

(٢٤١) «أحكام أهل الذمة»: (ج١/٢١٢ ٧).

على غير دين الإسلام في شيء من مصالح المسلمين فأسلم حسّان وحَسُنَ إسلامه»[٢٤٢].

ولما فشا آستخدام أهل الكتاب في مصالح المسلمين أيام الخلافة العباسية نهض أحد العلماء بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الشأن وهو شبيب بين شيبة[٢٤٣] فقد آستأذن على أبي جعفر المنصور فأذن له فقال: (.. يا أمير المؤمنين آتق آلله فإنها وصية آلله، إليكم جاءت وعنكم قبلت، وإليكم تؤدى، وما دعاني إلى قولي إلا محض النصيحة لك والإشفاق عليك، وعلى نعم آلله عندك. آخفض جناحك إذا علا كعبك وآبسط معروفك إذا أغنى آلله يديك. يا أمير المؤمنين إن دون بابك نيراناً تأجج من الظلم والجور لا يعمل فيها بكتاب آلله ولا سنّة نبيه محمد ﷺ.

يا أمير المؤمنين سلطتَ الذمة على المسلمين، ظلموهم وعسفوهم، وأخذوا ضياعهم وغصبوهم أموالهم، وجاروا عليهم، وآتخذوك سلماً لشهواتهم، وإنهم لن يغنوا عنك من آلله شيئاً يوم القيامة. فقال المنصور خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين وقال: يا ربيع: اكتب إلى الأعمال وآصرف من بها من الذمّة. ومن أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع باستخدامه، فقال شبيب: يا أمير المؤمنين: إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك، إن أطاعوهم أغضبوا آلله، وإن أغضبوهم أغروك بهم، ولكن تولي في اليوم الواحد عدة، فكلما وليت رجلاً عزلت الآخر)[٢٤٤].

---

(٢٤٢) «المصدر السابق»: (٢١٤/١).

(٢٤٣) شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمي المنقري الأهتمي. أديب الملوك وجليس الفقراء، وأخو المساكين كان يقال له (الخطيب) لفصاحته وكان شريفاً من الدهاة، يفرع إليه أهل بلده في حوائجهم. انظر ترجمته في «شذرات الذهب»: (ج٢٥٦/١)، و«تهذيب التهذيب»: (ج٣٠٧/٤)، و«الأعلام»: (ج١٥٦/٣).

(٢٤٤) «المصدر السابق»: (ج٢١٥/١). هذا وقد وردتني ملاحظات قيّمة من إخوة فضلاء بخصوص هذا الموضوع حيث مالوا فيها إلى ترجيح عدم الاستعانة =

وخلاصة القول: إنه ينبغي التفريق بين آستخدام الكافر كشخص بمفرده في أمر من الأمور وبين آستخدامه كصاحب سلطة ونفوذ في أمر من أمور الدولة الإسلامية.

فالأول جائز وبه وردت أدلة سبق ذكرها كما علمت.

والثاني لا يجوز لمنافاته مضمون وروح الشريعة الإسلامية وهدفها الأساسي وهو أن تكون كلمة آلله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والخير كل الخير في أن يعتمد المسلمون على أنفسهم من أجل أن تبقى الأمة الإسلامية أمة متميزة ذات طابع خاص، مصبوغة بصبغتها الربّانية التي أرادها آلله لها.

سائلين المولى سبحانه أن يأتي باليوم الذي يعود فيه المسلمون لدينهم الصحيح وقد آستغنوا في كل أمورهم وشؤونهم عن الكفار وسائر الأعداء، وما ذلك على آلله بعزيز.

التقية والإكراه

وهما أمران ورد حكمهما في الشريعة الإسلامية لبيان حالات معينة من حالات الضرورة التي قد تعرض للمسلم.

تعريف التقية:

عرفها حَبْرُ الأمة عبد آلله بن مسعود رضي آلله عنهما فيما رُوي عنه أنه قال: التقاة: التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان(٢٤٥).

= بالمشرك. وأنا قد ذكرت الرأيين في هذا ولعلي في طبعة قادمة إن شاء الله أتوسع في هذا الموضوع وأعيد صياغته، والله الموفق.

(٢٤٥) «تفسير الطبري»: (ج٣/٢٢٨، ٢٢٩).

وقال أبو العالية: التقية باللسان وليس بالعمل[٢٤٦].

وقال ابن حجر العسقلاني: التقية الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير[٢٤٧].

وقال الأستاذ سيد قطب: التقية: تقية اللسان لا ولاء القلب، ولا ولاء العمل وليس من التقية المرخص بها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر، كما أنه ليس من التقية أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية فما يجوز هذا الخداع على الله[٢٤٨].

متى تكون التقية؟

قال تعالى:

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ

[سورة آل عمران: ٢٨].

قال البغوي: نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالاً حراماً، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين. والتقية لا تكون إلا من خوف القتل وسلامة النيّة قال تعالى: ﴿إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾

---

(٢٤٦) «تفسير الطبري»: (٣/٢٢٨، ٢٢٩).

(٢٤٧) «فتح الباري»: (ج١٢/٣١٤).

(٢٤٨) انظر «الظلال»: (ج١/٣٨٦).

ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم(٢٤٩).

وقال ابن القيم: معلوم أن التقاة ليست بموالاة، ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية وليست التقية موالاة لهم(٢٥٠). (ولأن باب التقاة باب يمكن أن ينفذ منه الشيطان بسهولة يزين للضعفاء ومرضى القلوب أن يركنوا إلى أعداء الله قال بعدها مباشرة: ﴿ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ يحذركم في الدنيا أن تتخذوا هذا الباب تكأة، وتستسهلوا هذه الكبيرة - وهي موالاة أعداء الله - وينذركم أن إليه المصير فيجازيكم على ما فعلتم في الدنيا، فلا تحسبوا أن ترتكبوا هذه الكبيرة في الأرض - مخادعين أنفسهم أو مخادعين الناس - ثم تنجوا من عذاب الله في الآخرة) (٢٥١).

وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى

إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً

[سورة آل عمران: ٢٨].

أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل(٢٥٢).

---

(٢٤٩) «تفسير البغوي»: (ج١/٣٣٦)، وانظر «أحكام القرآن» للجصاص: (ج٢/٢٨٩).

(٢٥٠) «بدائع الفوائد»: (ج٣/٦٩).

(٢٥١) «دراسات قرآنية»: (ص٣٢٦ ــ ٣٢٧).

(٢٥٢) «تفسير الطبري»: (ج٣/٢٢٨).

الإكـــراه:

قال تعالى:

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ
وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا
فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ

[سورة النحل: ١٠٦ - ١٠٧].

قال آبن عباس رضي آلله عنهما: نزلت الآية - الأُولى - في عمار بن ياسر، وذلك أَن المشركين أَخذوه وأَباه وأُمّه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً. فأَما سمية فإنها رُبطت بين بعيرين ووجيء قبلها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أَو قتيلين قتلا في الإسلام وأَما عمار فإنه أَعطاهم ما أَرادوا بلسانه مكرهاً، فأُخبر النبيُّ ﷺ بأَن عماراً كَفَر، فقال: «كلا: إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه، وآختلط الإيمان بلحمه ودمه»[٢٥٣] فأَتى عمار رسول آلله ﷺ وهو يبكي فجعل رسول آلله ﷺ يمسح عينيه وقال: «إن عادوا لك فَعُد لهم بما قلت»[٢٥٤] فأَنزل آلله هذه الآية[٢٥٥].

---

(٢٥٣) هذا اللفظ ضعيف، وإنما اللفظ الصحيح هو ما رواه الحاكم في «مستدركه»: (ج٣/٣٩٢ ــ ٣٩٣)، وكذلك النسائيُّ: (ج٨/١١١) في كتاب الإيمان، هكذا: «ملىء عمار إيماناً إلى مشاشه» وهو حديث صحيح كما قال الأَلباني. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج٥/٢١١، ح٥٧٦٤)، و«سلسلة الأَحاديث الصحيحة»: (ج٢/٤٦٦، ح٨٠٧).

(٢٥٤) حديث مرسل ورجاله ثقات. انظر «فتح الباري»: (ج١٢/٣١٢).

(٢٥٥) «أَسباب النزول» للواحدي: (ص١٦٢)، وانظر «تفسير الطبري»: (ج١٤/١٨٢)، و«تفسير ابن كثير»: (ج٤/٥٢٥).

قال الطبري في معنى الآية: من كفر بآلله من بعد إيمانه إلا من أُكره على الكفر فنطق بكلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدراً فاختاره وآثره على الإيمان، وباح به طائعاً: فعليهم غضب من آلله ولهم عذاب عظيم[٢٥٦].

وسبب ذلك: أنهم آستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا[٢٥٧].

شـروط الإكـراه:

قال آبن حجر: شروط الإكراه أربعة:

(١) أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزاً عن الدفع ولو بالفرار.

(٢) أن يغلب على ظنه أنه إذا آمتنع أوقع به ذلك.

(٣) أن يكون ما هدد به فورياً، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غداً، لا يعد مكرهاً، ويستثنى ما إذا ذكر زمناً قريباً جدًّا، أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

(٤) أن لا يظهر من المأمور ما يدل على آختياره.

ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأبيد كقتل النفس بغير حق[٢٥٨].

قال الخازن: قال العلماء: يجب أن يكون الإكراه الذي يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل

---

(٢٥٦) «تفسير الطبري»: (ج١٤/١٨٢).

(٢٥٧) «تفسير ابن كثير»: (ج٤/٥٢٥).

(٢٥٨) «فتح الباري»: (ج١٢/٣١١ ــ ٣١٢).

والضرب الشديد، والإيلامات القوية مثل التحريق بالنار ونحوه[٢٥٩]. وأجمعوا أيضاً: على أن من أكره على الكفر لا يجوز له أن يتلفظ بكلمة الكفر تصريحاً، بل يأتي بالمعاريض وبما يوهم أنه كفر، فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الإيمان، غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر، ولو صبر حتى قتل كان أفضل لفعل ياسر وسمية وصبر بلال على العذاب[٢٦٠].

لقد كان بلال رضي آلله عنه تُفعل به الأفاعيل حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه أن يشرك بآلله فيأبى عليهم ويقول: أحدٌ. أحد. ويقول: وآلله لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها[٢٦١].

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري[٢٦٢] لما قال مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول آلله؟

قال نعم. فيقول: أتشهد أني رسول آلله؟ فيقول: لا أسمع فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك[٢٦٣].

وكما فعل الصحابي الجليل عبد آلله بن حذافة السهمي[٢٦٤]: فإنه لما أسرته الروم جاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصَّر وأنا أشركك في ملكي

---

(٢٥٩) «تفسير الخازن»: (ج٤/١١٧).

(٢٦٠) «تفسير الخازن»: (ج٤/١١٧).

(٢٦١) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج٤/٥٢٥).

(٢٦٢) حبيب بن زيد بن عاصم بن عمرو الأنصاري أخو عبد الله بن زيد، ذكره ابن إسحاق فيمن شهد العقبة من الأنصار وقال هو الذي أخذه مسيلمة فقتله. قال ابن سعد شهد حنيب أحداً والخندق والمشاهد «الإصابة»: (ج١/٣٠٧).

(٢٦٣) «تفسير ابن كثير»: (ج٤/٥٢٥).

(٢٦٤) هو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي وأمه آمنة بنت حرثان من بني حارث، وهو من السابقين الأولين، يقال إنه شهد بدراً، و لم يذكره موسى بن عقبة ولا ابن إسحاق ولا غيرهما من أصحاب المغازي. وقصته مع ملك الروم ذكرت سابقاً، انظر ترجمته في «الإصابة»: (ج٢/٢٩٦)، و«تهذيب التهذيب»: (ج٥/١٨٥).

وأُزوجك ابنتي، فقال له: لو أَعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت. فقال: إذاً أُقتلك قال: أنت وذاك، فأمر به فصُلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأُنزل، ثم أمر بقدر. وفي رواية ببقرة من نحاس فأُحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في ٱلله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة من جسدي نفس تعذب هذا العذاب في ٱلله!

وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم آستدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: أما أنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك في، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أُسارى المسلمين، قال: نعم فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أُسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد ٱلله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه(٢٦٥).

أنواع الإكراه:

(١) الإلجاء: حيث ينعدم الرضا والاختيار، وتنتفي الإرادة والقصد، وذلك بالوقوع تحت التعذيب الشديد أو نحو ذلك، وهذه الحالة هي التي نزلت فيها آية النحل:

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ

---

(٢٦٥) «تفسير ابن كثير»: (ج٤/٥٢٦).

(٢٦٦) كتاب «حد الإسلام وحقيقة الإيمان» للأستاذ عبد المجيد الشاذلي: (ص٥٢٣) مكتوب بالآلة الكاتبة.

وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ

[سورة النحل: ١٠٦].

(٢) التهديد: حيث ينعدم الرضا، ولا ينعدم الاختيار تماماً وهذه في مثل الحالة التي يختار فيها الإنسان أخف الضررين مثل حال شعيب عليه السلام مع قومه إذ خيروه بين العودة إلى الكفر أو الخروج من قريتهم:

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨) قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ

[سورة الأعراف: ٨٨ – ٨٩].

فلا تجوز الاستجابة لمثل هذا الإكراه لهذا النص ولقوله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ

[سورة العنكبوت: ١٠].

(٣) الاستضعاف: وهنا لا تعذيب ولا تهديد ولكن المستضعف داخل تحت وضع مفروض عليه من غيره كالمقيم في مكّة بعد هجرة المسلمين عنها، فإذا كان دخوله تحت هذا الوضع لعجزه عن دفعه وعن الخروج منه،

---

(٢٦٧) كتاب «حد الإسلام وحقيقة الإيمان» للأستاذ عبد المجيد الشاذلي: (ص٥٢٣) مكتوب بالآلة الكاتبة.

ولو أمكنه ذلك لفعل مهما كانت تضحياته وتكاليفه فهذا قد عفا آلله عنه[٢٦٨]. أما إذا كان قادراً على الدفع أو الخروج ولم يفعل ذلك إيثاراً للعاقبة فقد سبق كلام الشيخ آبن عتيق وغيره في ذلك.

قال آبن تيمية: تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف بآختلاف المكره عليه فليس الإكراه المعتبر في كلمة الكفر كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها، فإن أحمد قد نصَّ في غير موضع، أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب وقيد، ولا يكون الكلام إكراهاً[٢٦٩].

كلمة أخيرة حول الإكراه

إنه من المهم والواجب التفريق بين الإكراه وبين مشاعر الخوف التي تتزاوج مع مشاعر الرجاء والتعظيم فإن هذه مشاعر عبادة.

كما أنه يجب أن نفرق بين الاستضعاف وبين الهزيمة الداخلية، والاستكانة للعدو والركون إليه وفقدان الثقة في آلله وترك التوكل عليه.

ذلك أن الإنسان يملك في أحلك الظروف قوة عظيمة — هي قوة الرفض بقلبه — وهذه القوة سماها رسول آلله ﷺ جهاداً في قوله: «... ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[٢٧٠].

فالانهزام أمام الباطل والموالاة التي يحتاجها الباطل حتى وهو قوي لابد من الامتناع عنها وهذا هو جهاد القلب، وآلله سبحانه يقول للمؤمنين بعد وقعة أحد:

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ
رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ

---

(٢٦٨) «المصدر السابق»: (ص٥٢٦).
(٢٦٩) نقلاً عن «الدفاع» لابن عتيق: (ص٣٠).
(٢٧٠) «صحيح مسلم»: (ج١/٧٠، ح٥٠) كتاب الإيمان.

وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ

[سورة آل عمران: ١٤٦ - ١٥٠].

وقال الصحابي الجليل عبد آلله بن مسعود: «بحسب آمرىء يرى منكراً لا يستطيع أن يغيره أن يعلم آلله من قلبه أنه له كاره» ودلالة الكره: الاعتزال وعدم المشايعة بالعمل.

إن آستعلاء القلب على الهزيمة الداخلية، وبقاء قوة رفضه للباطل مهما استطال وانتفش وقوة ضبطه للسلوك لتأكيد الاعتزال وعدم المشايعة بالعمل لهو جهاد القلب وإنه لجهاد له أثره الواقع في حياة الناس[٢٧١].

---

(٢٧١) «حد الإسلام» للشاذلي: (ص٥٢٧ ــ ٥٢٨) بتصرف.

الباب الثالث

الصورة التطبيقية للولاء والبراء

في الماضي والحاضر

الفصل الأول

كيف طبق السّلف الولاء والبراء

تحدثت فيما سبق عن أمثلة من الأمم الماضية التي سبقت الأمة المحمدية ومر معنا بعض الأمثلة والنماذج في عهد النبوة. ولكن ذلك الجيل مليء بالصور المشرقة. لذلك رأيت أن أزيد هذا الأمر وضوحاً وتحليلاً بذكر نماذج أخرى لما لها من أهمية كبرى.

وكل قول لا يدعمه التطبيق العملي يعد زعماً باطلاً لا يمت للحقيقة بصلة ولا للواقع ببرهان.

لذلك فإن التطبيق الواقعي للولاء والبراء هو المقتضى الصحيح والوجه المشرق لمبدأ كلمة التوحيد ''لا إله إلا آلله محمد رسول آلله''.

وإن من المعلوم بالضرورة أن سلف الأمة رضوان آلله عليهم هم خير من طبق هذه العقيدة بكل مقتضياتها وتكاليفها.

والحديث عن السّلف ممتع وجميل، بل هو من الحوافز العملية التي سجلها تاريخ الأمة المسلمة ليكون ذلك مَعلماً من معالم الهداية والرشاد لمن جاء بعدهم، ليستن بسنتهم وينهج نهجهم.

وقد كانوا رضوان آلله عليهم يقدرون النعمة التي أنعم آلله بها عليهم وهي نعمة الإيمان.

ويقدرون أيضاً فضل نور آلله وشريعته الغرّاء التي بعث بها نبيه محمداً ﷺ

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾

[سورة الأنعام: ١٢٢]

وقدروا رحمهم ٱلله تربية المصطفى ﷺ وأهمية سنّته الشريفة قولاً وفعلاً، وأدركوا أنهم (لم يكونوا خدمة جنس، ورسل شعب أو وطن، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، ولم يخرجوا ليؤسسوا آمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويُخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم. إنما قاموا ليُخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة ٱلله وحده، كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد: ٱلله ٱبتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ٱلله وحده. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. فالأمم عندهم سواء والناس عندهم سواء. الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب.. لم يبخلوا بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً، بل كانوا سحابة خير آنتظمت البلاد وعمت العباد، وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها)[١].

ويصعب عليّ هنا أن أذكر معظم الوقائع والمواقف التي برز فيها تطبيق الولاء والبراء عند سلف الأمة رحمهم ٱلله. ولكنني أقتصر على القليل من ذلك لإعطاء فكرة صادقة وصورة حيّة، وأمثلة مشرقة لتلك النماذج الإيمانية التي أراد ٱلله أن يحقق بها مثالية هذا الدين، ليعلم الناس أن هذا الدين مثالي واقعي[٢] في آن واحد إذا وجد الأكفّاء الجديرون بحمله وتبليغه للناس بصدق

---

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: (ص١٢٦ ــ ١٢٧) بتصرف بسيط.

(٢) للوقوف على فكرة صحيحة فيما يتعلق بمثالية الإسلام وواقعيته حبذا مراجعة =

وأمانة، وطهر ونقاء، وإخلاص وتجرد، وابتغاء ما عند ٱلله.

ومن هذه الأمثلة: موقف صحابة رسول ٱلله ﷺ من كعب بن مالك رضي ٱلله عنه ومن معه من المخلفين الثلاثة، حيث قاطعوهم وهجروهم لتخلفهم عن غزوة تبوك.

وٱنظر إلى هذه المقاطعة لثلاثة من صحابة رسول ٱلله ﷺ يصلون خلف رسول ٱلله في مسجد أُسس على التقوى، لقد هجروهم ولم يكلموهم حتى في التحية الإسلامية!!

فمن يا ترى من المسلمين اليوم يتبرأ من الذين يحادُّون ٱلله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً؟!

أما الموقف العظيم الذي يبرز فيه ولاء المسلم لدينه وإخوانه المؤمنين، حتى وهذا المؤمن مهجور من إخوانه وأحبابه، مقاطع عنهم حتى في رد السلام. مبتلى بإغراء مادي عظيم، ومحسّن له المنصب ورفعة المكان في الدنيا: فهو موقف الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي ٱلله عنه، فإنه - كما جاء في حديثه الطويل - لما أمر الرسول ﷺ صحابته بهجره ومن معه، حتى زوجته ذهبت إلى أهلها فاجأه أمر عجيب وخطير في آن واحد.

يقول كعب رضي ٱلله عنه: (.. فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك ٱلله بدار

= كتاب «خصائص التصور الإسلامي» للأستاذ سيد قطب، فصل الواقعية. وكتاب «منهج التربية الإسلامية» للأستاذ محمد قطب، المجلد الأول، الفصل الأخير. وكتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» فصل نظرة الإسلام.

هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتممت بها التنور فسجرته بها)[3].

لقد صدق كعب رضي ٱلله عنه في قوله: (وهذا أيضاً من البلاء) أجل إنه بلاء عظيم، ولقد كان ولاء كعب رضي ٱلله عنه رغم ما هو فيه من شدة وهجر ومع دواعي الإغراء والإغواء لله ولدينه ورسوله والمؤمنين، وكان براؤه من ملك غسان واضحاً في حرقه لكتاب ذلك الملك.

فانظر إلى هذه العظمة وهذا الصدق في الولاء والحب للإسلام والمسلمين والبعد عن كل ما يصرف عن ذلك من متاع الدنيا ووجاهتها التي لا تساوي عند ٱلله جناح بعوضة.

قال ٱبن حجر وهو يشرح قصة كعب: دل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبته لله ولرسوله وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولاسيما مع أمنه من الملك الذي ٱستدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان حسم المادة، وأحرق الكتاب ومنع الجواب.. ورجح ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دُعي إليه من الراحة والنعيم حبًا في ٱلله ورسوله كما قال ﷺ: «وأن يكون ٱلله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[4].

ومثال آخر: قصة الصحابي الجليل عبد ٱلله بن حذافة السهمي وموقفه مع ملك الروم، حيث أغراه حتى بمشاطرته ملكه فرفض، وهدده بالقتل

(٣) القصة بطولها في «صحيح البخاري»: (ج٨/١١٣، ح٤٤١٨) كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، وانظر القصة أيضاً في «تفسير الطبري»: (ج١١/٦٠)، و«تفسير ابن كثير»: (ج٤/١٦٦ ــ ١٦٨).

(٤) «فتح الباري»: (ج٨/١٢١)، والحديث سبق تخريجه (ص٤٠)، وانظر تعليق ابن القيّم على القصة في «زاد المعاد»: (ج٣/٥٨١).

والحرق فأبى أن يتنصر. كل ذلك دلالة واضحة، وبرهان صادق لعمق ذلك الولاء ورسوخ هذه العقيدة في تلك النفوس العظيمة. ولئن كان موقف عبد آلله بن عبد آلله بن أُبي - الذي تحدثنا عنه سابقاً - عظيماً في منعه أباه من دخوله المدينة إلا بإذن رسول آلله ﷺ. فإن موقف أبي عبيدة رضي آلله عنه أعجب من ذلك وأعظم فلقد قتل أباه في معركة بدر لأنه كان كافراً محارباً لله ورسوله، ولم تكن صلة الأبوة تمنعه دون تنفيذ الولاء والنصرة لله ورسوله ودينه والمؤمنين. والبراءة والجهاد لعدو آلله الذي رضي بالبقاء في حزب الشيطان ليكون حرباً على المؤمنين.

ومثال آخر: فقد روت كتب السير أن زيد بن الدثنة[٥] رضي آلله عنه، اشتراه صفوانُ بن أُمية - بعد يوم الرجيع - ليقتله بأبيه أُمية بن خلف، وخرجوا بزيد إلى التنعيم حيث اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أُنشدك آلله يا زيد، أتحب محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟

قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي فقال: أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتلوا زيداً رضي الله عنه[٦].

فآنظر إلى هذا الحب وهذا التفاني وذلك الولاء، وقوة النصرة! إنه رضي آلله عنه وهو في مكانه البعيد من رسول آلله ﷺ - لا يرضى أن تمس رسول آلله ﷺ شوكة، فضلاً عن أن يصيبه أكبر من ذلك!!

هذا هو الولاء الصادق الذي بنته هذه العقيدة في النفوس فأخرجت للناس هذه النماذج العظيمة التي تقصر دون عظمتها كل عظمة أرضية.

---

(٥) زيد بن الدثنة: بفتح الدال وكسر المثلثة ابن معاوية بن عبيد بن عامر بن بياضة الأنصاري شهد بدراً وأحداً وكان في غزوة بئر معونة فأسره المشركون وقتلته قريش بـ «التنعيم». انظر «الإصابة»: (ج١/٥٦٥).

(٦) انظر القصة في «السيرة» لابن هشام: (ج٣/١٨١).

ومثال آخر: روى الإمام أحمد وغيره أن أنس بن النضر رضي ٱلله عنه غاب عن قتال بدر فقال: غيبت عن أول قتال قاتله رسول ٱلله ﷺ المشركين! لئن ٱلله أشهدني قتالاً للمشركين ليرينّ ٱلله ما أصنع. فلما كان يوم أحد ٱنكشف المسلمون فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعني أصحابه – وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء – يعني المشركين – ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ دون أحد فقال: أنا معك، قال سعد: فلم أستطع أن أصنع ما صنع، قال فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم فكانوا يقولون فيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى:

فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ

[سورة الأحزاب: ٢٣].

إن سلفنا الصالح رضوان ٱلله عليهم كانوا شديدي الاعتزاز بدينهم فلم تخدعهم المظاهر الجوفاء، ولا القوى والاعتبارات التي تتعبد الناس في الجاهلية، وأصدق مثال على ذلك قصة ربعي بن عامر رضي ٱلله عنه حين قابل رستم، فقد كان الفرس مدججين بالسلاح وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، ووضعوا البسط والنمارق في مجلس رستم وله سرير من الذهب، فأقبل ربعي يسير على فرس له زباء(٨) قصيرة، معه سيف غمده لفافة ثوب خلق، ورمح وجحفة(٩) وقوس فلما ٱنتهى إلى أدنى البسط قيل له انزل فحملها على البساط فلما ٱستوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه ثم قالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم فأذن له وقال: هل هو إلا رجل واحد! فأقبل ربعي يتوكأ على رمحه

---

(٧) «مسند أحمد»: (ج٣/٣٠١)، و«تفسير ابن كثير»: (ج٦/٣٩٤).

(٨) الزباء: أي طويلة الشعر كثيرته.

(٩) الجحفة: الترس.

وزجه نصل يقارب الخطو، ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منهتكاً مخرقاً، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه! فكلمه فقال: ما جاء بكم؟ قال: آلله ابتعثنا وآلله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة آلله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منّا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعود آلله، قال: وما موعود آلله؟ قال: الجنّة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم. كم أحب إليكم؟ أيوماً أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعته فقال: إن مما سنَّ لنا رسول آلله ﷺ وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر في أمرك وأمرهم، وآختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، آختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك. وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى، قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم[10].

ومما يوضح أيضاً صورة الولاء في نفوس أولئك الأخيار قوله ﷺ في غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم قالوا: وهم بالمدينة؟» قال: «وهم بالمدينة حبسهم العذر» متفق عليه[11].

---

(١٠) «تاريخ الطبري»: (ج٣/٥١٩ ــ ٥٢٠).

(١١) «صحيح البخاري»: (ج٨/١٢٦، ح٤٤٢٣) كتاب المغازي، و«صحيح مسلم»: (ج٣/١٥١٨، ح١٩١١) كتاب الإمارة.

فانظر إلى هذا الولاء والتناصر حتى ممن حبسهم العذر، لأن هذا أمر لا عذر لهم في تركه، فهم مع إخوانهم بالدعاء والمتابعة.

أما اليوم فيرى المغرورون والمبهورون والمنهزمون أن الكفّار - كما قال أحدهم - خصوم شرفاء، بل يرونهم أصدقاء أوفياء.

ولكن الذي يجب على المسلمين اليوم أن يفهموه: هو أن الاقتداء بسيرة رسول الله ﷺ وسلفنا الصالح في كل شيء، وفي قضية الولاء والبراء من باب أخص هو الأمر المطلوب منهم وليس عليهم بعد ذلك أن تقوم أصوات أرباب التبعية والولاء للغرب الكافر والشرق الملحد لتنادي بما قاله وردده من قبلهم إن هذا الفعل رجعية وتقهقر. بل إن عزم المسلمين المخلصين على تحقيق مقتضيات هذه العقيدة والإصرار على تحكيم الشريعة الربّانية هو سبيل النجاح وطريق الفلاح، في الدنيا والآخرة وجدير بهم أن يرتفعوا إلى المستوى المطلوب منهم

وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

[سورة آل عمران: ١٣٩].

الفصل الثاني

صورة الولاء والبراء في عصرنا الحاضر

بعد أن سبق بيان قضية الولاء والبراء في التصور الإسلامي، ووقفنا على مدى أهمية الموضوع، وبعد سوق تلك الأمثلة المشرقة من تاريخ الصدر الأول من هذه الأمة: لابد أن نقف عند وضع المسلمين في العصر الحاضر، لنرى أين يقف المسلمون اليوم من هذه القضية وما مدى ٱلتزامهم بها أو تخليهم عنها؟ وما الذي حل بهم؟ وهل هناك مبشرات لتغيير هذا الواقع المؤلم؟

وإنه لمن البدهي هنا أن نقول: إن العالم الإسلامي في العصور المتأخرة قد بلغ دركات الانحطاط والتخلف في كل شيء.

ٱنحطاط في عقيدته حيث ترك ما عليه السلف الصالح وذهب إلى خزعبلات وحواشي علم الكلام الدخيل والخوض في نقاشات بيزنطية لا تمت للواقع ولا تصلحه بأي حال بل تزيده فساداً وٱنهياراً.

وانحطاط في التزامه بمقتضيات هذه العقيدة من الجهاد والتميز والعزة حيث ٱستبدل بذلك كله التصوف والخرافات والتواكل، مما أطمع العدو فيهم على هذه الحال.

وتخلف في جميع المجالات العلمية وترك مكان القيادة إلى ذلة التبعية فبعد أن كان المسلمون هم الرواد في كل علم نافع جاء الخلف ليترك ذلك الميراث العظيم الذي أخذه أعداء هذا الدين وٱستفادوا به ودفعهم إلى ما وصلوا إليه الآن.

وأخيراً فقد أعطى هؤلاء الخلف للناس: صورة هزيلة رديئة عن الإسلام،

جعلت أعداء هذا الدين يتكالبون عليه من كل حدبٍ وصوبٍ طامعين في إطفاء نور آلله، ويأبى آلله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ولقد غزت آلعالم الإسلامي جيوش كثيرة وعديدة، وهي على كثرتها وضراوتها العسكرية لم تكتف بهذا بل نوعت أساليب الهجوم، فآستخدمت بعد الهجوم العسكري – الغزو الفكري الخبيث الذي فعل في ''المسلم'' ما لم تفعله الجيوش الجرارة!

وأول ما حرص عليه الأعداء هو بث سموم التشكيك وقلب المفاهيم حيث أخذ ينشر أمثال هذه الأفكار: ''ما للدين ونظام المجتمع؟ ما للدين والاقتصاد؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة؟ ما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة، ما للدين والملبس وخاصة ملابس المرأة؟ ما للدين والفن؟ ما للدين والصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون؟ وباختصار: ما للدين والحياة؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض؟''(١٢).

وكان هدف الاستعمار – كما يقول الشيخ محمد الغزالي –:

(تكوين جيل يستحي من الانتساب للإسلام، ويكره أن يرى وهو يقوم بشيء من شعائره، خصوصاً بين المثقفين الكبار! والطبقات التي تهيأ للحكم والنفوذ.

الواحد من هؤلاء يحب أن يراه الناس خارجاً من حانة، ولا يحب أن يروه خارجاً من مسجد ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشرة نسوة، لكن وجهه يسود لو قيل: متزوج من آثنتين أما أن يفكر في تلاوة آيات من القرآن أو يرجع إلى شيء من سنّة رسول آلله فذلك ما لا يخطر له ببال) (١٣).

وأفلح الاستعمار أيضاً في تكوين جيل يرفض العمل تحت لواء الإسلام،

---

(١٢) «هل نحن مسلمون؟»: (ص١١٠).

(١٣) «كفاح دين»: (ص١٤٧)، الطبعة الثالثة.

وهذا الجيل هو ''الطابور الخامس'' الذي ألحق بنا الهزائم في كل ميدان(١٤).

وحتى لا يكون الحديث مجرد عاطفة أو هجوم - كما يقال ذلك - أرى أن أثبت هنا نصوصاً صريحة واضحة نطق بها أعداؤنا الكفار ونفذوها تدل على مدى عمق عداوتهم للإسلام والمسلمين وإنهم لا يريدون إلا الشر والكيد بهذا الدين وطمس معالمه، وفي هذه النصوص أيضاً عظة وعبرة للمتغافلين والمنهزمين والمبهورين بهم من أبناء جلدتنا ومن الذين ينطقون بلغتنا ويتسمون بأسمائنا. ثم يحكم المنصف بعد قراءتها هل تحقق شيء منها أم لا؟

يقول القس زويمر في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م وهو يخاطب المبشرين بالنصرانيّة في العالم الإسلامي ما نصه: (.. إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية - ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية - فإن في هذا هداية لهم وتكريماً!! وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بآلله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً من أجله كل التهنئة) (١٥). وسترد بقية هذه الكلمة. ومع وضوح هذا النص الصليبي الحاقد وجد من ''المستسلمين'' - وهو محسوب من العلماء - من يقول إن قضية زمالة الأديان والتسامح بينها والتقارب والالتقاء بينها أمر محبب كما قد سبق ذكر ذلك في الباب الثاني. مما يدل على مدى الغفلة وعمق الجهل بحقيقة الإسلام وبحقيقة عداوة أعدائه له.

---

(١٤) انظر «حصاد الغرور»: (ص٣٩).

(١٥) «جذور البلاء» للأستاذ عبد الله التل: (ص٢٧٥)، الطبعة الثانية.

ويقول لويس التاسع: إن الغزو العسكري لا يكفي لهزيمة المسلمين ولكن لابد من غزو عقيدتهم.

ثم نجد عدوًّا آخر يقول – وهو يتابع عودة المسلمين إلى إسلامهم –:

(إلا إن ثمة قوة جديدة بدأت تظهر ألا وهي الدعوة إلى إسلام ''مُتزمِّت'' والسعي عن طريق الإسلام إلى نظام حياة لا يكون نسخة عن نظام آخر ولا تقليداً له، بل يكون خاصاً بهويته وتقاليده ومصالحه المعنوية والمادية) [١٦].

ويقول وليم جيفورد بالكراف: (متى توارى القرآن ومدينة مكّة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه) [١٧].

وبالرغم من مئات النصوص التي تشبه ما ذكرنا، والتي مؤداها جميعاً: طمس الإسلام وإخراج المسلمين من إسلامهم فقد وجد للأسف في بلاد المسلمين من كان عوناً لهؤلاء الأعداء على خططهم، أو من ميع قضايا الإسلام في سبيل ملاينة أعداء آلله.

يقول الأستاذ عبد القادر عودة رحمه آلله: إن بعض الأقطار التي تسمي نفسها إسلامية، تبيح للمبشرين من الانجليز والفرنسيين والإيطاليين والأمريكيين أن ينشئوا مدارس للتبشير بالدين المسيحي في بلادهم حتى تفتن أطفال المسلمين عن دينهم، بل إن بعض الأقطار منع تعليم الدين الإسلامي في المدارس الحكومية وأهمل دراسة التاريخ الإسلامي في الوقت الذي يركز فيه الاهتمام بتدريس تاريخ أوروبا وتمجيد حضارتها وأنها هي قبلة الرقي والمدنية[١٨].

---

(١٦) الجنرال بيار غالوا. عن مجلة «المجتمع الكويتية»، العدد ٤٥٠، (ص٤)، سنة ١٣٩٩هـ.

(١٧) «الغارة على العالم الإسلامي»: (ص٩٤)، الطبعة الثانية.

(١٨) انظر «الإسلام وأوضاعنا القانونية»: (ص٧٥)، الطبعة الثانية.

وإذا كان هذا على مستوى الحكومات، فإن الأفراد أشد إيغالاً في ذلك وهم صنفان:

(١) صنف من العلماء الذين لهم مكانة في التاريخ الحديث، وكتب عنهم مجلدات فيها من المدح وألقاب الإصلاح ما الله به عليم، ولكن التاريخ كشف عن هويّاتهم وموافقتهم.

ومنهم **عبد الرحمن الكواكبي**: هذا الرجل الذي يعتبر من أسبق الناس ظهوراً في الدعوة إلى التفريق بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. وقد أصدر كتاب ''أم القرى'' سنة ١٨٩٩م. وورد في هذا الكتاب آراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاة الدول الأوروبية المستعمرة حيث قال فيما قال: (وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب) [١٩].

أما **الشيخ محمد عبده**: فكما يقول عنه الأستاذ غازي التوبة: قد تجاوز تعاونه مع الانجليز المحتلين لمصر إلى التعاون مع الجواسيس المستشرقين في انكلترا نفسها، حيث تتضح ثقتهم المطلقة به، وتعاونه البعيد معهم في الرسالتين المبعوثتين إلى ''المستر بلنت'' جواباً على سؤال الأخير عن رأي المفتي في الحالة السياسية الجديدة في مصر، وعن رأيه في الدستور المناسب لمصر. وقد أورد محمد رشيد رضا نصّ الرسالتين في الجزء الأول من تاريخه ص٨٩٩ - ٩٠٢، وورد في الرسالة الثانية الفقرة الثالثة قوله: (إذا فُرض إن كان بعض الوزراء من الانكليز وكان لهم مرؤوسون من المصريين فإنه ينبغي أن يعطى هؤلاء المرؤوسون المصريون أو الوزراء الثانويون سلطة تسمح لهم بأن يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدّين وما أشبه ذلك تحت مراقبة الوزراء الأصليين

---

(١٩) انظر كتاب «أزمة العصر» للدكتور محمد محمد حسين: (ص١٨ — ٢٠) حول هذا الموضوع.

بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد أُلعوبة في أيديهم كما هو الحال الآن) [٢٠]. هذا هو رأْي الشيخ الذي نعت بمصلح العصر.

أما **عباس محمود العقاد** فيقول في كتابه «التفكير فريضة إسلامية»: ما الذي يمنع المسلم أن يعمل للديموقراطية، أوَ يعمل للاشتراكية، أو يعمل للوحدة العالمية؟

وما الذي يمنع المسلم من أحكام دينه أن يقبل مذهب التطور أو يقبل الوجودية في صورتها المثلى؟

إلى أن قال: إن عقيدة المسلم لا تمنعه من أن يكون آشتراكيًا[٢١]. وأنا أعلم مثل ما علم غيري أن هذا الكلام قد يقابل بالاستنكار والاستغراب لأنه خلاف المعهود ولكن أقول ما قاله الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين رحمه آلله في كتابه القيم «الإسلام والحضارة الغربية» حيث قال:

(نحن حين ندعوا إلى إعادة النظر في تقويم الرجال لا نريد أن نتقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ، وأن أعمالهم كلها حسنات لا تقبل القدح والنقد، حتى إن المخدوع بهم والمتعصب لهم والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إماماً من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه، في الوقت الذي لا يهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول آلله ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون فيقبلون أن يوصم سيف الإسلام خالد بن الوليد بأنه قتل مالك بن نويرة في حرب الرِّدَّة طمعاً في زوجته، ويرددون ما شاع حول ذلك من أكاذيب. ويقبلون

---

(٢٠) «الفكر الإسلامي المعاصر. دراسة وتقويم»: (ص٣٥ ــ ٣٧).

(٢١) «موسوعة العقاد»: (ج٤/٩٥٨)، وانظر «الفكر الإسلامي» لغازي التوبة: (ص١٧١).

أن يلطخ تاريخ ذي النورين عثمان بن عفّان بما ألصقه به ابن سبأ اليهودي من تهم.. يقبلون ذلك كله ثم يرفضون أن يمس أحد أصنامهم بما هو أيسر منه، ويحتمون بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبون على مخالفيهم في الرأي هذه الحرية. يخطئون كبار المجتهدين من أئمة المسلمين ويجرحونهم بالظنون والأوهام ويثورون لتخطئة ساداتهم أو تجريحهم بالحقائق الدامغة) [٢٢].

إننا لابد أن نقول للمخطىء أنت مخطىء وللمصيب نقول: أحسنت وبارك الله فيك. لذا فإن انزلاق هؤلاء العلماء. أو غيرهم في قضية موالاة الكفار أو التساهل معهم في بعض الأمور بغير دليل شرعي أمر يرفضه الإسلام ويأباه لأن موضع القدوة لنا هو رسول الله ﷺ وصحابته الأجلاّء وسلفنا الصالح وكفى. وليس من حق فرد - كائناً من كان - أن يجعل من آرائه وعلمه سلماً يرتقي عليه الموالون للكفّار، ثم يزعم بعد هذا أنه داعية إسلامي، أو مصلح عظيم!!

(٢) أما الصنف الثاني: فهم الذين صنعهم الاستعمار على عينه، وربّاهم تربيةً أوروبية خالصة في التفكير والسلوك من أجل أن يكونوا أداة للتقريب بين المسلمين وبين المستعمر الأوروبي.

ومن هذا الصنف طه حسين: الذي يقول في كتابه مستقبل الثقافة في مصر: لكن السبيل إلى ذلك - أي الرقي - ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بيّنة ومستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذّة ليس لها تعدد، وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة

---

(٢٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص٥٠).

خيرها وشرّها، حلوها ومرّها، وما يُحب منها وما يُكره وما يُحمد منها وما يُعاب[٢٣].

ومادام أننا عرفنا هدف أعدائنا بصورة عامة، ووقفنا على حقيقة بعض مواقف المخدوعين بهم: فإنه لحريٌّ بنا أن نعرف بعض تفاصيل خططهم ووسائلهم التي منها:

(١) التربيـة والتعليـم :

العلم كما يقال – صلاح ذو حدّين، ومن هذا المنطلق أدرك أعداء الله من جميع الكفّار أن صخرة العقيدة الإسلامية لا يمكن النيل منها عن طريق القوة والسلاح فهي قد أدمتهم كثيراً، ولا يستطيعون الصمود أمام هتاف المجاهدين الصادقين في سبيل الله، ولذلك لجأوا إلى وسيلة أخرى هي أخبث في التأثير وأشد في الدهاء. وهذه الوسيلة هي غزو مناهج التربية والتعليم في العالم الإسلامي بأفكار ونظريات وشبهات وشكوك يضفي عليها – كذباً وبهتاناً – ثوب التجرد العلمي، والبحث العلمي!! وسلك أعداء الإسلام في هذا سبيلين:

الأول: السيطرة على التعليم في الداخل.

والثاني: عن طريق الابتعاث إلى الدول الكافرة.

فأما الأمر الأول فيقول عنه القس زويمر – الذي أوردنا صدر كلمته سابقاً –: (.. لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة أو التي تخضع للنفوذ المسيحي أو التي يحكمها المسيحيون حكماً مباشراً، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي

---

(٢٣) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»: (ج٢/٢٢٩)، طبعة بيروت، و«الفكر الإسلامي» لغازي التوبة: (ص١٠٤).

والكنائس والجمعيات وفي المدارس الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية وفي مراكز كثيرة ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولاً وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج، وهي من أخطر ما عرف البشر في حياته الإنسانية كلها. إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد ''إخراج المسلم من الإسلام'' إنكم أعددتم نشئاً لا يعرف الصلة بآلله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي: جاء النشىء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء) [٢٤].

أجل صدق هذا القس وهو كافر أن هناك جيلاً تربى على ثقافة الغرب فخرج لا يعرف الصلة بآلله أبداً.

وآنطلاقاً من مبدأ هذا الصليبي الحاقد قام ''اللورد كرومر'' – المعتمد البريطاني في مصر أيام الاحتلال – بإنشاء كلية فكتوريا حيث قصد بها تربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط انجليزي ليكونوا من بعدهم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شؤون المسلمين[٢٥].

وجاء ''دنلوب'' المتخرج من كلية اللاهوت البريطانية ليرسم سياسة التعليم في مصر، حيث وضع مناهج كفيلة بإخراج النماذج التي عناها القس زويمر ''لا تعرف الصلة بآلله''.

ومصداق ذلك أن درس الدين لا يدرس منه إلا نتف يسيرة مثل: إن الإسلام جاء ليبطل عبادة الأوثان ويعبد آلله الواحد، ويحرم وأد البنات. وأستاذ

---

(٢٤) «جذور البلاء»: (ص٢٧٦).

(٢٥) «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين: (ص٤٦).

هذه المادة يختار من أسن الأساتذة وبمظهر رث، ثم تلغى مادة الدّين في نهاية العام الدراسي[٢٦].

أما مادة التاريخ فكان يخفى على الطالب فيها: أن الإسلام جاء ليحارب الشرك بكل مظاهره ويعطي نبذاً عن دراسة صدر الإسلام، وأن مهمة الإسلام تغيير ما كان عليه العرب في جاهليتهم ويركز فيه أيضاً على الجانب السياسي والصراع بين الطبقات الحاكمة. أما حياة المجتمع الإسلامي فلا شيء يذكر من ذلك.

وكذلك البطولات الإسلامية والحركة العلمية الإسلامية. كل ذلك يخفى عن الطلاب في الوقت الذي يدرس فيه بتوسع تاريخ أوروبا ونهضتها ورجالها وأبطالها وأنها بلد التقدم والرقي ومهبط المدنية لأن فيها فحماً وحديداً!![٢٧].

وخلاصة القول أنه كان يلقن الطلاب أن أوروبا هي العملاق الضخم الذي لا يقهر. والإسلام هو القزم الضئيل الذي عليه أن يتعبد هذا العملاق ليعيش[٢٨].

وأما السبيل الثاني: وهو الابتعاث إلى الخارج أي إلى الدول الكافرة فقد حقق هذا نتائج ترضي من خطط لها. ذلك أن هذا الابتعاث – في الغالبية العظمى منه – يكسر صفة التميز بين المسلم والكافر، ويجعل ولاء المسلم متذبذباً وهو يرى ما يُبهر به، ثم إنه يزيد الطالب جهالة بدينه وقيمه ومثله، ويزيده تعلقاً بالغرب أو الشرق ويبدأ بتطبيعه بطابع غير إسلامي، ثم يصير هذا التطبع

---

(٢٦) انظر «هل نحن مسلمون؟»: (ص١٣٦ ــ ١٣٨)، و«مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة» للأستاذ محمد قطب لطلاب السنة المنهجية بالدراسات العليا في كلية الشريعة.

(٢٧) انظر المصدرين السابقين.

(٢٨) «هل نحن مسلمون؟»: (ص١٤١).

– مع الزمن – طبعاً، ثم انسلاخاً من حيث يشعر الطالب أو لا يشعر فتجده في لبسه ومأكله ومشربه وكلامه وطريقة تعامله، غربيًّا، أو شرقيًّا بل ربما أكثر من ذلك[29].

وكان من أوائل المبتعثين وأولهم سبقاً في خدمة ما أريد له: **رفاعة الطهطاوي** حيث مكث في فرنسا خمس سنوات من ١٨٢٦ – ١٨٣١م ولما رجع بدأ ينشر كلاماً يسمع للمرة الأولى في البيئة الإسلامية مثل: الوطن والوطنية والاهتمام بالتاريخ القديم ليدعم به المفهوم الوطني الجديد، ثم يتحدث عن الحرية وأنها سبيل التقدم وكذلك طالَب بتقنين الشريعة على نمط المدونات النابليونية الأوروبية، ثم يتحدث بكلام كثير وطويل عن المرأة. كتعليمها ومنع تعدد الزوجات وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين[30].

وخلاصة ما يريده أعداء الإسلام في قضية التربية والتعليم هو ما قاله المستشرق ''جب'' في كتابه ''وجهة الإسلام'' حيث قال:

(.. والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب ''أو الفرنجة'' هو أن نتبيّن إلى أي حدٍّ يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادىء الغربية، وعلى التفكير الغربي.. هذا هو السبيل الوحيد، ولا سبيل غيره، وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين، وقليل من الزعماء الدينيين)[31].

إن العالم الإسلامي كله اليوم يسير في تعليمه وتربيته العلمية على النهج الغربي والشرقي بدليل أن كل الجامعات – مثلاً – تدرس نظرية فرويد في

---

(٢٩) انظر «أساليب الغزو الفكري» للدكتور علي جريشة وزميله: (ص٦٤ – ٦٥).

(٣٠) يراجع في هذا بتوسع كتاب «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين: (ص١٧ – ٣٠).

(٣١) عن «الاتجاهات الوطنية»: (ج٢/٢١٧)، الطبعة الثالثة.

البحوث النفسية، ونظرية دوركايم في علم الاجتماع، ونظرية ماركس الاشتراكية والشيوعية، ونظرية فريزر في علم مقارنة الأديان.

وينادى بإحياء الجاهليات التي سمّها آلله في كتابه وسنّة رسوله جاهلية: تدرس على أنها حضارة راقية ضاربة في أعماق التاريخ أكثر من سبعة آلاف سنة!!

وكذلك التغني بأمجاد أوروبا ومعرفة ''أبطال'' حضارتها، وفصل الدين عن الدولة، وأن الدين علاقة بين العبد وربه ولا دخل له في شؤون الحياة.. كل ذلك كان ثماراً طبعية للغزو الثقافي(٣٢).

وأخيراً: فإن هذه المناهج التعليمية قد جردت المسلم من ولائه لله ورسوله ودينه وإخوانه المؤمنين ومحت عداوته لأعداء آلله، فنشأ جيل لا يعرف الصلة بآلله، ولا يقيم ولاءه وانتماءه على أساس عقيدته بل على ما تعلمه وانتسب إليه من المذاهب والانتماءات الجاهلية.

صورة من صور
الولاء الفكري المعاصر

وتستوقفني هنا صورة واحدة أجد أن ذكرها هنا ذو أهمية بالغة ذلك أن هذه الصورة يظهر فيها بوضوح حب التبعيّة للغرب، مع الاعتزاز والفخار بالتعليم العلماني والمطالبة – وبإلحاح شديد – بعودته – إن كان قد فقد – وإلا ففتح الأبواب له على مصارعها إذا كان مضيقاً عليه.

كتب رئيس تحرير جريدة يومية مقالاً طويلاً بعنوان ''الإنسان العربي ومعضلة التعليم'' وجاء هذا المقال في صفحتين كاملتين من الجريدة هما الصفحة الثانية والثالثة.

---

(٣٢) حبذا الاطلاع بتوسع على رسالة «العلمانية وأثرها في العالم الإسلامي» للأستاذ سفر بن عبد الرحمن الحوالي.

وإليك مقتطفات من هذا المقال لترى فيه الصورة الصادقة للولاء والتبعيّة لأعداء ٱلله.

قال الكاتب:

(إن التعليم في البلاد العربية ارتبط بأسلوبين مختلفين: الأول: المنهج الذي وضعه دنلوب باشا البريطاني ناظر المعارف في مصر، والذي ٱنعكست آثاره على بقيّة الرقعة العربية من خلال الاتفاقيات الثقافية الثنائية أو الجماعية ويقوم هذا المنهج التعليمي على إبطال القدرة على التفكير ''وتفريخ'' العديد من الكتبة الذين يؤدون وظائف روتينية لا تحتاج إلى أكثر من معرفة متقنة لقواعد القراء والكتابة.. وبنظرة مجردة نجد أن غالبية المتعلمين في بلادنا ينتمون إلى هذه المدرسة) .

وصدق الكاتب في أكثر ما قاله هنا وإن كان ٱعتراضنا على منهج دنلوب لا يقتصر على هذه النقطة إنما يَنصَب ابتداء على نقطة أخطر منها بكثير هي تخريج أجيال من المسلمين لا تعرف حقيقة الإسلام بل تتجه إلى الانسلاخ من الإسلام والارتماء في تبعيّة ذليلة للغرب. ثم تابع معي ما يقول:

والأسلوب الثاني في التعليم داخل الوطن العربي. بريطاني أيضاً، ويهدف هذا الأسلوب – على خلاف الأول – إلى خلق مجموعات بشرية تمتلك القدرة على التفكير السليم بالأنماط الغربية!!

وتجسد هذا الأسلوب في مدرستي كلية فكتوريا في الأسكندرية والقاهرة.. وعلى خلاف ما قيل عن هذه المدارس التي اتُهمت بالتربية الاستعمارية أو الأدوار التبشيرية فإن الأدلة الدامغة تثبت أن معظم مفكري أبناء الأمة العربية الذين تلقوا تعليمهم الأولي والثانوي داخل منطقة الشرق الأوسط ينتمون إلى إحدى هاتين المدرستين ذلك لأن النظام التعليمي بهما يعتمد على أسلوب البحث العلمي! الذي ينمي في الطفل والشاب طوال

مدارج التعليم: القدرة على التفكير السليم وإيجاد العلاقات بين الظواهر المختلفة.

وتتضح جديّة هذا الدور التعليمي من واقع المناهج الدراسية المقررة التي كانت هي ذات المناهج المقررة على الطلبة البريطانيين بأسلوب اكسفورد وكامبردج في مراحل التعليم العام، المبدئي والإعدادي والثانوي.. فالباعث الحقيقي لوضع هذا الأسلوب التربوي والتعليمي من خلال فكتوريا الأسكندرية والقاهرة كان يهدف إلى إيجاد مجموعات من أبناء البلاد العربية، بمستوى ثقافي قادر على التفاهم، والتعامل مع الغرب في مواطن المعرفة العلمية، التي تربط بينهم بأسلوب المخاطبة المتعارف عليها!

وآستطاع بالفعل أبناء الأمة العربية المتخرجون من هاتين المدرستين حتى بعد تلقيهم التعليم الجامعي سواء في بريطانيا أو أمريكا أو حتى داخل الوطن العربي أن يقوموا بأدوار واضحة في خدمة مصالح بلادهم من المواقع المختلفة نتيجة توافر القدرة لديهم في مخاطبة الغرب بالأسلوب العلمي المقبول والمفهوم نتيجة آنسجام منطق التفكير عندهم مع المعطيات الحضارية المعاصرة!.

ثم تحدث الكاتب – وهو يؤدي دوره – عن الصراع بين مدرسة فكتوريا ومدرسة دنلوب وعن الرابطة التي جمعت بين خريجي كلية فكتوريا ثم قال إن هذه الرابطة أُلغيت ولكن مع هذا الإلغاء ''ظل الترابط والود'' قائماً بين هؤلاء الخريجين، حتى قامت رابطتهم الجديدة المنظمة بشكل دقيق في العاصمة البريطانية لندن. ولقد أُقيم هذا الاحتفال الجديد في يوم الجمعة ٤ مايو سنة ١٩٧٩م.

وبعد هذا تساءل الكتاب: لماذا أُلغيت هذه الكلية مع أن مدرسة دنلوب لا تزال قائمة؟ ثم تحدث عن البديل للمناهج الهزيلة التي تدرس الآن فقال:

(وبغض النظر عن تعاطفي الشخصي مع كلية فكتوريا كمدرسة أجنبية وجدت على التراب العربي، تشرفت بالانتماء إليها: فإنني أجد أن الإسراع

في فتحها الآن بالأنماط التعليمية التي كانت تمارسها من المنابع الفكرية السائدة في اكسفورد وكامبردج كفيلة بأن تمثل أولى الخطوات السليمة على الخط العلمي الذي نهدف إليه... ومن الممكن التوسع في فتح المدارس الأجنبية المختلفة البعيدة عن السمات التبشيرية وهي كثيرة وكفيلة بإخراج أنماط متعددة من التفكير العلمي السليم الذي يلتقي مع غيره من أنماط علمية سليمة أخرى، ليؤدي التفاعل بينها إلى خلق القدرة العربية في الوصول إلى أسلوب المخاطبة مع الغرب، والتعبير عن مصالحنا وأهدافنا القومية) (٣٣).

إنني أعتقد أن هذه الفقرات التي أوردتها كافية في الدلالة على صدق صورة هذه الموالاة للغرب، وهي صادقة أيضاً في براء هذا الفكر من الفكر الإسلامي السليم.

فالكاتب لا يرى في الإسلام بديلاً صالحاً للمناهج الهزيلة التي تدرس الآن في العالم الإسلامي، لأنه غير مقتنع بصلاحية الإسلام، الذي يربي المؤمنين على العقيدة الإسلامية الصحيحة وعلى الولاء الخالص الصادق لهذه العقيدة. مع البراء من كل دخيل عليها، والشعور بالاعتزاز بهذه المكرمة الربّانية التي لا يستحق هذا الكتاب وأمثاله أن يتحلوا بها. لأنها لا تكون إلا لمؤمنين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وليست لمجموعة من ''أفراخ'' التعليم الغربي الكافر.

فهل وعى ذو الحجى منا خطورة هؤلاء التلاميذ الذين ينشرون هذا الكلام في صحفنا ويضعون مناهج التعليم في بلادنا؟

اللهم بلغت اللهم فاشهد.

(٢) وسـائل الإعـلام :

لوسائل الإعلام – الكتاب، القصة، الإذاعة، التلفزيون، المجلة، الجريدة

(٣٣) جريدة عكاظ، العدد الأسبوعي، رقم٤٧٢٨، بتاريخ: ١٣٩٩/٦/١٦هـ.

السينما وأخيراً الفيديو - أثر كبير وخطير على جميع طبقات المجتمع وقد أدرك أعداء الإسلام خطورة الوسائل وما لها من تأثير عميق فأحكموا قبضتهم عليها، وبثوا من خلالها ما رسموه لإفساد المسلمين وإخراجهم من إسلامهم.

وجميع هذه الوسائل تحرص - وبكل ما أوتيت - على فسخ وخلع ولاء المسلم لدينه وإخوانه المؤمنين وتركّز بكل قوة على تذويب تميز المسلم عن غيره، وعلى زعزعة برائه وعداوته للكفار، حيث تحسن للناس: أن البلاد الصناعية هي بلاد الحرية وبلاد التقدم وبلاد العلم والرقي والمدنية وأن الذي يشعر أو يدين بالعداوة الدينية لهذه الشعوب العظيمة هو إنسان لم يعرف روح العصر وروح العلم الذي مزق الحواجز بين الأجناس ووصل القارات وجعل الناس إخوة في الشرق والغرب!! وهي البلاد التي يستطيع الإنسان فيها أن يمارس ما يشاء وكيف شاء!!

ولقد قامت وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية - ولا تزال تقوم - بحرب شعواء على الدين الإسلامي وعلى المسلمين فضلاً عن أنها تحسن وتدعو إلى موالاة الكفار: هي أيضاً حريصة على نشر الفاحشة في الذين آمنوا.

والمتتبع للصحف الصادرة في أوائل هذا القرن الميلادي يجد فيها صورة صادقة لما نقول فصحيفة المقطم - مثلاً - تجدها موالية للانجليز، تعمل لحسابهم، وتصور أفعالهم بأنها أفعال إنسانية، حيث أنهم - أي الانجليز - لم يقيموا في مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل، وإليهم وحدهم يرجع الفضل في إنقاذ مصر من كل ما أصابها!! وكذلك كانت مجلة المقتطف تدور كتابتها وآراؤها حول هذا الموضوع[٣٤].

وقد عملت هذه الصحف والمجلات المأجورة على إماتة الجهاد

---

(٣٤) انظر بتوسع «الاتجاهات الوطنية»: (ج١/٩٠ - ١١٣).

بمفهومه الإسلامي الصحيح، وتردد ما يقوله أسيادها من أن المسلمين أُناس همج يحبون الحروب وسفك الدماء، ولا تتسع صدورهم للتسامح ''لأنهم متعصبون''!!

فإذا أرادوا الخروج من هذه الوصمة فعليهم بالتسامح والتحبب للآخرين وتغيير النظرة إليهم، ويجب عليهم أن يبرأوا من ذلك ''التراث'' الذي يحمق تلك الروح المتعصبة في نفوسهم[٣٥]!

وكذلك كانت مجلة الهلال والمقتطف تعملان على (تطوير الفكر الإسلامي وإشرابه الروح العلمانية التحررية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر)[٣٦].

ومن المهام التي عنيت بها وسائل الإعلام: إشاعة الفاحشة، والإغراء بالجريمة، والسعي بالفساد في الأرض لخلخلة العقيدة وتحطيم الأخلاق وإذا انهدم الركنان الأساسيان - وهما العقيدة والأخلاق - فكيف يرجى بعد ذلك قيام بناء سليم[٣٧]؟

وإذا كان هذا هو تأثير وسائل الإعلام بوجه عام، فكيف إذا علمنا أن معظم القائمين على هذه الصحف والمجلات، أُناس كفار، قد ملئت صدورهم حقداً وكراهية لهذا الدين، وآمتلأت نفوسهم غيظاً من شدة ما يرون من تأثير هذا الدين، وما تصنعه هذه العقيدة.

وهؤلاء كثير. منهم على سبيل المثال لا الحصر: جورجي زيدان مزيف التاريخ وهو صاحب دار الهلال وسليم تقلا مؤسس جريدة الأهرام، ويعقوب وفؤاد صروف صاحبا المقتطف.

---

(٣٥) انظر المصدر السابق: (ج١/١١٢).
(٣٦) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص٦٠).
(٣٧) انظر «أساليب الغزو الفكري»: (ص٧١)، الطبعة الثانية.

وهذه الوسائل قد قامت بمحاربة آلله في الأرض، تريد أن تحلل ما حرم آلله، وتحرم ما أحل آلله، فنصبت نفسها طاغوتاً يعبد من دون آلله.

ومصداق ذلك: أن الصحافة المأجورة أيام تأسيسها في مصر ظلت تكتب عن مشكلة البغاء ثلاثين سنة، وكذلك عن مشكلة المرأة وآختلاطها بالرجال، وتحطيم هيبة الدين ووصمه بالرجعية والجمود والتقاليد البالية، وأنه لم يعد صالحاً لمواكبة العصر، كما قال ذلك الصحافي المأجور ''هيكل'' حين قال: (إن التقدم التكنولوجي قد أحال أقدس الكتب الدينية – أي القرآن – إلى أوراق صفراء تحفظ في المتاحف)[٣٨]. بل تعدت وسائل الإعلام المأجورة من قبل أعداء الإسلام على الألوهية. فقال نجيب محفوظ في إحدى قصصه إن آلله قد مات[٣٩] ﴿ألا لعنة آلله على الظالمين﴾.

أما عن قضية حجاب المرأة المسلمة فهذا شيء هاجت له جميع وسائل الإعلام ولا تزال وأول من قاد هذه الدعوة المحمومة قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» ونادى بالمرأة المصرية أن تجاري أختها الأوروبية في كل شيء، ومن ثمار هذه الدعوة من سميت أمينة وهي ليست أمينة، إنها أمينة السعيد التي قالت وهي تهاجم الحجاب: (عجبت لفتيات مثقفات كيف يلبسن أكفان الموتى وهنَّ على قيد الحياة)، وقبلها كانت «الزعيمة» هدى شعراوي وصفيّة زغلول، وغيرهما من اللائي أحرقن الحجاب في ميدان الإسماعيلية الذي سمي بعد ذلك «ميدان التحرير»[٤٠]!

وخلاصة ما يمكن أن نقوله عن وسائل الإعلام ومن يخطط لها: إنها قلبت المنكر معروفاً وأمرت به، وقلبت المعروف منكراً ونهت عنه.

---

(٣٨) نقلاً عن «مذكرة المذاهب الفكرية» للأستاذ محمد قطب.

(٣٩) انظر المصدر السابق.

(٤٠) راجع كتب الدكتور الأستاذ محمد محمد حسين «الاتجاهات الوطنية»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، و«حصوننا مهددة من داخلها».

ومن يراجع بروتوكولات حكماء صهيون يجد مصداق ما ذكرنا كله حرفاً بحرف بل وأكثر من ذلك، وإليك هذا النص الصريح من نفس البروتوكولات.

جاء في البروتوكول الثالث عشر ما نصه: (ولكي نبعد الجماهير من الأمم غير اليهودية عن أن تكشف بنفسها أي خط عمل جديد لنا سنلهيها بأنواع شتى من الملاهي والألعاب وهلم جرّا.

وسرعان ما سنبدأ الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتى من كل أنواع المشروعات كالفن والرياضة وما إليها.

إن هذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتماً عن المسائل التي سنختلف فيها معه وحالما يفقد الشعب تدريجياً نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعاً معنا لسبب واحد هو: إننا سنكون أعضاء المجتمع الوحيد بين الذين يكونون أهلاً لتقديم خطوط تفكير جديدة.

وهذه الخطوط سنقدمها متوسلين بتسخير آلاتنا وحدها، من أمثال الأشخاص الذين لا يستطاع الشك في تحالفهم معنا.

إن دور المثاليين المتحررين سينتهي حالما يعترف بحكومتنا وسيؤدون لنا خدمة طيبة حتى يحين ذلك الوقت، ولهذا السبب سنحاول أن نوجه العقل العام نحو كل نوع من النظريات المبهرجة التي يمكن أن تبدو تقدمية أو تحررية.

لقد كان نجاحنا نجاحاً كاملاً بنظرياتنا على التقدم في تحويل رؤوس الأميين الفارغة من العقل نحو الاشتراكية. ولا يوجد عقل واحد بين الأميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة «التقدم» يختفي ضلال وزيغ عن الحق)[41].

---

(٤١) «بروتوكولات حكماء صهيون»: (ص١٦٨)، ترجمة محمد خليفة التونسي، الطبعة الرابعة، وانظر «مكائد يهودية» للميداني: (ص٣٤٦).

وأحسب أن كل عاقل سيقف بروية عند قولهم (وحالما يفقد الشعب تدريجياً نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعاً معنا.. إلخ).

ولكن مع هذا أيضاً نقول: إن هذا الغزو الفكري مهما كان من الشراسة والحنكة والتخطيط مع الدقة وضبط التوقيت المناسب للمادة المناسبة مع هذا كله فإن المسلمين أو أكثر المحسوبين على الإسلام قد أسهموا في عمل هذه الوسائل الخبيثة لأنهم ابتعدوا عن دينهم وتخلوا عن مفاهيم عقيدتهم والله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

٣ ـ نشر كتب المستشرقين

لئن كانت حركة الترجمة الأولى قد صحبها من الانحرافات ما سبقت الإشارة إليه، فإن حركة الترجمة المعاصرة أشد خبثاً من سابقتها وأكثر إفساداً منها.

ذلك أن الترجمة الحديثة لم تكن في غالب الأحوال عن طريق غير المسلمين فحسب، بل اتجهت إلى ترجمة كتب المستشرقين الحاقدين الذين قاموا بأعمال فكرية كثيرة هدفها الأساسي تشويه مصادر التلقي عند المسلمين وتكديرها بالأفكار المغرضة والدسائس الحاقدة. لينشأ جيل إسلامي مفصول العرى عن دينه وأمّته، يتخذ من الطرائق الغربية في التفكير والبحث قبلته الوحيدة، ولا يشعر بالانتماء للإسلام ديناً ومنهجاً وحضارة.

وكتابة المستشرقين تتفق في معظمها على أسلوب واحد هو: إنها دراسات موجهة من قبل المستشرقين أنفسهم ومن قبل من يمولهم في عملهم فهي ليست دراسات علمية يقصد بها وجه العلم، يدل على ذلك قول «سمث» في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» في الفصل الثالث الذي تكلم فيه عن العرب: (إن الإسلام كان عاملاً أساسياً وسبباً مهماً من أسباب وجود الهوة التي تفصل بين الغرب والعرب) ثم يقول: (لقد أصبح من

الحقائق الجديدة في مدنيتنا العصرية أن من الواجب سدّ هذه الثغرات ببناء قنطرة فوق مثل هذه الهوة، وخلق الأسباب الموصلة للتفاهم والتواصل.. وخلق مثل هذا التفاهم بين المدنيات المختلفة والأديان المتباينة يتطلب جهوداً مبتكرة لا يتوصل إليها إلا بصعوبة)[٤٢].

(ولقد قام المستشرقون بجهود كبيرة تمثلت في إحياء بعض النصوص والمخطوطات الإسلامية وكان لهم في ذلك طرق منظمة إلى حدٍّ ما، ولهم أيضاً في ذلك أخطاء كثيرة في فهم النصوص وتفسير الأحداث، ولكن مع كل ذلك فليست العبرة بالجهد الذي بذل وإنما العبرة بالهدف الذي بذل هذا الجهد من أجله هل كان هذا الهدف هو «خدمة» الإسلام أم تشويه الإسلام وتلويث صورته في النفوس)؟[٤٣].

ويدّعي المستشرقون في كل ما يكتبون الروح العلمية أو الروح المتجردة! وغير ذلك من الشعارات التي تكذبها كتابة المستشرقين أنفسهم، ودليل ذلك أن مرجليوث ــ وهو من أئمتهم ــ يقول في فصل له منشور في موسوعة «تاريخ العالم» أن محمداً ﷺ رجل مجهول النسب لأنه محمد «ابن عبد الله» وقد كان العرب يطلقون على من لا يعرفون نسبه اسم عبد الله!!!

أوليس منبع هذا: هو الحقد الصليبي لا الروح العلمية المتجردة؟

أوليس دافع هذا: التشكيك في الحقائق المسلمة البدهية؟

كيف يقال هذا الكلام ورسول الله ﷺ من قوم لا تعرف شيئاً كما تعرف الأنساب ولا تعتز بشيء كاعتزازها بالأنساب؟

أي سخف وأي تفاهة في هذا التفكير الاستشراقي الخبيث؟[٤٤].

(٤٢) (ص١٠٢ ــ ١٠٣) نقلاً عن «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص١٠٩).

(٤٣) «هل نحن مسلمون»: (ص١٧٤) بتصرف بسيط.

(٤٤) انظر المصدر السابق: (ص١٧٢).

وماذا ينتظر من هؤلاء وواحد من زعمائهم «جولد تسيهر» يقول في كتابه «العقيدة والشريعة» إن النظام الفقهي الإسلامي الدقيق مستمد من «القانون الروماني» ونظامه السياسي متأثر بالنظريات السياسية الفارسيّة، وتصوفه يمثل الآراء الهنديّة والأفلاطونية الجديدة!!![45].

ولو أردنا تتبع الأمثلة لطال الحديث في ذلك.

ولكننا نقول: مادام هؤلاء الناس بهذه الروح الحاقدة والنيّة السيئة والفعل الخبيث. سلاحهم التشكيك، وديدنهم الكذب والتزوير وطابعهم الحقد الصليبي القديم، ماداموا كذلك فما هو — يا ترى — قيمة كل ما كتبوه؟

وماذا يرتجى من تلاميذهم الذين ينظرون إليهم بروح الإجلال والإكبار وأنهم هم أساطين البحث العلمي المتجرد؟

إن كثيراً من تلاميذهم يستطيع أن يغالط نفسه وغيره ممن هو على شاكلته كثيراً ولكنه لا يستطيع أن ينكر واقعاً مشهوداً في حياة المستشرقين أنفسهم غير ما ذكرنا من الأمثلة السابقة.

ذلك أن الطلاب المبتعثين للدراسة على أيدي المستشرقين لابد أن يختاروا بحوثهم العلمية على ما يريده لهم أساتذتهم. فإن لم يكن كذلك وأعطي الطالب حرية الاختيار فلابد أن تكون الكتابة في أي موضوع خاضعة لما يمليه هذا المستشرق وما يصبو إليه من الطعن في الإسلام شريعة وعقيدة ونظام حياة. خاصة إذا كان البحث في ''قضايا الإسلام''.

وخير مثال على ذلك ما ذكره الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله حيث قال: (حدثني البروفسور ''اندرسون'' نفسه أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا نوال شهادة الدكتوراة في التشريع الإسلامي

---

(٤٥) المصدر السابق: (ص١٧٦).

من جامعة لندن، لسبب واحد هو أنه قدم أطروحته عن حقوق المرأة في الإسلام، وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة، فعجبت من ذلك، وسألت هذا المستشرق: وكيف أسقطته ومنعته من نوال الدكتوراة لهذا السبب، وأنتم تدعون حرية الفكر في جامعاتكم؟

قال: لأنه يقول: الإسلام يمنح المرأة كذا والإسلام قرر للمرأة كذا، فهل هو ناطق رسمي باسم الإسلام؟!![٤٦]

لقد أحدثت كتب المستشرقين زعزعة كبيرة في نفوس ضعاف الإيمان، فخرج من هذه المدرسة التشكيكية أجيال تولت القيادات الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي وأخذت تردد كالببغاء ما أملاه عليها أساتذتها «العلماء».

ولقد كان من أهم أهداف المستشرقين وتلاميذهم الطعن في سنّة رسول الله ﷺ ومحاولة النيل منها. ومصداق ذلك أن أحد هؤلاء التلاميذ وهو الدكتور علي حسن عبد القادر قال لتلاميذه بعد أن رجع ''دكتوراً'' إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي ولكن على طريقة علمية لا عهد للأزهر بها، وإني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً فلم أفهم الإسلام ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا[٤٧]!! قال الأستاذ السباعي رحمه الله: ثم تبيّن لنا فيما بعد أنه يملي علينا ترجمة حرفية لكتاب ''جولد تسيهر'' دراسات إسلامية!![٤٨].

أما أكثر ما يعتمدون عليه في الطعن في السنّة من غير الشبه والشكوك فهو حكاية عرض الحديث على ''العقل'' وهي حكاية قديمة نادى بها المعتزلة،

---

(٤٦) «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي»: (ص١٣)، الطبعة الثانية، وذكر أيضاً ــ رحمه الله ــ أمثلة كثيرة حول هذا الموضوع فليراجعها من شاء في ذلك الكتاب القيّم.

(٤٧) «السنّة» للسباعي: (ص١٩).

(٤٨) نفس المصدر: (ص١٩).

وتبعهم عليها المستشرقون وتلاميذهم أمثال أحمد أمين وأبي ريّة وغيرهم كثير.

وللمستشرقين أيضاً كتابات أخرى دس فيها السم بالعسل وذلك أنهم يصدرون كتاباتهم بقليل من المدح للإسلام وأنه فعل كذا وكذا.. إلخ، وهم يهدفون من وراء ذلك إلى كسب ثقة القارىء، ثم يبدأون بنفث الحقد الدفين في نفسه بأن يشككوا في العقيدة والشريعة ويوردوا سيلاً من الشبه التافهة من أجل زعزعة ثقة المسلم بدينه[٤٩] تحقيقاً لقوله تعالى:

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة آل عمران: ٧٢].

ومما لا شك فيه أن هناك أموالاً وحكومات وراء نشر كتب المستشرقين في العالم الإسلامي لأن هذا الغزو يحقق لأعداء الإسلام ما لم يحققه لهم الغزو العسكري.

على أنه من المهم أن نقول هنا: إن تخلي المسلمين عن منهجهم العلمي بعد تخليهم عن مفاهيم العقيدة الصحيحة وترك منهج المحدّثين الذي هو أعظم منهج علمي وضع في تاريخ البشرية سبب مباشر يقف إلى جانب كيد المستشرقين في ازدياد هوة هذا الانحراف الذي وقع في حياة المسلمين.

وخلاصة القول: إن كل من تأثر بالمستشرقين - فكراً ومنهجاً - لا يمكن أن يكون ولاؤه لدينه وأمته صافياً صادقاً كما أن براءه لن يكون وفق التصور الإسلامي الصحيح.

---

(٤٩) الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين جزاه الله خيراً تتبع مزيداً من هذه البحوث في كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» خاصة في الفصول الرابع والخامس والسادس، فليراجع.

(٤) المذاهب اللادينية :

إن من أخبث وأخطر ما واجه المسلمين في عصرهم الحاضر انتشار المذاهب اللادينية بينهم، حيث أُريد لهذه المذاهب الهدامة أن تمحو شريعة ٱلله من الأرض وتقصيها من واقع حياة المسلمين. وتشتت ولاء المسلمين الواحد إلى ولاءات جاهلية متعددة، فإذا ٱنتزع ولاء المسلم لدينه سهل حينئذ تقبله لأي فكر، ورضي بأي وضع يعيش فيه مهما كان في ذلك من التبعية والانهزام.

من هنا عمل أعداء الإسلام على بث هذه المذاهب مستخدمين لذلك وسيلتين:

(١) الهجوم الشرس على العقيدة الإسلامية والشريعة ورميها بأحط ما وضعوا من عبارات مسفة كقولهم إن الشريعة الإسلامية شريعة بربرية تشوه يد السارق، وترتكب جريمة فظيعة برجم الزاني المحصن ولا تساير روح العصر الذي سيطرت عليه المعارف ''التكنولوجية'' بل ليس في الإسلام مواد قانونية تنظم حياة الناس.. إلى آخر ذلك الهراء.

(٢) إضفاء صبغة البهرجة الكاذبة، والدعاية لتلك المذاهب الهدامة ووصفها بأنها هي علامة التقدم ومسايرة الركب الحضاري العالمي، وهي التي تعطي الناس الحرية في كل شيء. وهي مذاهب لا تقيد الإنسان بدين معيّن، بل يأخذ ما يريد ويدع ما لا يريد مذاهب تخلو من التزمت وضيق الأفق.. إلى آخر ما هنالك مما يقال.

ولقد وقع كثير من المنتسبين للإسلام فريسة لهذا الغزو الفكري الماكر ولا أُريد هنا أن أُدخل في قضية الرّدود على كل جزئية فإن ذلك ليس من منهج هذا البحث، كما قد أشرت إلى ذلك سابقاً وصدق القائل:

لو كل كلب عوى أَلقمْته حجراً
لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

ثم إننا لم نعد بحاجة كبيرة لتتبع الرد على شبهات الأعداء وقولهم إن هذا العصر لم يعد بحاجة إلى الدين، لأن هذا كلام يكذبه واقعهم هم، بدليل ما نشاهده اليوم في البلاد الكافرة كأمريكا وأوروبا من حالة الضياع والانتحار والقتل وفظائع الجريمة والخواء الروحي. وبحثهم عما يشبع جوعهم الروحي الذي لا يملأه إلا الإسلام.

وأما ما يتعلق ببهرجة مذاهبهم الإلحادية فأكبر مثال يكذبها عندهم هم هو فشلها في بلادهم.

ثم ما كتبه مفكروهم عن تدهور الحضارة الغربية، حيث ذكروا أنها في طريقها إلى الزوال وهذا أمر ثابت لا يحتاج إلى جدال. فإن كل بناء قام على غير ما شرع الله، مصيره الزوال والدمار كما قال تعالى:

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

[سورة الأنعام: ٤٤].

وأوروبا اليوم قد فُتح عليها كل شيء في العلم المادي والتقدم الصناعي والسياسة والمال والاقتصاد وغير ذلك، ولكنها مع هذا كله في طريقها للزوال وفق سُنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول.

هذا وبالبرغم من أنني سأعطي فكرة موجزة عن هدف كل مذهب يتعلق ببحثي إلا أنني أبادر إلى القول بأن الهدف الأول والأخير من كل هذه المذاهب الكافرة هو: إخراج المسلم من إسلامه وقطع ولاء المسلم بربه

ودينه وإخوانه المؤمنين، ثم العودة إلى روح الجاهلية التي تتمثل في الطاعة والانقياد والخضوع لهذه المذاهب الكافرة ولطواغيتها الذين يخططون لها. والعودة أيضاً بالمسلمين إلى جاهلية العرق والنسب والتراب وسائر أنواع النتن التي أمر ٱلله المسلمين بتركها لأنها تنقض عرى الإسلام عروة عروة. وهذا الهدف تتفق عليه كل المذاهب الكافرة بٱتجاهاتها المختلفة وٱنتماءاتها المتنوعة ولكنني - وأنا أكتب عن عقيدة الولاء والبراء - سأقتصر على تلك المذاهب التي تبدو فيها صورة منافاتها لهذه العقيدة واضحة جليّة، وتناقضها معها أمراً ظاهراً.

ومن ذلك القومية والوطنية، اللتان تحصران الولاء في دائرة الجنس أو التراب فيلتقي فيها مثلاً اليهودي العربي والنصراني العربي والمشرك العربي، والبعث العربي مع المسلم العربي لأن رابطة القومية تجمعهم!! وهذا أمر يرفضه الدين الحنيف لأن الرابطة فيه هي رابطة العقيدة، فضلاً عن أن الوطنية والقومية ضيقتا دائرة الولاء.

إن العالم الإسلامي كان أمة واحدة تظلله راية ''لا إله إلا ٱلله محمد رسول ٱلله'' ورغم خط الانحراف الذي يرتفع ويهبط في تاريخ المسلمين إلا أنهم إلى ما يقرب من ثلاثة قرون كانوا يشعرون أنهم أمة واحدة يدينون بدين واحد ويؤمنون بكتاب واحد وسنّة واحدة ويتحاكمون إلى شريعة واحدة.

ولقد كان المسلم يخرج من طنجة حتى ينتهي به المقام في بغداد لا يحمل معه جنسية قومية أو هوية وطنية وإنما يحمل شعاراً إسلامياً هو كلمة التوحيد، فكلما حل أرضاً وجد فيها له إخوة في الإيمان وإن كانت الألسن مختلفة والألوان متباينة لأن الإسلام أذاب كل تلك الفوارق واعتبرها من شعارات الجاهلية.

ولكنه نتيجة لضعف المسلمين وتمكينهم عدوهم من أنفسهم سَهُلَ استعمارهم من قبل أرذل خلق ٱلله. وهم اليهود والنصارى ومن جاء بعدهم كالملاحدة الشيوعيين.

وبعد أن تمكن العدو من السيطرة على أرض الإسلام أخذ يبث سمومه ويغرس في نفوس الضعاف والسذج والعملاء حبه ونصرته وموالاته، وآستحسان ما هو عليه من باطل وكفر، وهنا نُزِعَ الولاء الإسلامي ليحل محله الولاء الجاهلي الكافر.

ومصداق هذا الكلام قول أحد المستشرقين في كتاب «الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته» وهو يتحدث عن أسلوب نزع ولاء المسلمين فيقول: (إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنحصل على تراث الحضارات القديمة قبل الإسلام، ولسنا نعتقد بهذا أن المسلم سيترك دينه ولكنه يكفينا منه تذبذب ولائه بين الإسلام وتلك الحضارات)(٥٠).

وهذا الكلام صادق في ذاته، لأن نشوء فكرة إحياء الحضارات والنعرات الجاهلية أمر خطير على قضية الولاء، حيث ينشأ من ذلك فصام نكد، ويبتدىء الميل والحب - بفعل شياطين الجنّ والإنس - يكبر تجاه هذه الحضارات ويقل ثم يضمحل الولاء الإسلامي الخالص لله ربّ العالمين.

وبعد أن كان البراء أمراً ملازماً للولاء تجاه هذه النعرات الجاهلية أصبح أمراً لا وجود له - إلا عند من رحم آلله - لأن هذه الأفكار كفيلة بغسل فكرة البراء من النفس عند ضعاف الإيمان، أو المغالطة عند البعض بأن هذه الأفكار والمذاهب لا تتعارض مع الإسلام! ويقال: ما الذي يمنع المسلم أن يكون مسلماً وقومياً أو مسلماً علمانياً أو مسلماً آشتراكياً.. إلخ.

ولما أدرك أعداء الإسلام مدى جدوى وفاعلية هذه الفكرة التي تمسخ المسلم حتى يصبح مخلوقاً لا صلة له بآلله - كما قالوا - بدأوا ببث فكرة القومية والوطنية، مبتدئين بتركيا مقر آخر خلافة إسلامية، حيث نشأت هناك: القومية الطورانية وتزعم هذه الدعوة حزب ''الاتحاد والترقي'' فبدأ ''بتتريك'' تركيا،

---

(٥٠) نقلاً عن «مذكرة المذاهب الفكرية».

وعودة القومية الطورانية متّخذين لذلك شعار: الذئب الأغبر الذي هو معبود الأتراك قبل أن يعرفوا الإسلام.

وبهذا ''التتريك'' أخذت الدولة العثمانية تضغط على العرب، حيث تعطي الأتراك امتيازات خاصة بهم لأنهم تُرك! وهذا الفعل فضلاً عن كونه يعارض مبدأ العدل الإسلامي هو أيضاً مؤشر للعرب أن يتحدوا في قومية جديدة! وهذا هو الذي حصل فعلاً.

فلقد قام الجاسوس لورنس - الذي سماه المغفلون - ''لورنس العرب'' بالتخطيط لقيام ما يسمى بالثورة العربية الكبرى ضد الخلافة العثمانية وانضم العرب إلى جيوش الحلفاء الذين لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة ولا يراعون في مسلم عهداً ولا حرمة(٥١). ومن المضحك المخزي أن محرك هذه الجيوش العربية هو لورنس العرب!!

فانظر أيها القارىء إلى جيوش عربية تزعم أنها مسلمة وولاؤها لجاسوس غربي كافر اسمه لورنس!!

وبعد انتهاء مهمة هذه الجيوش قال أحد القادة الانجليز - ''اللينبي'' - قولته المشهورة: (الآن انتهت الحروب الصليبية)!! يقصد بذلك أن الحقد الصليبي ظل كامناً في نفوس الصليبيين إلى أن استردوا بيت المقدس(٥٢).

وانفصل العرب عن إخوانهم المسلمين في أنحاء المعمورة واعتنقوا القومية العلمانية من أجل تقليد الغرب الذي آمن بها بالأمس وكفر بها اليوم. وأصبح (كل تجمع أو حتى تضامن أو تقارب على أساس العقيدة والدين مظهراً من مظاهر التخلف والرجعيّة يجب أن تبرأ منه الجماهير لتكون عصرية تقدميّة)(٥٣).

---

(٥١) «العرب والإسلام» للندوي: (ص٩).

(٥٢) انظر المحاضرة القيّمة: «المخططات الصهيونية» للأستاذ محمد قطب، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.

(٥٣) «درس النكبة الثانية» للأستاذ يوسف القرضاوي: (ص٤٥)، الطبعة الأولى.

ولما انتكست العرب وعادت إلى نعرة الجاهلية، فقدت روح التضحية والجهاد، وولت وجهها تجاه اليمين واليسار، حيث اليمين له ألوان وضروب من واشنطن إلى باريس إلى لندن واليسار له ألوان أحمر وأصفر وبينهما بعد ما بين موسكو وبكين[٥٤].

ولما وقعت هذه النعرة الجاهلية، وقع معها كل باطل وكل شر.

فأما شريعة الله وحكمها وقيامها بما يحتاج إليه البشر لأنها من عند الله وهو العليم سبحانه بما يصلح أحوال البشر. فقد أقصيت وحل محلها قانون البعث العربي الاشتراكي الذي أخذ يردد هذا الشعار:

لا تسل عن ملتي أو مذهبي
أنا بعثي اشتراكي عربي

ومن المضحك أن صاحب هذا الشعار حين تلقى صفعه موجعة من اليهود بالرغم من ولائه لهم — مسح ذلك الشعار وكتب مكانه ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾!!![٥٥].

أما ثمار هذا ''الفتح الجديد'' بعد الرضى بالقومية فشيء يصعب حصره، حيث انطلقت الغرائز البهيمية وطغت الشهوات، وانتشر المجون والفسق، وتحللت الأخلاق وغربت الفضائل، فأصبح العفاف والاحتشام والحياء: رجعية متزمتة لم تر نور القرن العشرين، وأصبح اللهو والخلاعة والصور العارية والقصص الخليعة والأدب الرخيص، والأزياء المثيرة والغناء والرقص والاختلاط سمات الحضارة وعنوان التقدم وشارة التحرر من ربقة التقاليد البالية!![٥٦].

---

(٥٤) «درس النكبة الثانية»: (ص٣٦).

(٥٥) «نظرية التربية الإسلامية» للشيخ محمد الغزالي. وهو بحث قدم لندوة أسس التربية الإسلامية بمكة في ١٤٠٠/٦/١١هـ.

(٥٦) انظر «درس النكبة الثانية»: (ص٣٩).

وأعجب من ذلك كله أن اليهود الذين هم وراء هذه الردة الجديدة يعلنون وبصراحة وجديّة واضحة أنهم لم ولن يتخلوا عن دينهم فهذا موشي ديّان حين سئل هل كنتم تشعرون أن آلله معكم في معركة ٥ حزيران؟

قال: (كنا نشعر أننا في جانب آلله)(٥٧).

ويقول زعيم الصهيونية الأول ''هرتزل'': إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية(٥٨).

ونشطت الدعوات الهدامة، فهذه النعرة الفرعونية تطل برأسها وتسفر عن وجهها بعد أن كانت لا تظهر إلا مقنعة أو من خلف ستار.

نشط دعاتها في الصحف والندوات ورسموا رأس ''أبو الهول'' على طوابع البريد وعلى أوراق النقد، واجتاحت مصر موجة من الفرعونية، تحاول غزو سائر النواحي الثقافية، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية، وتزعمت صحيفة ''السياسة الأسبوعية'' هذا الاتجاه الجديد، فأفسحت صدرها لهؤلاء الدعاة ولم يخل عدد من أعدادها من حديث عن حضارة الفراعنة وثقافتهم ومجدهم(٥٩).

وكثر التغني بهذه الأمجاد من أجل ذبذبة ولاء المسلم، فهذا حافظ إبراهيم يقول:

أنـــا مصري بنـــاني مـــن بنـــى
هـــرم الدهـــر الـــذي أعيـــى الفنـــى

ورجعت العراق لعنصرية الآشوريين، وكل بقعة أخذت تنادي بهذه الردة الجديدة.

---

(٥٧) المصدر السابق: (ص٨٢).
(٥٨) نفس المصدر: (ص٨٢).
(٥٩) انظر «أزمة العصر» للدكتور محمد محمد حسين: (ص٤٣ — ٥٣).

أما الشعار الوطني الجديد: فهو ما أعلنه سعد زغلول بقوله: الدين لله والوطن للجميع! أي الوطن ليس لله، ثم قال: لا تنادوا بشعارات إسلامية خشية أن يغضب إخواننا الأقباط[٦٠].

ونادى دعاة القومية الناس بأسلوب ماكر فقالوا: ما المانع أن يكون المسلم العربي - عربياً مسلماً، ثم قالوا: يكون عربياً فقط. أليس الإسلام عربيًّا؟ إذن ما هو عيب القومية العربية؟ إن العرب إذا ذلوا ذل الإسلام فلنناد بالقومية العربية!!

وهذا كلام غير صحيح لأنه يوم ذل العرب جاء صلاح الدين الكردي، وجاء قطز المملوكي فأنقذوا المسلمين من ذلك الهوان، وآنتصر القائدان بقولهما وا إسلاماه.

ولم يكن في حسهم ولا في عقيدتهم هذه التفرقة ولا هذه النعرة الجاهلية[٦١].

إن الإسلام يكذب ذلك الزعم الذي يزعمه القوميّون لأنه جاء لانتزاع هذه النعرات فجمع في دعوته بل في أول دعوته: أبا بكر العربي القرشي وبلال الحبشي وصهيباً الرومي وسلمان الفارسي. وكما قال عمر رضي ٱلله عنه: نحن قوم أعزنا ٱلله بالإسلام فإذا ٱلتمسنا العزة بغيره أذلنا ٱلله.

إن تقليد الغرب في آستيراد مبدأ القوميّة أو العلمانيّة أو أي مذهب أو فكر: يعيد للأذهان تلك القصة الرمزية القديمة التي تتحدث عن حمارين كان أحدهما يحمل ملحاً وكان الآخر يحمل إسفنجاً. فرأى حامل الإسفنج صاحبه ينزل إلى الماء فيذيب بعض الملح ويخرج منه أخف حملاً، فخطر له أن يحصل على المزيّة نفسها بالأسلوب نفسه، فكانت النتيجة على عكس ما توقعه، وخرج من تجربته أثقل حملاً[٦٢].

---

(٦٠) «مذكرة المذاهب الفكرية».

(٦١) «مذكرة المذاهب الفكرية».

(٦٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص٢٣٧).

وخلاصة القول في القوميّة: إنها شرك بآلله لأنها بإيجابها العمل لها وحدها. والتضحية والجهاد في سبيلها، وصرف الكره والبراء وما يتبعهما ضد كل خارج عن القوميّة، وصرف الحب والولاء وما يتبعهما للقوميين ومن والاهم: هي بهذا تكون ندًّا يعبد من دون آلله؛ لأن ذلك يقوم مقام النفي والبراء والإثبات والولاء وهما ركنا الألوهية، أو العبادة في قول "لا إله إلا آلله"، فـ "لا إله" نفي وبراء، و "إلا آلله" إثبات وولاء لله لا شريك له. والدليل على ذلك قوله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥].

وليس بعد الحق إلا الضلال. فليحذر كل مسلم على نفسه من الوقوع في هذا الشرك المقنّع.

وأمّا العالمية: أو "الإنسانية" فهي تتفق أيضاً مع القوميّة والوطنية في مناقضة عقيدة الولاء والبراء؛ ولكن هذا التناقض يتخذ شكلاً آخر: هو توسيع دائرة الولاء بحيث يدخل فيها كل الأقوام والأديان والأوطان. وهذا في حقيقة الأمر ضياع للولاء ومسخ للبراء حتى لا يعود المسلم يشعر بالفارق بينه وبين أي كافر في بقاع الأرض.

ويقوم هذا المبدأ على ألفاظ خادعة وموهمة مثل: الحرية والإخوة والعدل والمساواة.

---

(٦٣) انظر «فكرة القوميّة العربية على ضوء الإسلام» للشيخ صالح العبود: (ص٢٥٤)، الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ الناشر: دار طيبة بالرياض، وهي أوسع كتاب فيما أعلم في قضية القومية العربية.

ويراجع أيضاً كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» للندوي: (ص١٢٤ ـــ ١٦٢)، الطبعة الثالثة، وكتاب «الاتجاهات الوطنية»: (ج١/٦٧، ١٠٥)، و(ج٢/٢٩٢)، وكتاب «الشعوبية الجديدة» لمحمد مصطفى رمضان.

وفي ذلك يقول ''كالفرلي'': (وحينما يصبح في مقدور الجميع الوقوف على كل المعلومات المجردة عن الهوى، وحينما يصبح الجميع أحراراً في تفكيرهم، لهم من الشجاعة ما يجعلهم يتقبّلون ما هو خير وعدل وجميل، وعندئذ يكون من المحتمل أن يسود العالم دين واحد. وإني سأكون سعيداً بأتباع دين عالمي موحد، تنبع مصادره من حقائق التاريخ، وتشمل مبادئه العدالة الاجتماعية، وتقوم بفضله مظاهر الحب والإخاء على أنقاض الكراهية والخصومة)(٦٤).

وهذا الكلام هدم صريح للإسلام، ومعوّل هدم لطمس الجهاد الإسلامي الذي يقوم على تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض، ومن انقسامهم إلى ''ملأ'' وهم السادة الأقوياء و ''عبيد'' وهم التابعون الأذلاّء: إلى جعلهم كلهم عباداً لله.

وكما نعلم جميعاً أن الجهاد يرهب أعداء الله، ويخافونه كثيراً، ولذلك ما فتؤوا يبحثون عن وسائل متنوعة لإبطاله ومحوه من أفكار المسلمين، إنهم تارة يقولون: الإسلام انتشر بالسيف، وتارة يقولون: إنه دين وحشي لا يرحم الناس، وقد لا تكون هذه مجدية لما يريدون، فقالوا: العالمية والإنسانية هي المذهب الجديد الذي يعيش فيه الناس بأمن وسلام وعدالة وإخوة، بصرف النظر عن الأديان والأوطان!

ويزيد هذا الأمر إيضاحاً ما قاله معروف الدواليبي: (.. إننا نشاهد منذ المنتصف الثاني لعصرنا الحاضر من القرن العشرين تطلعاً كبيراً نحو إقامة الحياة البشرية على مفاهيم وقواعد إنسانية، ورغبة أكيدة من قبل رجال الفكر والعلم وقادة السياسة للانتقال بالمجتمع الإنساني المتمايز المتناحر إلى مجتمع إنساني واحد متعاون وذلك في إطار ''وحدة الأسرة البشرية'' من غير تفاضل بين الأقوام إلا بالتقوى، وفي إطار ''حق الجميع في الحياة الكريمة'' من غير تمايز في الأعراق أو في الأجناس أو في الأديان وفي إطار ''وحدة المصالح الاقتصادية للجميع''

---

(٦٤) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص١٣٢).

من غير آستئثار من قبل الكبار والأقوياء على حساب الصغار والضعفاء. وفي إطار ''العدالة المطلقة بين الجميع حماية لسلام الإنسان''، ثم ذكر أن هيئة الأمم المتحدة أخذت تدعو لهذه المفاهيم العالمية الجديدة التي تدعو إلى محو التمايز فيما بين الأسرة البشرية وأجناسها، قوميًّا وعرقيًّا وآقتصادياً وفقاً لمبادىء حقوق الإنسان)[٦٥].

---

(٦٥) مجلة «رابطة العالم الإسلامي» الشهرية، العدد الخامس، السنة التاسعة عشرة، جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ. هذا ومن الجدير بالذكر أنه قد ورد في مجلة «العربي» الكويتية، في العدد ٢٦٧، ربيع الأول، سنة ١٤٠١هـ مقالان حول هذه الدعوة.

المقال الأول منها:

(ص١٨) للدكتور محمد فتحي عثمان تحدث فيه عن (المسلمون والآخرون) وطالب المسلمين المعاصرين في إعادة النظر حول قضية دار الحرب ودار الإسلام، وأن هذا تقسيم غير صحيح، ولا يدل عليه الكتاب ولا السنّة، بل هو من صنيع الفقهاء مبيناً أن الخلافة الإسلامية كانت صورة تاريخية وهي لم تعش طويلاً فعلى المسلمين ألا يفكروا فيها مرة أخرى، وعليهم إعادة النظر في قضية العلاقات الدولية مع العالم المعاصر، لكي يتقنوا فن التعاون الدولي مستفيدين من إعادة نظر الولايات المتحدة العملاقة في سياستها إزاء الكساد الاقتصادي في الثلاثينات من القرن العشرين. وكذلك ما حدث في الكتلة الشرقية حين عدل خروشوف عن سياسة سلفه ستالين.. إلخ.

والكاتب يرى التعديل في المفاهيم الإسلامية مثلما يرى أرباب القانون الوضعي تعديل قوانينهم القاصرة وكأنه يجهل أو يتجاهل أنه لا مقارنة بين الدين الربّاني الذي نزل من الحكيم الخبير وبين أفكار البشر القاصرة الهزيلة، وهذه الدعوة فيها خدمة لمبدأ العالمية ودعوة غير مباشرة لإبطال شرعية الجهاد في الإسلام.

أما المقال الثاني:

وهو أخبث من سابقه فهو لفهمي هويدي بعنوان (المسلمون والآخرون أشواك وعقد على الطريق): (ص٤٩)، وهذا المقال يدعو لما دعا إليه الكاتب السابق مع زيادة هي: تجهيل علماء المسلمين ووصمهم بعدم معرفة دلالات النصوص وملابساتها، قائلاً: إن تلك المرحلة ــ يريد مرحلة التاريخ الإسلامي المشرقة ــ كانت لها حساباتها وموازينها الخاصة التي لا يمكن تعميمها على بقية مسيرة التاريخ البشري ومؤكداً (أنه ليس صحيحاً أن المسلمين صنف متميز ومتفوق =

ونتساءل بعد هذا الكلام. أي قانون بشري يريد دعاة العالمية أن يعيش الناس تحت لوائه؟

هل هو ميثاق هيئة الأمم؟ فهي. منظمةٌ السيطرة فيها لليهود والنصارى والشيوعيين وأكبر دليل على ذلك ما يسمى بـ ''حق الفيتو'' الذي يرفض كل ما يتعارض مع مبدأ أولئك المسيطرين أم أنها الغفلة والانخداع بما خطط له دعاة هذا المذهب الفاسد؟

أم أنه الخبث والدهاء في تخدير الأمة الإسلامية بأن الجهاد أمر لم يعد يصلح لمسايرة العصر الحديث لأن العالمية لا تقره ولا ترضاه؟

وأقرب الإجابات إلى نفسي هو جواب السؤال الأخير ذلك الجواب الذي يعرفه كل مخلص لدينه وربّه وكل مؤمن يعرف كيد الجاهلية المعاصرة فيربأ بنفسه أن ينخدع بأي دعوة لا تنبثق من مشكاة النبوة المحمدية والرسالة الربّانية الخالدة.

ونحن إذ نقرر هذا الجواب المؤكد، فليس ذلك تجنياً أو مجرد ثورة عاطفة ضد هذا المذاهب الإلحادي الكافر، بل هو عين ما يهدف إليه دعاة الماسونية العالمية التي تولت كبر الدعوة إلى هذه النّحلة الجديدة بجميع أهدافها وشعاراتها.

ولذلك يقول أحد الماسون: (إن ما تبغيه الماسونية هو، وصول الإنسانية شيئاً فشيئاً إلى النظام الأمثل الذي تتحقق فيه الحريّة بأكمل معانيها وتزول منه الفوارق بين الأفراد والشعوب ويسود فيه العلم والجمال والفضيلة)[٦٦].

= لمجرد كونهم مسلمين، وليس صحيحاً أن الإسلام يعطي أفضلية لهم، ويخص غيرهم بالدونية لأنهم كفار) ويكفي أن هذا الكلام فضلاً عن كونه دعوة لمبدأ الإنسانية الماسوني هو أيضاً صورة واضحة من صور الولاء للكفار لأن هذا الكلام الذي ساقه هويدى أمنية للكفار أن يتحدث به أبناء المسلمين لكسر التميز الذي ينبني على الولاء والبراء والحب والبغض حسب المقياس الإسلامي الصحيح فعلى المسلمين أن يتبينوا مواقع الزلل والانحرافات في مثل هذه الدعوات الإلحادية.

(٦٦) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص١٩٧).

وختاماً نقول: إن كل المذاهب البشرية القائمة اليوم في الأرض التي لا تستمد وجودها من الكتاب والسنّة محادة لله ولدينه وكتابه وسنّة رسوله ﷺ، وأي تقبل لها أو عمل بمبادئها فإن ذلك موالاة صريحة للكفّار، وبراءة صريحة من الإسلام والله قد بيّن لنا في كتابه العزيز أن من تولى الكفّار فهو منهم:

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ

[سورة المائدة: ٥١].

والإسلام هو الدين الذي يجمع ولا يفرق، وهو الذي يجعل الناس في ميزانه الإيماني سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى.

وهو الذي فيه الطمأنينة والسعادة:

أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ

[سورة الرعد: ٢٨].

وهو الذي تتحقق فيه الحياة الكريمة:

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

[سورة النحل: ٩٧].

وهو الذي يحصل به التمكين الربّاني:

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي
شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥

[سورة النور: ٥٥].

الخاتمـــة

الإسلام طريق الخلاص وسبيل النجاة

ما الخلاص من هذا الهوان والتبعيّة اللّذَيْن أُصيبت بهما الأمة الإسلامية اليوم؟

ما سبيل النجاة مما يراد بالمسلمين اليوم في جميع أنحاء الأرض؟

هل من سمات معينة لذلك المخلص؟ ولمن المستقبل في نهاية الأمر؟

الجواب: إنه الإسلام ولا شيء غيره فهو الذي ينقذ الناس مما هم فيه من حالة الضياع والهبوط والعبوديّة لغير الله، فيخرجهم كما أخرج سلف هذه الأمة من الظلمات إلى النّور، ومن الجور إلى العدل، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ونعيم الآخرة.

ولكن هذا الطريق المستقيم يحتاج إلى سالك جاد، وسائر يسير فيه دون الالتفات إلى اليمين أو اليسار

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

[سورة الأنعام: ١٥٣].

(والحق أنه لا يمكن أن ينهض صرح الحياة الإسلامية الكاملة الخالصة إلا على دعائم الإقرار بالتوحيد الذي يحيط بجميع نواحي الحياة الإنسانية الفرديّة والجماعية، والذي يحسب[1] الإنسان بموجبه إنه هو وكيل ما بيده

(١) هكذا بالنص ولعل المراد: يحس.

من شيء ملك لله، ويرى أن آلله هو المالك الشرعي الحقيقي له وللعالم كله، المعبود المطاع الذي له الأمر والنهي.

وأن لا ينبوع للهداية إلا هو، وتطمئن نفسه بكل شعور إلى أن الانحرافات عن طاعة آلله أو الاستغناء عن هدايته وإشراك غيره به في ذاته وصفاته وحقوقه وتصرفاته إن هو إلا إمعان في الضلالة من أي ناحية جاء أو في أي لون كان.

ثم إن هذا البناء - بناء الإيمان بآلله - لا يمكن توطيد دعائمه إلا إذا رأى المرء في باطن أمره رأياً جازماً، وقطع على نفسه بشعور كامل وإرادة قوية أنه هو وكل ما بيده ملك لله وراجع إلى مرضاته، وقضى على ما في نفسه من مقياس للرضا والسخط وجعله مذعناً لرضاء الربّ تعالى وسخطه، ونفى عن نفسه الأثرة والكبرياء، وصاغ نظرياته وأفكاره وآراءه ونزعاته ومناهج تفكيره في قالب ذلك العلم الذي قد أنزله آلله تعالى في كتابه العزيز.

وخلع عن عنقه ربقة جميع أنواع الولاء الذي لا يذعن لطاعة آلله.. ومكّن محبة آلله تعالى ومودته من سويداء قلبه، ونفى عن أعماق فؤاده كل صنم يطلبه بإجلاله وإكباره أكثر من آلله تعالى وأدغم حبه وبغضه وصداقته وعداوته ورغبته ونفوره وصلحه وحربه.. إلخ في مرضاة آلله تعالى حيث لا ترضى نفسه إلا بما يرضى به آلله، ولا تكره إلا ما يكرهه آلله.. وهذه مرتبة الإيمان الحقيقية وغايته المرموقة)[٢].

إن الوضع الذي تعيشه البشرية اليوم في جميع بقاع الأرض والذي يتوجه الضياع والخواء الروحي، وهذه الهتافات التي ترتفع من كل مكان تنادي بمنقذ ومخلّص يخلصها من ذلك الهوان لأمر يشيء بأنه هو الإسلام لأنه دين آلله العليم بما يصلح النفوس والخبير بجميع مكنونات الضمائر.

---

(٢) «الأسس الأخلاقية» للمودودي: (ص٤٩ - ٥٠)، الطبعة الأولى سنة ١٩٧١م، بيروت. بتصرف بسيط.

إن الإسلام (هو المنهج الوحيد الذي يعطي الفطرة ما يلائمها وهو الذي ينسق خطاها في الإبداع المادي وخطاها في الاستشراف الروحي وهو وحده الذي يملك أن يقيم لها نظاماً واقعياً للحياة يتم فيه هذا التناسق الذي لم تعرفه البشرية قط إلا في ظل النظام الإسلامي - وحده - على مدى التاريخ)[٣].

وأعداء الإسلام يعرفون جيداً أن عدوهم الوحيد هو الإسلام، ومن أجل ذلك يسعون جادّين إلى تحطيم هذا الجبل الشامخ لأنه يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية كما يعوقهم عن الطغيان والتألّه في الأرض كما يريدون، لذلك يضعون التصورات والمناهج التي لا تمت إلى هذا الدين بصلة من أجل أن تكون هي البديلة عن هذا الدين القيّم[٤].

وليكن من المعلوم لكل مسلم جاد: أن هذا الدين لا يقوم بألف كتاب تكتب عن الإسلام ولا بالخطب والمواعظ ولا بأفلام الدعاية للإسلام، وإنما يقوم على واقع حي متحرك - يتمثل هذا في المسلمين الصادقين - واقع تراه العين وتلمسه اليد وتلاحظ آثاره العقول[٥]. ومن سمات أصحاب هذا الواقع الذي يغير مجرى حياة البشرية المعاصرة أن يستعلوا بأنفسهم من موالاة أعداء الله - سواء من الكافرين أو المنافقين أو الملحدين - فلا يخدعهم هيلمان الباطل المعاصر، وأن الشرق والغرب يملك القنبلة الذريّة، والصواريخ العابرة للقارات بل يعلمون أن الله هو الأكبر، وهو الولي الناصر، وأن الغلبة للحق مهما استطال الباطل:

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ

[سورة البقرة: ٢٤٩].

---

(٣) «المستقبل لهذا الدين»: (ص١٠٩) بقليل من التصرف.

(٤) انظر الفصل الأخير من كتاب «المستقبل لهذا الدين».

(٥) انظر فصل طريق الخلاص: (ص١٨٢) من كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة» للأستاذ سيد قطب ـــ رحمه الله ـــ.

وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ

[سورة الصافات: ١٧٣].

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ

[سورة غافر: ٥١].

ويقول سبحانه في شأن الأعداء:

وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ

[سورة آل عمران: ١١١].

ولن يصل المسلمون الصادقون إلى هذه الدرجة الرفيعة إلا بالبراء من كل منهج وتشريع يخالف شريعة ٱلله، والبراءة أيضاً من كل فكر يناقض هذه العقيدة التي كانت سبب نصرة وعزة السّلفْ الصالح. وٱستمداد حكم كل صغيرة وكبيرة من هذه الشريعة الربّانية التي هي صراط ٱلله المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملّته الحنيفية التي لا ضيق فيها ولا حرج.. لم تأمر بشيء فيقول العقل لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجى، لو أباحته لكان أرفق، بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث، أوامرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة من كل داء، ظاهرها زينة لباطنها، وباطنها أجمل من ظاهرها. شعارها الصدق وقوامها الحق، وميزانها العدل وحكمها الفصل، لا حاجة بها البتّة إلى أن تكمل بسياسة ملك أو رأي ذي رأي. أكملها ٱلله بقوله:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: ٣].

وقال ﷺ: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[٦].

وحريٌّ بدعاة الخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر أن يعودوا بالأمة إلى صفاء العقيدة الممثل في:

(١) تصحيح مفهوم لا إله إلا ٱلله محمد رسول ٱلله. ودعوة الناس إلى فهم هذه الكلمة العظيمة كما فهمها رسول ٱلله ﷺ وأصحابه الأخيار، ومحو ذلك المفهوم الخاطىء الذي يردده المتأخرون وهي أنها مجرد لفظ عار من كل تكليف.

مع بيان أن من تكاليفها موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين، وتحكيم شريعة ٱلله واتباع ما أنزله ٱلله والكفر بالآلهة المزيفة والأرباب المتعددة من العرف والهوى والعادات والمتألهين الذين يشرعون للناس بغير ما أنزل ٱلله.

(٢) تصحيح مفهوم العبادة وأنه مفهوم شامل كامل وليس مجرد شعائر تؤدى بينما نظام الحياة والممات قائم على مناهج وضعها البشر تفصل بين الدِّين والدولة، وبين الدِّين والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

فالعبادة هي عقيدة وشريعة ونظام حياة. قال تعالى:

---

(٦) انظر «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج٣/٢٠٧)، والحديث سبق تخريجه (ص٩٦).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

[سورة الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

(٣) تربية الجيل على منهاج الكتاب والسنّة: لأن هذا هو الطريق الصحيح الذي به ترجع الأمة إلى ربّها ودينها.

(٤) طرد آثار الغزو الفكري وذلك بتعرية الجاهلية الحديثة، وتمزيق زيفها وبهرجتها فتبيّن انحرافاتها مع إيجاد البديل الإسلامي الصحيح.

(٥) تعميق قضية ولاء المسلم للمسلم وانتمائه لإخوانه المؤمنين فقط، وخلع الولاءات الجاهلية من قوميّة وعرقيّة ووطنيّة وعالميّة وغيرها فالمسلم أخو المسلم في أي بقعة كانت، دار الإسلام هي دار كل مسلم في جميع أنحاء الأرض.

ومن تاريخنا ما يشهد بكل جلاء على أهمية هذه القضية. فإن امرأة مسلمة أهينت بعمورية فاستغاثت: ''وا معتصماه''. فقال المعتصم: لبيك أيتها المرأة المسلمة وجهز الجيوش وفتح عمورية ونصر المرأة المؤمنة، ولم يقل إنها في وطن وأنا في وطن بل انطلق من واقع مسؤوليته كخليفة مسلم. كل الأمة المسلمة أمانة في عنقه وهو مسؤول عنها يوم يلقى الله.

ومن هنا فإن نصرة المسلمين المضطهدين في كل بقعة من بقاع الأرض أمر واجب تفرضه هذه العقيدة. ويكون واجب المؤمن – حينئذ – محبة هؤلاء المسلمين ومناصرتهم باليد واللسان والمال والنصرة في كل موطن ومناسبة.

(٦) تعميق قضية المعاداة والبراءة من أعداء الله الكفار منهم والمشركين. والمنافقين والمرتدين. وإنه لا يجتمع إيمان في قلب مع حب الكفر وأهله كما قال تعالى:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾

[سورة المجادلة: ٢٢].

والحرص على تمييز المسلم عن كل وضع وفكر يخالف كتاب ٱلله وسنّة رسوله ﷺ.

(٧) التأكيد على قضية عداوة أولياء الشيطان لأولياء الرحمن، فإن هذه العداوة قائمة منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فالحزبان لا يلتقيان أبداً لأن حزب ٱلله يريد دعوة الناس إلى عبادة ٱلله، وحزب الشيطان يدعو الناس إلى عبادة الطاغوت وطاعته، وقتال المؤمنين لصدهم عن دينهم.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾

[سورة البقرة: ٢١٧].

(٨) بعث الأمل ونفويته في النفوس بقرب نصر ٱلله كما قال ﷺ: «لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي فتعال فاقتله»[٧].

هذه رؤوس أقلام تبيّن ملامح طريق الخلاص، وإذا صدق المسلمون مع ٱلله وجدوا معيّة ٱلله وعونه لهم، لأنهم الأعلون، وهم القائمون بأمر ٱلله في أرض ٱلله، ومن ثم فهم المستحقون لولاية ٱلله وتكريمه لهم:

---

(٧) «صحيح مسلم»: (ج٤/٢٢٣٨، ح٢٩٢١) كتاب أشراط الساعة.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾

[سورة يونس: ٦٢].

إنهم حزب ٱلله وأكرم بذلك الحزب الذين يجاهدون لإعلاء كلمة ٱلله ولا تأخذهم في ٱلله لومة لائم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

[سورة المجادلة: ٢٢].

ونحن مستبشرون بخير إن شاء ٱلله، لأن طلائع وبشارات الجيل الإسلامي الجديد الذي يخلّص الأمة من هذا الهوان والضياع والتبعيّة بادية ظاهرة في كل صقع من أصقاع الأرض، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر ٱلله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأحاديث والآثار
(حسب الترتيب الهجائي)

أول الحديث أو الأثر	الصفحة

أول الحديث أو الأثر		الصفحة
إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام	(أثر)	٢٤٠
أن لا يحج بعد العام مشرك		٢٢٠
إن لي كاتباً نصرانيا	(أثر)	٣٧٠
إنما الأعمال بالنيات		٢٨٨
إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء		١٨
أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين		٢٧٦
أن الناس نزلوا مع رسول الله		٣٢٦
إنها ـ أي سورة الكافرون ـ براءة من الشرك		١٨٠
إني لم أؤمر بهذا		١٦٨
أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ		٣٤٠
أن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم		٣٢٦
إن يوسف قد سأل العمل		٨٩
أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله		٤١
أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله		٤٢
أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم	(أثر)	١٠٣
أومخرجي هم		٢٨١
إياكم ومحقرات الذنوب		١٢٢
إياكم ورطانة الأعاجم	(أثر)	٣٣٣
أينما لقيتموهم فاقتلوهم		٥٠
آية الإيمان حب الأنصار		١٩٤
آية المنافق ثلاث		٦٣
بحسب امريء يرى منكراً لا يستطيع أن يغيره أن	(أثر)	٣٨١
بل الدم الدم والهدم الهدم		١٨٧

أول الحديث أو الأثر		الصفحة
حديث قراءة المصطفى ﷺ بـ (الكافرون) و (الإخلاص)		١٨٠
حديث كعب بن مالك		٣٨٨
حديث مزارعته لليهود		٣٦٩
حديث معاذ حين بعثه رسول الله إلى اليمن		٩٩
حديث الوثيقة التي كتبها رسول الله بين		١٩٧
حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة	(أثر)	٣٧٨
الحمد لله الذي أنقذه من النّار		٣٥٩
خالفوا اليهود		٣٢٧
دعوها فإنها منتنة		١٥٨
رأس الأمر الإسلام وعموده		٢٩٣
الرجل على دين خليله		٢٤٠
رويداً يا أهل يثرب	(أثر)	١٨٧
سباب المسلم فسوق و		٥٩
ستجدون قوماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه	(أثر)	٣١٢
الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل		٦٣
شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً		٣٣
غيبت عن أول قتال قاتله رسول الله	(أثر)	٣٩٠
فهلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري		١٠٧
قوموا إلى جنّة عرضها السموات والأرض		٢٩٦
كان الرجل منّا إذا تعلم عشر آيات	(أثر)	١٠٢
كل بدعة ضلالة		١٤٤
كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته		٣٣٥
كنت رجلاً قيناً فعملت للعاص بن وائل		٣٦٧

أول الحديث أو الأثر	الصفحة

أول الحديث أو الأثر	الصفحة

أول الحديث أو الأثر		الصفحة
من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم		١١٤
من رأى منكم منكراً فليغيره		٣٠٩
من عادى لي ولياً فقد		٩١
من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له		٣٥
من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله		٤٨
من كان مستناً فليستن بمن قد مات	(أثر)	١٤٣
من كنت مولاه فعلي مولاه		٨٧
من لقيت من وراء هذا الحائط		٣٠
من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله		٢٩
المهاجر من هجر ما نهى الله عنه		٣١٠
مهيم؟ قال: تزوجت		١٩٥
المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً		١٨٨
المؤمن مرآة أخيه		٢٦٩
نعم صلي أمك		٣٥٣
هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين		١٩٧
واستأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً من		٣٦٦
والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله		٢٠٩
والله لقد بعث النبي ﷺ على أشد حال	(أثر)	١٧
والله لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها	(أثر)	٣٧٧
والله ما أحب أن	(أثر)	٣٨٩
واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن		١٠٨
ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك	(أثر)	٣٧٠
ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن		٣٨٠

أول الحديث أو الأثر	الصفحة

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة

الموضوع	الصفحة

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع
(حسب الحروف الهجائية)

«أ»

١ ـ «القرآن الكريم».

٢ ـ «الابتعاث ومخاطره»، محمد لطفي الصباغ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.

٣ ـ «أبو بصير قمة في العزة الإسلامية»، محمد حسن بريغش، الثانية سنة ١٣٩٧هـ، مكتبة الحرمين بالرياض.

٤ ـ «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، د. محمد حسين، الثالثة سنة ١٣٩٢هـ، دار النهضة العربية، بيروت.

٥ ـ «الإتقان في علوم القرآن»، جلال الدين السيوطي (ت[1]) سنة ٩١١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٧٤م، الهيئة المصرية للكتاب.

٦ ـ «آثار الحرب في الفقه الإسلامي»، د. وهبة الزحيلي، الثانية ١٤٨٥هـ.

٧ ـ «الاحتجاج بالقدر»، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت سنة ٧٢٨هـ، ط سنة ١٣٩٣هـ، المكتب الإسلامي.

٨ ـ «أحكام أهل الذمة»، للعلاّمة محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ت سنة ٧٥١هـ، تحقيق: صبحي الصالح، الأولى سنة ١٣٨١هـ جامعة دمشق.

(١) هذه الإشارة « ت » تعني أن المؤلف توفي سنة كذا ....

٩ ـ «أحكام القرآن»، لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ت سنة ٥٤٣هـ، تحقيق: علي البجاوي، ط سنة ١٣٩٢هـ عيسى الحلبي.
١٠ـ «أحكام القرآن»، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ت سنة ٣٧٠هـ، تحقيق محمد قمحاوي، الثانية، دار المصحف بالقاهرة.
١١ـ «الأدب المفرد»، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ت سنة ٢٥٦هـ، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، السلفية بمصر.
١٢ـ «الأربعون النووية»، للإمام يحيى بن شرف الدين النووي ت سنة ٦٧٦هـ، الثانية سنة ١٩٧٣م، مطابع قطر الوطنية.
١٣ـ «إرشاد الطالب»، للشيخ سليمان بن سحمان ت سنة ١٣٤٩هـ، الأولى سنة ١٣٤٠هـ، مطبعة المنار، مصر.
١٤ـ «أزمة العصر»، د. محمد محمد حسين، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، دار عكاظ، جدة.
١٥ـ «أساليب الغزو الفكري»، د. علي جريشة وزميله، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، دار الاعتصام، القاهرة.
١٦ـ «أسباب النزول»، لأبي الحسين علي بن أحمد الواحدي ت سنة ٤٦٨، الثانية سنة ١٣٨٧هـ، مصطفى الحلبي، مصر.
١٧ـ «الاستيعاب في أسماء الأصحاب»، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، ت سنة ٣٦٣هـ، الأولى سنة ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة بمصر.
١٨ـ «الأسس الأخلاقية»، لأبي الأعلى المودودي، ت سنة ١٣٩٩هـ، الأولى سنة ١٩٧١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٩ـ «الإسلام على مفترق الطرق»، محمد أسد، ترجمة عمر فروخ، الثامنة سنة ١٩٧٤م، دار العلم للملايين، بيروت.
٢٠ـ «الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة»، د. محمد البهي، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٢١ـ «الإسلام وأوضاعنا القانونية»، عبد القادر عودة، الثانية سنة ١٣٨٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٢ـ «الإسلام والطاقات المعطلة»، الشيخ محمد الغزالي، الثانية سنة ١٣٨٣هـ، دار الكتب الحديثة، مصر.
٢٣ـ «الإسلام ومشكلات الحضارة»، للأستاذ سيد قطب، ت سنة ١٩٦٦م، دار الشروق.
٢٤ـ «الإصابة في تمييز الصحابة»، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت سنة ٨٥٢هـ، الأولى سنة ١٣٢٨هـ، السعادة بمصر.
٢٥ـ «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار»، لأبي محمد بن موسى الحازمي الهمذاني ت سنة ٥٨٤هـ، تحقيق راتب حاكمي، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦هـ، الناشر: راتب حاكمي.
٢٦ـ «الاعتصام»، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، ت سنة ٧٩٠هـ، المكتبة التجارية، مصر.
٢٧ـ «الاعتقاد على مذهب السلف»، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت سنة ٤٥٨هـ، تحقيق: أحمد مرسي، الأولى سنة ١٣٨٠هـ.
٢٨ـ «الأعلام»، خير الدين الزركلي، الرابعة سنة ١٩٧٩م، دار العلم للملايين، بيروت.
٢٩ـ «أعلام السنّة المنشورة»، للشيخ حافظ الحكمي، ت سنة ١٣٧٧هـ، الثالثة سنة ١٣٩٩هـ، إدارات البحوث العلمية بالرياض.
٣٠ـ «إعلام الموقعين»، لابن القيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط ١٩٧٣م، تصوير دار الجيل، بيروت.
٣١ـ «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الثانية سنة ١٣٩٥هـ، تصوير دار المعرفة، بيروت.
٣٢ـ «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، لابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الثانية سنة ١٣٦٩هـ، مطبعة أنصار السنّة بالقاهرة.

٣٣ـ «أقضية الرسول ﷺ»، عبد الله بن محمد بن فرج المالكي، الناشر: حمد ابن فالح آل ثاني.
٣٤ـ «أمثال القرآن»، لابن القيم، تحقيق: د. ناصر الرشيد، الأولى سنة ١٤٠٠هـ، دار مكة للطباعة.
٣٥ـ «الأموال»، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ت سنة ٢٢٤هـ، تحقيق: د. محمد خليل هراس، الثانية سنة ١٣٩٥هـ، مكتبة الكليات الأزهرية.
٣٦ـ «الإنسان بين المادية والإسلام»، للأستاذ محمد قطب، الخامسة سنة ١٣٩٨هـ، دار الشروق.
٣٧ـ «الأيضاح والتبيين» للشيخ حمود التويجري، الأولى سنة ١٣٨٤هـ، مؤسسة النور بالرياض.
٣٨ـ «الإيمان»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الثانية سنة ١٣٩٢هـ، المكتب الإسلامي.
٣٩ـ «الإيمان: حقيقته . أركانه . نواقضه»، د. محمد نعيم ياسين، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، جمعية عمال المطابع، الأردن.
٤٠ـ «الإيمان»، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ت سنة ٢٣٥هـ، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، سنة ١٣٨٥هـ، المطبعة العمومية بدمشق.

«ب»

٤١ـ «بدائع الفوائد»، للعلامة ابن القيم، إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة.
٤٢ـ «البداية والنهاية»، للحافظ إسماعيل عماد الدين بن كثير، ت سنة ٧٧٤هـ، ط سنة ١٩٦٦م، مكتبة المعارف، بيروت.
٤٣ـ «بضع رسائل في عقائد الإسلام»، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، ت سنة ١٢٠٦هـ، تحقيق: محمد رشيد رضا، الأولى سنة ١٣٤٩هـ، المنار بمصر.

٤٤ـ «بروتوكولات حكماء صهيون»، ترجمة محمد خليفة التونسي، الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٥ـ «بيان النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك»، للشيخ حمد بن عتيق ت سنة ١٣٠١هـ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٣هـ، دار الفكر، بيروت.

« ت »

٤٦ـ «تاريخ الأمم والملوك»، للإمام محمد بن جرير الطبري ت سنة ٣١٠هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الثانية ١٣٨٧هـ، دار المعارف، مصر.

٤٧ـ «التبيان في أقسام القرآن»، لابن القيم، تعليق: طه يوسف شاهين، مكتبة القاهرة، مصر.

٤٨ـ «تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والهجران»، للشيخ حمود التويجري، الأولى سنة ١٣٨٣هـ، مؤسسة النور بالرياض.

٤٩ـ «التحفة العراقية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الثانية سنة ١٣٩٩هـ، المطبعة السلفية بالقاهرة.

٥٠ـ «تحكيم القوانين»، للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ت سنة ١٣٨٩هـ، طبع سنة ١٣٨٠هـ، مطابع الثقافة بمكة.

٥١ـ «التدمرية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الثانية سنة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي .

٥٢ـ «تذييل على كشف الشبهات»، للشيخ عبد الرحمن الدوسري، الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، مؤسسة النور بالرياض.

٥٣ـ «التشريع الجنائي»، للأستاذ عبد القادر عودة، الثالثة سنة ١٣٨٣هـ، مكتبة دار العروبة بمصر .

٥٤ـ «التصوير الفني في القرآن»، سيد قطب، الطبعة الشرعية الرابعة، سنة

١٣٩٨هـ، دار الشروق.
٥٥ـ «التطور والثبات في حياة البشر»، للأستاذ محمد قطب، ط سنة ١٣٩٤هـ، دار الشروق.
٥٦ـ «تعجيل المنفعة»، لابن حجر، طبع هاشم اليماني.
٥٧ـ «التعليق المغني على الدارقطني»، عبد الله هاشم اليماني، ط. سنة ١٣٨٦هـ.
٥٨ـ «التفسير القيم لابن القيم»، جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، تصوير لجنة التراث، بيروت.
٥٩ـ «تفسير كلام المنان»، للشيخ عبد الرحمن بن سعدى، تحقيق: محمد زهري النجار، المؤسسة السعدية بالرياض.
٦٠ـ «تفسير سورة النور»، لابن تيمية، الأولى سنة ١٣٩٧هـ، مكتبة المنار الإسلامية بالكويت.
٦١ـ «تفسير البغوي» المعروف بـ «معالم التنزيل»، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، ت سنة ٥١٦هـ، الثانية سنة ١٣٧٥هـ، مطبعة الحلبي بمصر.
٦٢ـ «تفسير القرآن العظيم»، للحافظ ابن كثير، تحقيق: عبد العزيز غنيم وعاشور والبنا، مطبعة الشعب.
٦٣ـ «تفسير الخازن» المسمى «لباب التأويل في معاني التنزيل»، لعلاء الدين علي بن محمد الخازن، ت سنة ٧٢٥هـ، الثانية سنة ١٣٧٥هـ، مصطفى الحلبي بمصر.
٦٤ـ «تقريب التهذيب»، لابن حجر، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، طبع مصر.
٦٥ـ «تلبيس إبليس»، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ت سنة ٥٩٧هـ، تحقيق: خير الدين علي، دار الوعي، بيروت.
٦٦ـ «تلخيص المستدرك»، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ت سنة

٨٤٨هـ، مطبوع مع المستدرك.
٦٧ـ «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع»، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي، ت سنة ٣٧٧هـ، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، الثانية سنة ١٣٨٨هـ، مكتبة المثنى ببغداد.
٦٨ـ «تهذيب التهذيب»، لابن حجر العسقلاني، الأولى سنة ١٣٢٦هـ، بحيدر آباد، تصوير دار صادر، بيروت.
٦٩ـ «تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد»، للشيخ سليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب، ت سنة ١٢٣٣هـ، ط إدارات البحوث العلمية في الرياض.

« ج »

٧٠ـ «جامع الأصول»، لمجد الدين أبي السعادات المبارك محمد بن الأثير، ت سنة ٦٠٦هـ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الأولى سنة ١٣٨٩هـ، مكتبة الحلواني والملاح ببيروت.
٧١ـ «جامع البيان عن تأويل القرآن» [تفسير الطبري]، لأبي جعفر محمد ابن جرير الطبري، الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، مصطفى الحلبي.
٧٢ـ «الجامع الفريد»، مجموعة من علماء الدعوة، مطبعة المدينة بالرياض.
٧٣ـ «جامع العلوم والحكم»، لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، ت سنة ٧٩٥هـ، الثالثة سنة ١٣٨٢هـ، مصطفى الحلبي.
٧٤ـ «الجامع لأحكام القرآن» [تفسير القرطبي]، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت سنة ٦٧١هـ، تحقيق: أبي إسحاق أطفيش، تصوير عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٨٧هـ، دار الكتاب العربي بالقاهرة.
٧٥ـ «الجانب الآلهي من التفكير الإسلامي»، د. محمد البهي، الخامسة سنة ١٣٩١هـ، دار الفكر ببيروت.
٧٦ـ «جاهلية القرن العشرين»، للأستاذ محمد قطب، ط سنة ١٣٩٤هـ،

دار الشروق.
٧٧ـ «جذور البلاء»، للأستاذ عبد الله التل، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.
٧٨ـ «جريدة عكاظ»، العدد الأسبوعي، رقم٤٧٢٨ في ١٣٩٩/٦/١٦هـ.
٧٩ـ «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تصوير مطابع المجد بالرياض.
٨٠ـ «الجواب الكافي»، لابن القيم، الأولى سنة ١٣٩٤هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة .

«ح»

٨١ـ «حد الإسلام وحقيقة الإيمان»، للأستاذ عبد المجيد الشاذلي، مكتوب بالآلة الكاتبة.
٨٢ـ «حصاد الغرور»، للشيخ محمد الغزالي، الأولى سنة ١٣٩٠هـ، دار البيان بالكويت.
٨٣ـ «حصوننا مهددة من داخلها»، د. محمد محمد حسين، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.
٨٤ـ «الحضارة الإسلامية . أسسها ومبادؤها»، للمودودي، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠هـ، دار العربية، بيروت.
٨٥ـ «الحكم الجديرة بالإذاعة»، لابن رجبْ (ضمن مجموع)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة أنصار السنّة.
٨٦ـ «حلية الأولياء»، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ت سنة ٤٣٠هـ، المكتبة السلفية.
٨٧ـ «الحوادث والبدع»، لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، ت سنة ٥٢٠هـ، تحقيق: محمد الطالبي، دار الأصفهاني بجدة.
٨٨ـ «حياة الصحابة»، للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، دار المعرفة، بيروت.

« خ »

٨٩ - «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق.

٩٠ - «خاطرات جمال الدين الأفغاني»، اختيار عبد العزيز سيد الأهل، الناشر: دار حراء بالقاهرة.

٩١ - «دراسات قرآنية للأستاذ»، محمد قطب، دار الشروق.

٩٢ - «الدرر السنية في الأجوبة النجدية»، جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، الثانية سنة ١٣٨٥هـ، دار الإفتاء بالرياض.

٩٣ - «درس النكبة الثانية»، د. يوسف القرضاوي، الأولى سنة ١٣٨٨هـ.

٩٤ - «الدفاع عن أهل السنّة والاتباع»، للشيخ حمد بن عتيق، نشرها: إسماعيل بن عتيق. بدون تاريخ.

٩٥ - «دقائق التفسير»، لابن تيمية، وتحقيق: د. محمد السيد الجليند، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، دار الأنصار بالقاهرة.

٩٦ - «دمروا الإسلام أبيدوا أهله»، جلال العالم، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ.

٩٧ - «دور الإسلام في حياة البشرية»، محمد قطب، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.

٩٨ - «رد ابن حزم على ابن النغريله اليهودي»، تحقيق إحسان عباس، سنة ١٣٨٠هـ، دار العروبة بالقاهرة.

٩٩ - «ردة ولا أبا بكر لها»، لأبي الحسن الندوي، الثالثة سنة ١٣٩٨هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.

١٠٠- «الردة بين الأمس واليوم»، محمد كاظم حبيب، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المكتبة العلمية بلاهور باكستان.

١٠١- «الرسائل المنيرية»، مجموعة من العلماء، المطبعة المنيرية بالقاهرة.

١٠٢- «الرسائل المفيدة»، للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن،

تصحيح: عبد الرحمن الرويشد، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار العلوم بالقاهرة.

١٠٣- «الرسالة التبوكية»، لابن القيم، الثانية سنة ١٣٩٤هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة.

١٠٤- «رياض الصالحين»، للنووي، تحقيق: الألباني، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي .

١٠٥- «زاد المعاد في هدي خير العباد»، للعلامة ابن القيم، تحقيق شعيب الأرناؤوط وأخيه، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

« س »

١٠٦- «سبيل الدعوة الإسلامية»، د. محمد أمين المصري، الأولى سنة ١٤٠٠هـ، دار الأرقم بالكويت.

١٠٧- «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، محمد ناصر الدين الألباني، الثانية سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.

١٠٨- «سنن ابن ماجه»، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت سنة ٢٧٥هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط سنة ١٣٩٥هـ، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٩- «سنن أبي داود»، للإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ت سنة ٢٧٥هـ، تحقيق وتعليق: عزت الدعاس، الأولى سنة ١٣٩١هـ، الناشر: محمد علي السيد، سوريا.

١١٠- «سنن الترمذي»، الإمام محمد بن عيسى الترمذي، ت سنة ٢٧٩هـ، تعليق: عزت الدعاس، ط سنة ١٣٨٥هـ، دار الدعوة، حمص.

١١١- «سنن الدارقطني»، الإمام علي بن عمر الدارقطني، ت سنة ٣٨٥، نشر: عبد الله هاشم اليماني، سنة ١٣٨٦هـ.

١١٢- «سنن الدارمي»، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ت سنة ٢٥٥، طبع بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنّة المحمدية،

تصوير الباز بمكة.
١١٣ـ «السنن الكبرى»، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تصوير دار الفكر ببيروت.
١١٤ـ «سنن النسائي»، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ت سنة ٣٠٣هـ، الأولى سنة ١٣٤٨هـ، تصوير دار الفكر، بيروت.
١١٥ـ «السنة»، للإمام أحمد بن حنبل، ت سنة ٢٤١هـ، تصحيح: الشيخ إسماعيل الأنصاري، إدارات البحوث العلمية بالرياض.
١١٦ـ «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»، د. مصطفى السباعي، الثانية سنة ١٣٩٦هـ، المكتب الإسلامي.
١١٧ـ «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط سنة ١٣٧٩هـ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
١١٨ـ «سيرة الرسول ﷺ»، للأستاذ محمد عزة دروزة، الثالثة سنة ١٤٠٠هـ، مؤتمر السيرة الثالث بقطر.
١١٩ـ «السيرة النبوية»، للإمام عبد الملك بن هشام، ت سنة ٢١٨، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، الأولى سنة ١٣٥٥هـ، مصطفى الحلبي.

« ش »

١٢٠ـ «شذرات البلاتين»، مجموعة من العلماء، تحقيق: محمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، مطبعة أنصار السنّة بالقاهرة.
١٢١ـ «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، عبد الحي بن العماد الحنبلي، ت سنة ١٠٨٩هـ، تصوير عن الطبعة الأولى، دار الآفاق، بيروت.
١٢٢ـ «شرح السنة»، للإمام الحسين بن مسعود البغوي، ت سنة ٥١٦هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي.
١٢٣ـ «شرح الطحاوية»، لابن أبي العز الحنفي، ط ٤ سنة ١٣٩١هـ،

المكتب الإسلامي.
١٢٤ـ «شرح النووي على صحيح مسلم»، للإمام يحيى بن شرف النووي، الثانية سنة ١٣٩٢هـ، تصوير دار الفكر، بيروت.
١٢٥ـ «الشريعة»، لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ت سنة ٣٦٠هـ، تحقيق: محمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٦٩هـ، مطبعة أنصار السنّة.
١٢٦ـ «الشعوبية الجديدة»، محمد مصطفى رمضان، الأولى سنة ١٣٨٩هـ.

« ص »

١٢٧ـ «الصارم المسلول على شاتم الرسول»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، الأولى سنة ١٣٧٩هـ، مكتبة تاج بالقاهرة.
١٢٨ـ «صحيح البخاري»، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ت سنة ٢٥٦هـ، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٨٠هـ، السلفية بمصر.
١٢٩ـ «صحيح الجامع الصغير»، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الأولى سنة ١٣٨٨هـ، المكتب الإسلامي.
١٣٠ـ «صحيح مسلم»، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، ت سنة ٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٧٤هـ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٣١ـ «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»، لأبي الحسن الندوي، الثالثة سنة ١٣٩٧هـ، دار القلم بالكويت.
١٣٢ـ «الصلاة»، لابن القيم، الثانية سنة ١٣٩١هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة.
١٣٣ـ «صيد الخاطر»، لابن الجوزي، تحقيق: علي وناجي الطنطاوي، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، دار الفكر، بيروت.
١٣٤ـ «طبقات الحنابلة»، لأبي الحسين محمد بن أبي يعلى، ت سنة ٤٥٨هـ،

تحقيق: محمد حامد الفقي، سنة ١٣٧١هـ، مطبعة أنصار السنة.
١٣٥ـ «طريق الدعوة في ظلال القرآن»، جمع: أحمد فائز، الثالثة سنة ١٣٩٧هـ.
١٣٦ـ «طريق الهجرتين وباب السعادتين»، لابن القيم، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة.
١٣٧ـ «ضعيف الجامع الصغير وزيادته»، للألباني، الثانية، ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.

« ع »

١٣٨ـ «العبودية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.
١٣٩ـ «العرب والإسلام»، لأبي الحسن الندوي، الثانية سنة ١٣٨٩هـ، المكتب الإسلامي.
١٤٠ـ «عصر المأمون»، د. أحمد مزيد رفاعي، الثانية سنة ١٣٤٦هـ، دار الكتب المصرية.
١٤١ـ «العقيدة الطحاوية»، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، ت سنة ٣٢١هـ، الرابعة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي.
١٤٢ـ «العقيدة في الله»، للأستاذ عمر سليمان الأشقر، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، مكتبة الفلاح بالكويت.
١٤٣ـ «العقيدة الواسطية»، لابن تيمية، بشرح: الشيخ خليل هراس، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٨٦هـ، المكتبة السلفية بالمدينة.
١٤٤ـ «علماء نجد خلال ستة قرون»، عبد الله بن عبد الرحمن البسام، الأولى ١٣٩٨هـ، مكتبة النهضة بمكّة.
١٤٥ـ «العلاقات الدولية في الإسلام»، محمد أبو زهرة، ط سنة ١٣٨٤هـ، الدار القومية للطباعة، مصر.
١٤٦ـ «العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي»، للأستاذ سفر عبد الرحمن

الحوالي، الناشر: مركز البحوث العلمي بجامعة أم القرى.
١٤٧ـ «الغارة على العالم الإسلامي»، ترجمة: محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، الثانية سنة ١٣٨٧هـ، منشورات العصر الحديث.
١٤٨ـ «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام»، للألباني، سنة ١٤٠٠هـ، المكتب الإسلامي.

« ف »

١٤٩ـ «الفتاوى السعدية»، للشيخ عبد الرحمن بن سعدي، الأولى سنة ١٣٨٨هـ، دار الحياة، دمشق.
١٥٠ـ «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، لابن حجر العسقلاني، الأولى سنة ١٣٨٠هـ، السلفية بمصر.
١٥١ـ «الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد»، لأحمد بن عبد الرحمن الساعاتي، تصوير دار إحياء التراث ببيروت.
١٥٢ـ «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»، للشيخ عبد الرحمن بن حسن، ت سنة ١٢٨٥هـ، ط السابعة سنة ١٣٧٧هـ، مطبعة أنصار السنّة.
١٥٣ـ «الفرق بين الفِرَق»، عبد القاهر البغدادي، ت سنة ٤٢٩هـ، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط محمد علي صبيح بالقاهرة.
١٥٤ـ «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، لابن تيمية، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.
١٥٥ـ «فقه السيرة»، للشيخ محمد الغزالي، مطابع علي بن علي بقطر.
١٥٦ـ «الفكر الإسلامي المعاصر ، دراسة وتقويم»، للأستاذ غازي التوبة، الثانية ١٩٧٧م، دار القلم، بيروت.
١٥٧ـ «فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام»، للأستاذ صالح العبود، الناشر: دار طيبة بالرياض.
١٥٨ـ «الفوائد»، لابن القيم، الثالثة سنة ١٣٩٦هـ، مكتبة الجامعة بالقاهرة.

١٥٩ـ «في ظلال القرآن»، للأستاذ سيد قطب، الطبعة المشروعة، دار الشروق.

« ق »

١٦٠ـ «القاموس المحيط»، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت سنة ٨١٧هـ، الثالثة سنة ١٣٠١هـ، المطبعة الأميرية ببولاق.

١٦١ـ «قصص الأنبياء»، لابن كثير، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد، الأولى سنة ١٣٨٨هـ، دار الكتب الحديثة، مصر.

١٦٢ـ «القصيدة النونية»، لابن القيم، ط سنة ١٣٩٨هـ، إدارة ترجمان السنّة بلاهور، باكستان.

١٦٣ـ «قطر الولي»، للعلاّمة محمد بن علي الشوكاني ت سنة ١٢٥٠هـ، تحقيق: إبراهيم هلال، الأولى سنه ١٣٨٩هـ، الكتب الحديثة

« ك »

١٦٤ـ «كتاب التوحيد»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب. طبع مع فتح المجيد، تحقيق: محمد حامد الفقي، السابعة سنة ١٢٧٧هـ، مطبعة أنصار السنّة.

١٦٥ـ «كشف الشبهات»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، مؤسسة النور بالرياض.

١٦٦ـ «كفاح دين»، للشيخ محمد الغزالي، الثالثة سنة ١٣٨٥هـ، دار الكتب الحديثة، مصر.

١٦٧ـ «الكفر والمكفرات»، أحمد عز الدين البيانوني، ط سنة ١٣٩٥هـ، مكتبة الهدى بحلب.

١٦٨ـ «الكلمات النافعة»، للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ت سنة ١٢٣٣هـ، الثانية، المطبعة السلفية بالقاهرة.

١٦٩ـ «كلمة الإخلاص»، للإمام عبد الرحمن بن رجب، تحقيق: زهير

الشاويش والألباني، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.
١٧٠ـ «لسان العرب»، محمد بن مكرم بن منظور، ت سنة ٧١١هـ، تصنيف: يوسف خياط والمرعشلي، سنة ١٣٨٩هـ، دار لسان العرب، بيروت.
١٧١ـ «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان»، للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، تصوير المكتبة الإسلامية، بيروت.

« م »

١٧٢ـ «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، لأبي الحسن الندوي، العاشرة سنة ١٣٩٤هـ، مطابع قطر.
١٧٣ـ «مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب»، نشرتها: جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٨هـ، الرياض.
١٧٤ـ «ما هي علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى»، للأستاذ أحمد محمود الأحمد، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.
١٧٥ـ «مبادىء الإسلام»، للمودودي، ط سنة ١٣٩٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٧٦ـ «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت سنة ٨٠٧هـ، الثانية ١٩٦٧م، تصوير دار الكتاب، بيروت.
١٧٧ـ «مجلة رابطة العالم الإسلامي الشهرية»، العدد الخامس، جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ.
١٧٨ـ «مجلة العربي الكويتية»، العدد ٢٦٧، ربيع الأول سنة ١٤٠١هـ.
١٧٩ـ «مجلة المجتمع الكويتية»، العدد ٤٥٠.
١٨٠ـ «مجموع»، لابن تيمية، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ، مطبعة المنار بمصر.
١٨١ـ «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، سنة ١٣٨١هـ، الرياض.

١٨٢- «مجموعة التوحيد»، لابن تيمية وابن عبد الوهاب، ط سنة ١٩٧٨م، دار الفكر بالقاهرة.

١٨٣- «مجموعة التوحيد النجدية»، مجموعة من العلماء، ط سنة ١٣٨٤هـ، مطبعة الحكومة[1].

١٨٤- «مجموعة رسائل ابن عتيق»، للشيخ سعد بن عتيق، ت سنة ١٣٤٩هـ، ط سنة ١٩٧٩م، دار الاعتصام بالقاهرة.

١٨٥- «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»، مجموعة من علماء الدعوة، تحقيق: محمد رشيد رضا، الأولى سنة ١٣٤٦هـ، مطبعة المنار بمصر.

١٨٦- «محاسن التأويل»، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٧٦هـ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

١٨٧- «المحلى»، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم، ت سنة ٤٥٦هـ، تحقيق: حسن زيدان طلبة، ط سنة ١٣٩٢هـ، مكتبة الجمهورية بمصر.

١٨٨- «مختار الصحاح»، محمد بن أبي بكر الرازي، ط سنة ١٣٦٩هـ، مصطفى الحلبي، القاهرة.

١٨٩- «مختصر سنن أبي داود»، للحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، ت سنة ٦٥٦هـ، تحقيق: أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٦٧هـ، مطبعة أنصار السنّة.

١٩٠- «المخططات الصهيونية» [محاضرة]، للأستاذ محمد قطب، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.

١٩١- «مدارج السالكين»، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، مطبعة أنصار السنّة.

١٩٢- «مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة»، إملاءات للأستاذ محمد قطب لطلاب السنة المنهجية بالدراسات العليا بمكّة، سنة ٩٨ / ١٣٩٩هـ.

---

(١) هذه المجموعة والتي قبلها لا تتفقان إلا في خمس رسائل مكررة فيهما وبقية الرسائل مختلفة عن بعضها البعض.

١٩٣ـ «مسائل الإمام أحمد»، رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانيء، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ، المكتب المصري.

١٩٤ـ «المسائل الماردينية»، لابن تيمية، تحقيق: الشاويش، الثالثة سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.

١٩٥ـ «المستدرك»، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، ت سنة ٤٠٥هـ، ط سنة ١٣٩٨هـ، تصوير دار الفكر، بيروت.

١٩٦ـ «المستقبل لهذا الدين»، للأستاذ سيد قطب، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار الشروق.

١٩٧ـ «المسند»، للإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.

١٩٨ـ «المسند»، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة الرابعة، سنة ١٣٧٣هـ، دار المعارف بمصر.

١٩٩ـ «مشكاة المصابيح»، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: الألباني، الثانية، سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.

٢٠٠ـ «المصباح المنير»، أحمد بن محمد المقري الفيومي، ت سنة ٧٧٠هـ، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار الكتب العلمية.

٢٠١ـ «معارج القبول»، للشيخ حافظ الحكمي، ت سنة ١٣٧٧هـ، الطبعة الأولى، تصوير إدارات البحوث العلمية بالرياض.

٢٠٢ـ «المعارف»، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت سنة ٢٧٦هـ، تحقيق: ثروت عكاشة، الثانية سنة ١٣٨٨هـ، دار المعارف.

٢٠٣ـ «معالم السنن»، للإمام حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، ت سنة ٣٨٨هـ، تحقيق: أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٧٩هـ، مطبعة أنصار السنّة.

٢٠٤ـ «معالم في الطريق»، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق.

٢٠٥ـ «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث»، ترتيب: لفيف من المستشرقين،

الأولى سنة ١٩٣٦م، نشره: د. أي ونسنك .
٢٠٦ـ «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، محمد فؤاد عبد الباقي، تصوير: دار إحياء التراث العربي.
٢٠٧ـ «مصعب بن عمير الداعية المجاهد»، للأستاذ محمد بريغش، الثالثة سنة ١٣٩٥هـ، دار القلم، بيروت.
٢٠٨ـ «المغني»، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، ت سنة ٦٢٠هـ، تحقيق: طه محمد الزيني، ط سنة ١٣٩٠هـ، مكتبة القاهرة.
٢٠٩ـ «مفتاح الصحيحين»، للحافظ محمد الشريف بن مصطفى، الثانية سنة ١٣٩٥هـ، تصوير: دار الكتب العلمية.
٢١٠ـ «مفتاح كنوز السنّة»، د . أ . ي فنسنك، ترجمة: محمد فؤاد عبد الباقي، ط سنة ١٣٩١هـ، نشره: سهيل اكديمي لاهور.
٢١١ـ «المقاصد الحسنة»، للإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ت سنة ٩٠٢هـ، تعليق: عبد الله الصديق، ط سنة ١٣٩٥هـ، مكتبة الخانجي.
٢١٢ـ «مقالات الإسلاميين»، لأبي الحسن الأشعري، ت سنة ٣٣٠هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الثانية سنة ١٣٨٩هـ، مكتبة النهضة بالقاهرة.
٢١٣ـ «مكائد يهودية عبر التاريخ»، للأستاذ عبد الرحمن الميداني، الأولى سنة ١٣٩٤هـ، دار القلم، بيروت.
٢١٤ـ «المنافقون في القرآن الكريم»، للأستاذ عبد العزيز الحميدي، رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة.
٢١٥ـ «المنهاج في شعب الإيمان»، لأبي عبد الله الحسين الحسن الحليمي، ت سنة ٤٠٣هـ، تحقيق حلمي فودة، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، دار الفكر، بيروت.
٢١٦ـ «منهج التربية الإسلامية»، للأستاذ محمد قطب، الجزء الثاني، ط سنة ١٤٠٠هـ، دار الشروق.

٢١٧ـ «منهج القرآن في التربية»، محمد شديد، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢١٨ـ «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان»، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت سنة ٨٠٧هـ، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، تصوير: دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١٩ـ «موافقة الصحيح المنقول لصريح المعقول»، لابن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقي، سنة ١٣٧٠هـ، مطبعة السنّة المحمدية.
٢٢٠ـ «موسوعة العقاد»، عباد محمود العقاد، ط سنة ١٣٩٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٢١ـ «الموطأ»، للإمام مالك بن أنس، ت سنة ١٧٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، تصوير: دار إحياء التراث، بيروت.

« ن »

٢٢٢ـ «نظرية التربية الإسلامية»، للشيخ محمد الغزالي، بحث مقدم لندوة التربية الإسلامية بمكّة، في ١٤٠٠/٦/١١هـ.
٢٢٣ـ «النفاق وآثاره ومفاهيمه»، للشيخ عبد الرحمن الدوسري، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ، دار الأرقم بالكويت.
٢٢٤ـ «النهاية في غريب الحديث»، لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، الأولى سنة ١٣٨٣هـ، دار إحياء الكتب العربية.
٢٢٥ـ «نيل الأوطار»، محمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأخيرة، مصطفى الحلبي.
٢٢٦ـ «هداية الباري ترتيب صحيح البخاري»، عبد الرحيم الطهطاوي، الثالثة سنة ١٣٥٣هـ، المكتبة التجارية، القاهرة.
٢٢٧ـ «هداية الحيارى»، لابن القيم، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٢٢٨ـ «الهدية الثمينة»، للشيخ عبد الله السليمان بن حميد، الثانية سنة ١٣٧٤هـ، دار مصر للطباعة، القاهرة.

٢٢٩ـ «الهدية السنية»، جمع الشيخ سليمان بن سحمان، تعليق: رشيد رضا، مطابع دار الثقافة بمكّة.

٢٣٠ـ «هذا ديننا»، للشيخ محمد الغزالي، الثانية سنة ١٣٨٥هـ، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٢٣١ـ «هل نحن مسلمون»، للأستاذ محمد قطب، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار الشروق.

الفهـــرس

فهرس الموضوعات

الموضـوع | الصفحة

الباب الأول
مفهوم الولاء والبراء

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الباب الثاني
من مقتضيات الولاء والبراء

الموضــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث

الصورة التطبيقية للولاء والبراء في الماضي والحاضر

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة